TOM SAWYER

مارك توين

توم سوير

ترجمة: ماهر نسيم

مراجعة: نرمين عياد

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

تom سویر

الكتـــــاب: توم سوير
المـــؤلـــف: مارك توين
المــــترجـم: ماهر نسيم
مـــراجـعـة: نرمين عياد
تنسيق داخلي: سمر محمد
الطبعة الأولـى: سبتمبر 2020
رقم الإيـــداع: 14212 / 2020
I . S . B . N: 978-977-992-126-6

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

عصير الكتب للنشر والتوزيع

مارك توين

توم سوير

قصة حياة طفل!

ترجمة

ماهر نسيــم

مراجعة

نرمين عيـــاد

تقديم

تعالج هذه القصة «توم سوير» حياة صبي تهفو نفسه إلى المغامرة والمخاطرة، وينبض قلبه بما تنبض به قلوب البشر عادة مِن حب وبُغض، وقلق وارتياح، وألم ومرح، وخذلان وانتصار، وثورة على النفس ورضاء بالواقع. وهي قصة كل صبي تتجاذبه عوامل المراهقة بكل ما تحمله معها من شعور بالتطلع إلى الأمام والرجولة المبكرة وحب الارتقاء بالذات، ولعل كل واحد منا قد مرت به مرحلة شبيهة بتلك التي اجتازها «توم سوير»، بل لعلنا جميعًا قد لعبت بنفوسنا الخيالات نفسها والرؤى والأوهام التي لعبت برأس ذلك الصبي.

وعلى الرغم مِن أنّ قصة «توم سوير» هي قصة صبي لم يكتمل نضجه العقلي والنفسي، فإنّ «مارك توين» قد أودع القصة تجارب ومفهومات ينبغي أنْ نقف عندها متأملين دارسين. فالصراع الذي صوَّره لنا المؤلف في هذه القصة بيَّن انطلاقات الطفولة مُمثَّلة في «توم سوير»، و«هاكلبري فين»، و«ماري»، و«آمي» من جانب، وبين الواقع المرير الذي يطحن الكبار ممثلين في «العمة بولي»، وأسرة «مسز هاربر»، وشتى رجال القرية اليافعين ونسائها الساذجات والطيبات من جانب آخر، صراع دقيق يستأهل التحليل والدراسة.

ولو أننا ألقينا نظرة أعمق وأشمل على تلك القصة، لوجدناها أشبه بمسرح كبير تتعاقب عليه شخصيات عدة يحفل بها كل مجتمع في العالم سواء أكان هذا المجتمع غربيًّا أو شرقيًّا، «فالعمة بولي» قد تكون أشبه بأي أم في مصر أو غير مصر، و«توم سوير» قد يكون أي صبي في الشرق أو الغرب، و«هاكلبري فين» الفتى الضائع الذي ذهب ضحية المجتمع يشبه فتية كثيرين نراهم في كل مكان، كما أنّ مشاعر الحب والبُغض، والسعادة والتعاسة، والانتصار والخذلان، التي تحفل بها هذه القصة هي المشاعر نفسها التي تصطبغ بها الحياة في كل مكان وفي كل زمان.

ولقد وقع اختيار إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم على هذه القصة بالذات؛ لأنها تصور شتى ضروب الحياة الإنسانية تصويرًا رائعًا لا يخلو من دعابة حلوة وتوجيه مفيد للشباب، ولِمَا تتضمنه القصة من مبادئ ومُثُل، تستهدف الارتقاء بالذات، والتطلع إلى الأمام وتغليب الخير على الشر مَهما اشتدت قوة المؤثرات والمغريات.

ولا شك أنّ القارئ الكريم سيلاحظ أنّ «هاكلبري فين» الفتى الشريد الضائع قد اقتسم بطولة القصة مع «توم سوير»، ولقد أراد «مارك توين» ذلك؛ لأنه أحب أنْ يجعل من شخصيتي توم سوير وهاكلبري فين وحدة متماسكة تؤدي غرضًا واحدًا؛ هو معالجة مشاكل المجتمع معالجة صادقة ونقدها نقدًا صارمًا في وقتٍ واحد.

وفي الختام، هذه لمحة خاطفة عن «مارك توين» مؤلف القصة، وإلمامة عابرة بالقصة ذاتها التي نضعها بين أيدي القرَّاء الكرام، سائلين الله تعالى أنْ يلهمنا جميعًا ما فيه الخير والتوفيق والسلام.

نرمين عيـــــــــــاد

ماهر نسيـــــــــم

«مراجع الكتاب»

«مـــــــــترجم القصة»

الفصل الأول

توم يلعب ويقاتل ويختفي

- توم! توم!

ولم يجب توم.

- ماذا أصاب هذا الصبي! توم يا ولد!

لم يجب توم للمرة الثالثة.

حركت السيدة العجوز نظارتها إلى أسفل، ثم تطلعت من فوق حافتها إلى أنحاء الغرفة، وعادت فرفعتها مرة أخرى ونظرت من تحتها، لأنها قلما كانت تتطلع من خلالها لترمق شيئًا تافهًا مثل الصبي توم - بدت الحيرة على وجهها لحظة، ثم ما لبثت أنْ قالت بصوت هادئ وإنْ كان مرتفعًا:

- حسنًا، لو ظفرت بك، فعندئذٍ...

ولم تكمل عبارتها؛ إذ سرعان ما انحنت إلى الأمام وراحت تحرك مكنستها هنا وهناك تحت الفراش، كان يخيّل إليها أنها ستصيب توم، ولكنها لم تُصِبْ إلا الهرة.

- أين يختفي هذا الصبي!

تقدمت من الباب المفتوح، ووقفت عند مدخله، وتطلعت إلى الخارج عبر مزرعة الطماطم وأعشاب الداتورة التي كانت تملأ الحديقة. ولكنها لم ترَ أثرًا لتوم، ومِن ثَمَّ فقد رفعت صوتها إلى الدرجة التي تجعله مسموعًا مِن بُعد وصاحت:

- أين أنت يا ولد؟ يا توم!

وارتفعت من خلفها ضوضاء خفيفة، فاستدارت في الوقت المناسب لتمسك بصبي صغير من ياقته مانعةً إياه الفرار. وهتفت:

- آه كنت هنا! كان ينبغي أنْ أفكر في المطبخ، انظر إلى فمك.. ما هذه؟

- لست أدري يا عمتي!

- حسنًا، أما أنا فأدري، إنها مربى - نعم، مربى.. لقد قلت لك أربعين مرةً إنك إذا اقتربت منها فسأسلخ جلدك.. هات هذه العصا.

وشرعت عصاها في الهواء وهنا صاح الفتى:

- يا إلهي! انظري خلفك يا عمتي!

واستدارت السيدة العجوز وهي تجذب ثوبها بعيدًا عن الخطر. وفي اللحظة نفسها أفلت الصبي هاربًا، وتسلق السياج المرتفع العريض، ثم اختفى خلفه. جمدت عمته «بولي» في مكانها لحظة وقد استبدت بها الدهشة؛ لكنها لم تلبث أنْ انفجرت ضاحكة بلطف، ثم قالت:

- يا للصبي اللعين! ألا أستطيع أنْ أتعلم شيئًا؟ ألم يخدعني ألف مرة بالطريقة ذاتها؟ ولكن قُدامى الحمقى هم أكبر الحمقى.. فأنت لا تستطيع أنْ تعلم الكلب العجوز الحِيَل الجديدة كما يقول المثل. لكن يا إلهي، إنّ هذا الصبي لا يكرر الحيلة مرتين، فكيف يستطيع الإنسان أنْ يعرف ما يخبئه له؟ يبدو أنه يعرف إلى أي مدى يستطيع أنْ يعذبني قبل أنْ أغضب، ويعرف أنه إذا استطاع أنْ يثير ضحكي، انتهى كل شيء وانحسرت عني رغبة ضربه. إنني لا أؤدي واجبي تجاه هذا الصبي، تلك حقيقة يعلمها الله.. إنني أرتكب إثمًا وأزرع العذاب لكلينا، إنّ هذا الصبي شقي ولكنه ابن أختي الميتة، ولهذا فإنني لا أجد من نفسي الشجاعة الكافية لكي أضربه.. حسنًا، يقول الكتاب المقدس: «إنّ أيام ابن حواء قليلة كلها متاعب»، وأكبر ظني أنّ هذا صحيح.. إنه سيلعب الهوكي بعد ظهر اليوم، ولكني مضطرة إلى إرغامه على العمل غدًا عقابًا له، من المؤلم حقًّا أنْ أجعله يعمل في أيام الآحاد والأطفال جميعًا يستمتعون بالعطلة، ولكنه يكره العمل أكثر مما يكره أي شيء آخر، ولا بُد من تأدية بعض الواجب نحوه، وإلا فسأكون السبب في ضياع مستقبله.

لم يلعب توم الهوكي في يومه هذا، ولكنه قضى وقتًا طيبًا في اللهو، ولم يَعُد إلى المنزل إلا لأجل معاونة «جيم» -ذلك

الصبي الزنجي الصغير- في نشر الخشب اللازم للغد وإشعال النار في الموقد قبل موعد العشاء - حينها وجد چيم من وقته متسعًا ليُحدِّث توم عن مغامراته في هذا اليوم، بينما انصرف توم إلى العمل حتى أتمَّ ثلاثة أرباعه، أما «سيدني» أخو توم «أو بالأحرى أخيه لأبيه»، فكان قد فرغ من أداء نصيبه من العمل المتمثل في جمع قطع الخشب. وكان سيدني صبيًّا هادئًا لا يعرف معنى المغامرات ولا يسلك طرقًا ملتوية.

وبينما كان توم يتناول عشاءه، ويسرق قطع السكر كلما سنحت له الفرصة، راحت عمته بولي تلقي عليه أسئلة ماكرة تحاول استدراجه ليفضي إليها بشيء يصلح ذريعة لعقابه، فقد كانت كأتْرَابها من النساء الساذجات طيبات القلب تعتقد أنها تتمتع بموهبة تمكنها من إجادة سياسة الاستدراج والإيقاع، وكانت تحب أنْ تعتبر وسائلها الواضحة أكثر الوسائل إعجازًا ودهاءً.

قالت: لقد كان الجو دافئًا في المدرسة يا توم أليس كذلك؟

- نعم يا عمتي.

- أكان شديد الدفء؟

- نعم يا عمتي.

- ألم تفكر في الذهاب للسباحة يا توم؟

وبُهِتَ توم، وراح الشك يكبر بداخله فأخذ يتأمل وجه العمة بولي، ولكنه لم يستطع أنْ يستشف منه ما يدور بخلدها.

- كلا يا عمتي، لم أفكر كثيرًا في ذلك.

ومدت العجوز ذراعها وتحسست قميص توم..

- ولكنك لست شديد الدفء الآن رغم ذلك!

وسرَّها أنْ اكتشفت أنّ القميص كان جافًا دون أنْ يعرف أحد أنّ ذلك هو ما كان يدور بخلدها، إلا أنّ توم استطاع - رغم ذلك- أنْ يتكهن بما ستكون عليه الخطوة التالية.

- لقد غسل بعضنا رأسه بالماء، وما زال رأسي مبتلًا حتى الآن.. انظري!

واغتاظت العمة بولي حين أدركت أنها غفلت عن مثل هذه الأدلة الظاهرة، وبذلك ذهبت خدعتها أدراج الرياح، بَيْدَ أنه لم يلبث أنْ هبط عليها وحي جديد.

- لم يكُن هناك ما يدعوك وأنت تغسل رأسك أنْ تمزق ياقة القميص التي حكتها لك من قبل؟ كان يكفي أنْ تَفُك أزرار سترتك!

وانحسرت علامات القلق عن وجه توم وفتح سترته؛ فإذ بحياكة قميصه متماسكة تمامًا.

هتفت: يا للعنة! حسنًا.. لقد نجوت هذه المرة، كان يجب أنْ أتأكد مِن أنك لعبت الهوكي وسبحت، ولكني سأسامحك يا توم، فأكبر ظني أنك تشبه قطًّا مست النار ذيله كما يقول المثل.

تنازعتها عوامل الأسف لخيبة فطنتها، وعوامل الرضاء لأن توم تعثر لأول مرة وسلك سلوك الولد المطيع.

ولكن «سيدني» قال:

- حسنًا. كنت أظن يا عمتي أنكِ حكتِ ياقته بخيط أبيض لا أسود!

- نعم، لقد حكته فعلًا بالخيط الأبيض يا سيدني.

ولم يتريث توم حتى يبلغ الموقف ذروته، فانطلق خارجًا من الباب هو يقول:

- سأنتقم منك يا سيدني.

وحين أصبح توم في مكان أمين، راح يفحص الإبرتين الكبيرتين المثبتتين في طرف ياقته، وقد لفّ الخيط حولهما - كانت إحداهما تحمل خيطًا أبيض، والأخرى تحمل خيطًا أسود قال:

- إنها ما كانت لتفطن إلى الحقيقة لولا سيدني.. لعنة الله عليه! إنها تحوك قميصي أحيانًا بالخيط الأبيض، وأحيانًا أخرى بالخيط الأسود وكم أحببت لو أنها داومت على استعمال أحد الخيطين، إنني لا أستطيع أنْ أتتبعهما بدقة، ولكني أراهن على أنني سألقن سيدني درسًا لا ينساه على ما فعل.

وما إنْ مضت دقيقتان، وربما أقل حتى كان توم قد نسيَ كل متاعبه، ولم يكُن ذلك لأن متاعبه أخف عبئًا ومرارة عليه من تلك التي يعانيها الرجال، ولكن لأن شيئًا جديدًا أقوى وأدعى للاهتمام استطاع أنْ يبدد هذه المتاعب ويجعلها تتلاشى من عقله في هذه اللحظة، تمامًا مثلما ينسى الرجل نكباته حينما يستبد به الانفعال في غمرة تطلعه إلى شيء جديد. أما هذا الشيء الذي استأثر باهتمامه فكان لحنًا جديدًا من الصفير تعلمه حديثًا من صبي زنجي صغير. وكان توم يبذل قَصَارى جهده ليتدرب عليه دون أنْ يزعجه أحد. وكانت في هذا اللحن نغمة أشبه بتغريد الطير، تستلزم مِنه أنْ يجعل لسانه يلامس سقف حلقه في فترات قصيرة في أثناء الصفير -ولعل القارئ يتذكر كيف يمكنه إحداثها إذا كان قد مر بمرحلة كتلك التي كان توم يجتازها- وسرعان ما استطاع بالمثابرة والاهتمام أنْ يسيطر على اللحن ويجيد النغمة، ومِن ثَمَّ فقد انطلق في طريقه وفمه منتفخ باللحن المنسجم وروحه مفعمة بالشكر وعرفان الجميل.. يستشعر تلك النشوة التي يحس بها فَلَكِي اكتشف كوكبًا جديدًا، كان شعورًا قويًّا عميقًا، صافيًا من السرور والبهجة. ولكن لا شك في أنّ الصبي لا الفلكي هو الذي كان يستمتع بهذا الشعور في تلك اللحظة!

كانت ليالي الصيف طويلة، ولم يكُن الظلام قد أسدل ستاره بعد.. ومِن ثَمَّ فسرعان ما كفَّ توم عن صفيره. وحينئذ رأى أمامه صبيًّا غريبًا يفوقه في البنية فاستبدت به الدهشة، إذ كان أي وافد جديد في أي سن ومِن أي الجنسين يعتبر حدثًا عجيبًا في قرية «سانت بطرسبرج» الصغيرة القذرة، وكان هذا الصبي حسن الهندام، نعم، كان حسن الهندام في يوم من أيام الأسبوع العادية، الأمر الذي أذهل توم الصبي القروي الصغير. فقد كانت قبعة الوافد الجديد أنيقةً، أما سترته الزرقاء متقاربة الأزرار فكانت جديدة، وكذلك كان سرواله.

وكان هذا الصبي يلبس حذاءً، رغم أنه وَفَد يوم الجمعة وهو يوم من أيام الأسبوع العادية. بل لقد كان يرتدي ربطة عنق أشبه ما تكون بشريط براق. كانت هيئة المدينة بادية عليه، مما جعل الغيرة تنهش قلب توم. وكلما أطال النظر إلى هذه الأعجوبة الفاخرة، ازداد شعورًا بالازدراء للأسمال التي يرتديها.. ولم يتكلم أي من الصبيين، ولكن كان كل منهما يتحرك كلما تحرك الآخر، ولكن في اتجاه جانبي، وظلا يواجهان أحدهما الآخر، وقد تلاقت عيونهما طوال الوقت.

وأخيرًا قال توم: في استطاعتي أنْ أضربك!

- لكم أود لو تحاول ذلك.

- حسنًا، في استطاعتي أنْ أفعل ذلك.

- كلا، إنك لن تستطيعه.

- نعم، أستطيع.

- لا تستطيع!

- أستطيع!

- لا تستطيع!

وتلا ذلك فترة صمت حرجة، ثم قال توم:

- ما اسمك؟

- ليس هذا من شأنك.

- ولكني سأجعله مِن شأني.

- حسنًا.. لماذا لا تفعل؟

- إذا أكثرت من الكلام فسأفعل.

- هأنذا أكثر من الكلام يا هذا.

- أوه.. إنك تظن أنك شديد الحذق، أليس كذلك؟ في استطاعتي أنْ أصرعك وإحدى يدي مربوطة خلف ظهري إنْ شئت ذلك.

- حسنًا.. لماذا لا تفعل ذلك؟ إنك تقول إنك تستطيع أنْ تفعله.

- حسنًا.. سأفعله إذا أثرت غضبي.

- أوه نعم.. لقد رأيت عائلات بأكملها في مثل هذا المأزق الذي أنت واقع فيه!

- أتظن نفسك حاذقًا ماكرًا؟ أوه.. يا لها من قبعة!

- تستطيع أنْ تُهشم هذه القبعة إذا لم تعجبك، إنني أتحداك أنْ تسقطها من فوق رأسي، بل أنّ أي شخص يجرؤ على ذلك سأجعله يلعق التراب.

- أنت كاذب!

- وأنت كاذب أيضًا.

- أنت جبان لا تجرؤ على البدء بالقتال.

- آه.. انصرف!

- اسمعني.. إذا تماديت في سخافاتك؛ فسأهجم عليك وأحطم رأسك.

- أوه.. بالطبع ستفعل ذلك!

- حسنًا.. نعم، سأفعل.

- حسنًا.. إذن لماذا لا تفعل ذلك؟ ما الذي يدعوك إلى تكرار كلمة «سأفعل»؟ لماذا لا تفعل؟ أليس ذلك دليلًا على أنك خائف؟

- لست خائفًا.

- بل إنك خائف.

- كلا.. لست خائفًا.

- لا شك إنك خائف.

وساد الصمت بين الصبيين، واستمرا يتراشقان بالنظرات ويدوران أحدهما حول الآخر، وسرعان ما وقفا كتفًا إلى كتف..

وقال توم: امضِ من هنا!

- بل امضِ أنت.

- لن أغادر هذا المكان.

- وأنا أيضًا، انصرف.

وهكذا وقفا وقد جعل كل منهما ساقيه على شكل زاوية في وضع تحفزي، ثم راح كلاهما يدفع الآخر بكتفه في عنف وعزم، وهما يتبادلان نظرات الحقد والكراهية. ولكن أحدًا منهما لم يستطع أنْ يزحزح صاحبه قيد أنملة من مكانه. واستمرا يناضلان حتى احتقن وجهاهما وتسارعت أنفاسهما، وأخيرًا بدأ كل منهما يتراخى في حذرٍ ثم قال توم:

- إنك نذل وكلب. سأحدِّث أخي الأكبر عنك، فإنّ في استطاعته أنْ يضربك بإصبع واحد، وسأجعله يفعل ذلك.

- ماذا يخيفني من أخيك الأكبر؟ إنّ لي أخًا أكبر من أخيك وما هو أكثر من ذلك، إنّ في استطاعته أنْ يقذف بأخيك من فوق السياج «قالا ذلك وهما يعلمان أنّ ما قالاه كذبًا في كذب»!

- هذا كذب.

- إنّ قولك هذا لن يجعل من الحقيقة كذبًا.

ورسم توم خطًّا على الأرض بإصبع قدمه وقال:

- إنني أتحداك أنْ تتجاوز هذا الخط، فإنْ فعلت فسأضربك حتى لا تقوى على الوقوف.

وتخطى الوافد الجديد الخط فجأة وقال:

- سمعت أنك ستضربني، فلماذا لا تفعل!

- لا تستفزني أكثر من ذلك.. فمِن الخير لك أنْ تحذر غضبي.

- حسنًا.. لقد قلت إنك ستضربني، فلماذا لا تفعل ذلك؟

- يا للعنة، سأفعل ذلك مقابل سِنْتَين.

وأخرج الوافد الجديد قطعتين من ذات السنت من جيبه، وقدمها لتوم بعزم «فأطارهما هذا من يد الصبي بضربة سريعة»، وفي اللحظة التالية كان الصبيان يتدحرجان على الأرض فوق القاذورات وقد أنشب كل منهما أظفاره في الآخر كالقط، وراح كل منهما يمزق شعر الآخر وثيابه ويلطمه ويركله، ويشد أنفه بعنف حتى لطخا نفسيهما بالتراب ومجد المعركة! وسرعان ما ساد عراكهما الاضطراب، وعندما انحسر ضباب المعركة؛ كان توم يجلس فوق الصبي الغريب كما يمتطي المرء الجواد وهو يلكمه بقبضتي يديه!

ثم هتف: أظن أنّ في ذلك الكفاية!

وجاهد الصبي الغريب ليخلّص نفسه وهو يبكي!

وأخيرًا قال الغريب بلهجة مختنقة: كفى!

وتركه توم لينهض وقال:

- أظن أنّ في هذا الدرس الكفاية، فيحسن بك أنْ تكون على حذر عندما تحاول السخرية مني مرة أخرى.

ومضى الصبي الغريب لشأنه وهو يزيل التراب من فوق ثيابه، وكان بين الحين والحين يتطلع خلفه، ويهز رأسه ويتوعد توم بما سيكيله له مِن لكمات عندما يلتقي به مرة أخرى، ولكن توم قابل تهديداته بالسخرية، ثم لم يلبث أنْ استدار ومضى في طريقه وهو يشعر بنشوة الانتصار. ولكنه ما كاد يدير ظهره إلى الصبي الغريب، حتى التقط هذا الأخير حجرًا من على الأرض، قذف به توم فأصاب ما بين كتفيه، ثم أطلق لساقيه الريح، يركض كالغزال. وطارد توم الصبي الهارب إلى أنْ بلغ منزله، فعرف أين يقيم. ووقف عند الباب وأخذ يتحدى عدوه أنْ يخرج من مكمنه، ولكن العدو اكتفى بالتطلع إليه من خلف زجاج النافذة، ورفض أنْ يقبل التحدي، وأخيرًا ظهرت أم الصبي وراحت تصف توم بأنه طفل شرير آثم وسافل، وأمرته بالانصراف. فاضطر إلى الإذعان وهو يتوعد عدوه بالقصاص.

عاد توم إلى المنزل متأخرًا في تلك الليلة، ولكنه ما كاد يتسلق النافذة بحذر حتى وجد عمته بولي قد أعدت له كمينًا، وما كادت ترى حالة ثيابه المزرية حتى ازدادت إصرارًا على حرمانه من عطلته في يوم السبت وتأديبه بإرغامه على أداء عمل شاق!

***

الفصل الثاني

الطلاء البارع

أقبل صباح يوم السبت، وكانت دنيا الصيف كلها متألقة نضرة؛ تنبض بالحياة... كانت في كل قلب أغنية، وكان البِشْرُ باديًا على كل وجهٍ، والنشاط ممثلًا في كل خطوة. وكانت أشجار «الخرنوب» زاهية المنظر، يعطر أريج زهورها المتفتحة الهواء. وفيما وراء القرية كان ينهض مرتفع «كارديف هيل» وقد غطته طبقة من السندس الأخضر الجميل الذي يسر مرآه الناظرين ويذكرهم بالراحة البدنية والهدوء النفسي.

وظهر توم في ممر جانبي وهو يحمل دلوًا مملوءًا بطلاء أبيض وفرشاة ذات يد طويلة. وراح يتأمل السياج، ولم يلبث أنْ فارقه المرح، وارتسمت على وجهه علامات العبوس وطغت على روحه موجة من الحزن. فقد كان طول السياج ثلاثين ياردة وارتفاعه تسعًا.. وفي تلك اللحظة خيّل إليه أنّ الحياة جوفاء، وإنّ الاستمساك بها عبء ثقيل.

وتنهد الصبي، وغمس الفرشاة في الطلاء ثم جرى بها فوق اللوح العلوي، وأعاد العملية مرة ومرة، وراح يقارن بين اللوح الذي طلاه وبين طلاء سياج آخر قريب. ولم يلبث أنْ جلس فوق جذع شجرة وقد غمره اليأس.

وفي تلك اللحظة أقبل «جيم» خارجًا من باب الحديقة وهو يحمل دلوًا من الصفيح ويردد أغنية كانت ذائعة وقتذاك. ومع أنّ توم كان يعتبر حمل الماء من مضخة المدينة عملًا مكروهًا، لكنه لم يشعر بأنه كذلك في تلك اللحظة. وتذكر أنّ منطقة المضخة ملتقى جمع من البيض والزنوج والملونين بنين وبنات، كل منهم ينتظر دوره ليملأ وعاءه. وهم عادة ينتهزون هذه الفرصة ليستريحوا أو يتاجروا في اللعب أو يتعاركوا، أو ليسبحوا في الخيال.. وتذكر أنه رغم أنّ المضخة لا تبعد عن المنزل بأكثر من مِئة وخمسين ياردة؛ فإنّ جيم قلما عاد بدلو من الماء قبل انقضاء ساعة، وحتى في هذه الأحوال كان لا بُد من أنْ يذهب أحد للبحث عنه وإحضاره.

قال توم: أصغِ إليَّ يا جيم، سأذهب لإحضار الماء إذا قمت أنت ببعض الطلاء.

وهز جيم رأسه سلبًا وقال: لا أستطيع أيها السيد توم فقد عهدت إليَّ سيدتي العجوز أنْ أذهب وأحضر الماء وحذرتني من التسكع أو التحدث مع أحدٍ، كما قالت لي إنها تتوقع أنْ يحاول السيد توم استدراجي للاشتراك معه في الطلاء، وإنّ عليَّ أنْ أؤدي عملي فقط، وأردفت قائلة: إنها ستأتي لتراقب عملية الطلاء بنفسها.

- أوه.. دعنا مما قالته يا جيم فتلك طريقتها في الكلام، أعطني الدلو ولن أغيب عنك أكثر من دقيقة، وهي لن تعرف شيئًا عمّا حدث.

- كلا.. لا أستطيع أيها السيد توم فقد هددتني سيدتي بالعذاب إنْ عصيت أمرها، ولا شك في أنها ستنفذ تهديدها إنْ خالفت هذا الأمر.

- لا تخف يا جيم، فإنها لم تعذب أحدًا من قبل. إنها لا تفعل أكثر من أنْ تنقر على الرأس عدة مرات بقمع الخياطة! وأظن أنّ ذلك لا يؤذي أحدًا.. صحيح إنها تكثر من التهديد والوعيد ولكن الكلام لا يؤذي.. هيا يا جيم، سأعطيك شيئًا مدهشًا، سأعطيك هذه الكرة الجميلة من الرخام الأبيض.

وبدت علامات التردد على وجه جيم فأسرع توم يقول:

- رخام أبيض يا جيم يا لها من كرة جميلة.

- إنها بلا شك كرة مدهشة! ولكني أخاف كثيرًا من سيدتي. أيها السيد توم...

- وإذا قبلت فسأريك إصبع قدمي المتقرحة.

كان جيم زنجيًا طيب القلب، وكان هذا القول أكثر مما يحتمله، ومِن ثَمَّ فقد وضع دلوه على الأرض، واقترب من توم وراح يتأمله وهو يفك الرباط من حول إصبعه المتقرحة. وفي اللحظة التالية كان الصبي الأسود يركض بأسرع ما يستطيع والدلو يتأرجح في يده، بينما راح توم يطلي السياج بقوة ونشاط، فقد كانت العمة بولي مقبلة من الحقل وهي تحمل خفًا في يدها بينما لمعت عيناها ببريق الانتقام.

ولكن نشاط توم لم يستمر طويلًا، لقد بدأ يفكر في اللهو الذي أعَدَّه لهذا اليوم فتضاعف حزنه، فعمًّا قريب سيأتي الصبية السعداء في طريقهم إلى مختلف أنواع المغامرات اللذيذة، ولسوف يسخرون منه لأنه مضطر إلى العمل، وأحسّ بقسوة هذه الفكرة وكأنها النار الحامية. وأخرج من جيبه كل ما يملك من ثروة وراح يتأملها؛ قِطَع من اللعب وكرات

صغيرة من الرخام، أدرك أنها قد تكفي ليدفعها ثمنًا لتبادل العمل مع أي صبي آخر، ولكنها لا تكفي لشراء نصف ساعة من الحرية الخالصة. ومِن ثَمَّ أعاد ثروته إلى جيبه وتخلى عن فكرة محاولة استئجار الصبيان. وفي تلك اللحظة القاتمة هبط عليه الإلهام! إلهام عظيم رائع..

التقط فرشاته، وانصرف إلى العمل بهدوء.. إذ سرعان ما أقبل «بن روجرز» وكان هو الصبي المنشود من بين جميع الصبيان، رغم أنّ توم كان يضيق بأسلوبه الساخر.. وكانت مشية «بن روجرز» الشبيهة بالوثب أكبر دليل على ما كان يشعر به من سعادة، وكان «بن» يقضم تفاحة، وهو لا يفتأ يشهق شهقة عميقة طويلة بين الحين والحين، ثم لا يلبث أنْ يتبع الشهقة بصوت متلاحق متناسق على النحو التالي «دنج - دونج - دونج، دنج - دونج - دونج» ذلك أنه كان يقلد القارب البخاري. وعندما اقترب من توم أبطأ من سيره، ووقف في منتصف الطريق، ثم مال فوق حافة الجانب الأيمن من القارب الوهمي واستدار ببطء وصعوبة، ولا عجب فقد كان يقلد القارب «ميسوري الكبير». وكان يعتبر القارب يقترب في تلك اللحظة من منطقة عمق مائها تسعة أقدام. وكان الصبي يلعب دور القبطان، وأجراس القارب معًا، ومِن ثَمَّ كان عليه أنْ يتخيل نفسه واقفًا فوق سطح القارب يصدر الأوامر وينفذها في وقتٍ واحد.

- أوقِف المحرك يا سيدي! تنج - لنج - لنج!

وأوشك القارب أنْ ينتهي من سيره، وأخذ الصبي يقترب ببطء من الممر الجانبي المحاذي للسياج، ثم مضى بعد ذلك يصدر التعليمات اللازمة للرسو النهائي، وهو يردد بين الحين والحين أصواتًا يظنها تشبه الأصوات التي تنبعث من محرك القارب، إلى أنْ ثبت القارب في مرساه.

واستمر توم في الطلاء غير عابئ بالقارب البخاري، فحدق «بن» فيه لحظة ثم قال:

- أوه.. إنك غارق في العمل المضني.. أليس كذلك؟

ولم يجب توم. وإنما راح يتأمل لمسة الفرشاة الأخيرة بعين الفنان، ثم جرى بفرشاته مرة أخرى على اللوح، وتأمل النتيجة كما فعل من قبل. فتقدم «بن» حتى وقف بجواره.. وسال لعاب توم حينما رأى التفاحة في يد «بن»، ولكنه استمر في عمله فقال بن:

- هل أنت مرغم على العمل يا صديقي؟

وانثنى توم إليه فجأة.. وقال:

- أهذا أنت يا بن! إنني لم أرك!

- اسمعني.. إنني ذاهب للسباحة، ألا تود لو أنك استطعت أنْ تسبح؟ ولكن لا يخيل إليَّ إنك تفضل العمل، أليس كذلك؟ بالطبع أنت تفضله!

وتأمل توم الصبي قليلًا ثم قال:

- ما الذي تقصده بكلمة العمل؟

- أليس هذا الذي تفعله عملًا؟

واستأنف توم الطلاء، ثم أجاب بغير مبالاة:

- حسنًا.. ربما كان كذلك، وربما لم يكن، كل ما أعلمه إنه يلائم توم سوير!

- أوه.. لا أحسبك تريد أنْ تقنعني بأنك تحب هذا العمل..

- أحبه؟ حسنًا.. لست أدري لماذا يجب ألا أحبه.. هل تتاح لصبي مثلي فرصة طلاء سياج كل يوم؟

ولقد أضفت هذه العبارة على الموقف طابعًا جديدًا.. فكف بن عن قضم تفاحته، بينما راح توم يحرك فرشاته جيئة وذهابًا في حركات أنيقة، ثم تراجع إلى الوراء ليتأمل التأثير -وأضاف لمسة هنا وأخرى هناك- وعاد فتأمل النتيجة، وكان بن يراقب كل حركة من حركات توم فيزداد اهتمامًا، ثم لم يلبث أنْ قال:

- أصغِ إليَّ يا توم، ودعني أشترك معك في الطلاء.

وفكر توم.. وكان على وشك الموافقة، ولكنه عدل من رأيه فجأة.

وقال: كلا.. كلا، لا أظن أنّ ذلك ممكن يا بن، إنّ عمتي بولي مهتمة أشد الاهتمام بهذا السياج -لأنه يشرف على الطريق الرئيسي كما ترى- ولو كان هذا هو السياج الخلفي لِمَا رفضت طلبك ولن تهتم هي بِمَن يطليه، نعم.. إنها شديدة الاهتمام بهذا السياج؛ ولهذا يجب أنْ يُطْلَى بمنتهى العناية. وأكبر ظني أنه لا يوجد صبي من بين كل ألف صبي، وربما من بين كل ألفين يستطيع أنْ يطليه بالطريقة التي ينبغي أنْ يُطْلَى بها.

- أحقًّا؟ أوه، أصغِ إليَّ، دعني أحاول.. دعني أحاول، دعني أحاول قليلًا.. لو كنت مكانك لجعلتك تحاول يا توم!

- كنت أتمنى لو استطعت يا بن، ولكنها العمة بولي.. لقد أراد چيم أنْ يطلي السياج فرفضت أنْ تسمح له بذلك.. كذلك أراد سيدني؛ ولكنها رفضت أيضًا.. أفلا ترى حرج مركزي لو أنك طليت هذا السياج وحدث له شيء.

- أوه.. كلا، لن يحدث شيء فسألزم جانب الحذر الشديد، دعني أحاول وإني مستعد لإعطائك قلب تفاحتي مقابل ذلك!

- كلا يا بن.. إنني خائف..

- إذن فسأعطيك التفاحة كلها!

وترك توم الفرشاة للصبي وهو يتظاهر بالتردد، وإنْ كان قلبه قد أفعم بالسرور.. وبينما كان الصبي الذي فرغ من تمثيل دور «القارب ميسوري» يعمل تحت أشعة الشمس المحرقة وقد اِنْسَال العرق فوق جبهته، وجلس الفنان فوق برميل في ظل قريب وراح يؤرجح ساقيه ويقضم التفاحة، وهو يرسم الخطط التي تمكنه من اصطياد أبرياء آخرين، ولم تكُن هناك حاجة لاستعمال المغريات، فسرعان ما بدأ الصبية يقبلون، وكانوا يسخرون أول الأمر، فلا تمضي لحظات إلا وينهمكون في الطلاء. وعندما تعب بن كان توم قد انتهى من مساومة «بيلي فيشر» فأخذ منه طائرة من الورق في حالة جيدة مقابل السماح له بالطلاء. وعندما فرغ بيلي من الطلاء قدم «چوني ميلر» فأرًا ميتًا برجله خيط رفيع للعب به، ثمنًا للسماح له بالاشتراك في عملية الطلاء.. وهكذا، ساعة بعد أخرى. وعندما انتصف النهار، انقلب توم من صبي فقير لا يملك شيئًا في الصباح إلى صبي ينعم بالثراء.. فقد حصل علاوة على ما سبق ذكره، على اثنتي عشرة كرة صغيرة من الرخام وآلة تُحْدِث صوتًا موسيقيًّا، وقطعة من زجاجة زرقاء للتطلع من خلالها، ومفتاح غير صالحٍ للاستعمال وقطعة من الطباشير، وسدادة زجاجة، وجندي من القصدير، وضفدعتين، وست كبسولاتٍ، وقطة صغيرة بعينٍ واحدة فقط، ومقبض باب من النحاس، وطوق كلب -رغم أنه لم يكُن يملك كلبًا- ويد سكين، وأربع قطعٍ من قشر البرتقال، ومزلاج نافذة محطم!

قضى توم يومه هذا في الراحة والمتعة والكسل، فضلًا عن زمالة الكثيرين، وعلاوة على ذلك فقد طُلِيَ السياج ثلاث مراتٍ! ولولا نفاد الطلاء لأشهر إفلاس كل صبي في القرية.

وقال توم لنفسه «إنّ الدنيا ليست جوفاء كما تصورت في أول النهار»، لقد اكتشف قانونًا عظيمًا من قوانين النشاط الإنساني بغير أنْ يدرك ذلك - وهذا القانون هو إنك إذا أردت أنْ تجعل رجلًا أو صبيًّا يشتهي شيئًا فيكفي أنْ تجعل هذا الشيء صعب المنال.. ولو كان توم فيلسوفًا عظيمًا حكيمًا كمؤلف هذا الكتاب؛ لأدرك أنّ العمل يتكون من أي شيء يضطر الجسم إلى أدائه، وإنّ اللعب يتكون من أي شيء لا يحتاج الجسم إلى عمله، وإذن لساعدته على هذه المعرفة على فهم لماذا كانت صناعة الزهور الصناعية أو إدارة الطاحون عملًا، في حين أنّ تَسلُّق جبل «مونت بلان» تسلية فقط، ففي إنجلترا أثرياء يروق لهم قيادة المركبات التي تجرها الجياد لمسافة عشرين أو ثلاثين ميلًا كل يوم من أيام الصيف معتبرين ذلك امتيازًا وإنْ كلفهم مالًا كثيرًا.

ولكنهم إذا عُرِضَ عليهم أجر في مقابل ذلك، اعتبروا هذه التسلية عملًا واستقالوا من هذا العمل! وفكر الصبي قليلًا في التغير المهم الذي طرأ على ظروفه الدنيوية، ثم مضى إلى «القيادة العامة» ليقدم تقريره إلى العمة بولي!

***

الفصل الثالث

مشغول بالحب والحرب!

قدم توم نفسه للعمة بولي التي كانت تجلس بجوار نافذة مفتوحة بغرفة لطيفة في مؤخرة المنزل، وكانت هذه الغرفة بمثابة غرفة النوم، وغرفة الانتظار، وغرفة المائدة، وغرفة المكتبة، جميعًا. ولقد أحدث هواء الصيف العليل، والهدوء المريح، وأريج الزهور، وطنين النحل الذي يجلب النعاس أثره في العمة بولي؛ إذ راحت تنكس رأسها وهي تتظاهر بالحياكة، فلم يكُن معها أحد غير الهرة التي كانت مستسلمة للنعاس في حجرها. أما نظارتها فكانت مرفوعة فوق رأسها الأشيب بطريقة توحي بالاطمئنان.. وقد دار بخلدها أنّ توم لا بُد قد هرب من العمل منذ وقت طويل، فما كادت تراه حتى أخذت تعجب لماذا وضع نفسه تحت رحمتها مرة أخرى بهذه الطريقة التي تنطوي على بسالةٍ.

قال: هل أستطيع الآن أنْ أذهب للعب يا عمتي؟

- ماذا تقول؟ أهكذا سريعًا؟ ما مدى العمل الذي أتممته؟

- لقد فرغت من طلاء السياج كله يا عمتي.

- توم.. لا تكذب عليَّ، إنني لا أستطيع احتمال الكذب.

- ولكني لا أكذب يا عمتي.. لقد فرغت من طلاء السياج.

ولم تصدق العمة بولي ذلك، ونهضت لتستوثق من الأمر بنفسها ولقد كانت على استعداد لأن تشعر بالارتياح والرضا لو أنّ عشرين في المِئة فقط من كلام توم كان صحيحًا، ولكنها وجدت السياج كله مطليًّا، ولم يكُن قد طُلِيَ مرة واحدة، وإنما طُلِيَ مرات ومرات من أعلاه حتى ملتقاه بالأرض؛ فتملكتها دهشة شديدة كادت تعقد لسانها.

قالت: أكاد لا أصدق عيني! مَهما يكُن من أمرٍ، فلا بُد من التسليم بالواقع.. إنك تستطيع أنْ تعمل حينما تحزم أمرك على العمل يا توم.

وبادرت تخفف إطراءها فأردفت: ولكنك قلما تحزم أمرك.. حسنًا، يمكنك أنْ تذهب لتلعب، ولكن حذار من التأخير وإلا سلخت جلدك!

إتقان طلاء السور جعلها سعيدة، لذلك لم تتمالك أنْ قادت الصبي إلى «المطبخ» وانتقت له تفاحة ممتازة، بينما كانت تقدمها له راحت تلقي عليه محاضرة تستهدف إصلاح أخلاقه، وعن مدى ما يشعر به الإنسان من متعة ولذة وهو يأكل مثل هذه التفاحة بعد أنْ يحصل عليها بغير خطيئة، وعن طريق العمل الشريف. وبينما كانت العمة بولي تنهي محاضرتها انتهز توم الفرصة وسرق إحدى الفطائر اللذيذة!

وعندما كان توم يهم بمغادرة المنزل، رأى سيدني يسرع في ارتقاء الدرج الخارجي المؤدي إلى الغرفة الخلفية بالطابق الثاني.. فالتقط قطعة من الوحل الجاف القريبة منه وقذف بها سيدني. وقبل أنْ تتمكن العمة بولي من التغلب على دهشتها والمبادرة إلى إنقاذ سيدني، كانت ست أو سبع قطعٍ من الوحل قد أصابته. وفي اللحظة التالية تسلق توم السياج وغاب عن الأنظار.. لقد كانت هناك بوابة، ولكن القاعدة العامة عند توم كانت تقتضي ألا يستعملها عندما يضيق الوقت عن استعمالها. وأحسّ توم بالراحة والطمأنينة بعد أنْ فرغ من تصفية حسابه مع سيدني الذي وجه نظر العمة بولي إلى الخيط الأسود الذي حاك به القميص المقطوع، فأثار له بذلك المتاعب!

بلغ توم طرف الشارع، ثم انثنى في ممر موحل يؤدي إلى خلفية الحظيرة التي تحتفظ فيها عمته بأبقارها. وهكذا أصبح بمأمن من أنْ يلحق به أحد.. وأسرع خطاه إلى ساحة القرية العامة حيث التأم شمل فرقتين «عسكريتين» من الصبيان استعدادًا للقتال بناء على موعد سابق. وكان توم قائد إحدى هاتين الفرقتين. أما الجيش الثاني فكان قائده «چو هاربر» «وهو صديق حميم لتوم». ولم يتنازل القائدان العظيمان بالاشتراك في القتال -فقد كان ذلك أكثر ملاءمة للصبيان الصغار فحسب- وإنما اكتفيا بالجلوس معًا في تعاظم، وراحا يديران رحى العمليات الحربية في الميدان بأوامر يصدرانها عن طريق أركان حربهما! ولقد أحرز جيش توم نصرًا باهرًا بعد معركة رهيبة. ثم تم إحصاء القتلى، وتبادل الأَسْرَى، ووُضِعَت شروط المعركة القادمة وحُدِدَ اليوم الذي ستُجْرَى فيه، وبعد ذلك اصطف الجيشان وانصرفا.. بينما رجع توم عائدًا إلى المنزل وحده!

وبينما كان يمر بالمنزل الذي يقطنه «چيف تاتشر» رأى فتاة غريبة في الحديقة، كانت مخلوقة صغيرة جميلة ذات

عينين زرقاوين وشعر ذهبي ينتهي بضفيرتين، وترتدي ثوبًا أنيقًا، وفي التو.. سقط البطل المظفر صريعًا بغير أنْ يطلق طلقة واحدة، وسرعان ما اختفت فتاة اسمها «آمي لورنس» من قلبه دُون أنْ تترك فيه أي ذكرى من ذكرياتها.. كان يظن أنه أحب «آمي» إلى درجة الجنون، وكان يعتبر عاطفته عبادة، ولقد قضى شهورًا طويلة وهو يحاول الفوز بها، ولكنها لم تعترف له بحبها إلا منذ أقل من أسبوع، وعندئذ شعر بأنه أسعد صبي في العالم كله، ولكن سعادته لم تَدُم لأكثر من سبعة أيام؛ إذ تلاشت فتاة أحلامه من قلبه في لحظة، كغريب عابر انتهت زيارته.

وراح يتطلع إلى هذا الملاك الجديد بعين العبادة، حتى لاحظ أنها اكتشفت أمره، فتظاهر بأنه لم يكُن يفطن إلى وجودها. وأخذ يأتي بحركات مسرحية بشكل صبياني يثير الضحك لعله يفوز بإعجابها، ومضى في حماقته هذه فترة من الوقت، وبينما كان يقوم بإحدى حركاته الرياضية الخطرة، تطلع من رُكن عينه إلى الفتاة، فرآها وقد استدارت ومضت إلى المنزل.. فتقدم توم من السياج واستند إليه، وقد استبد به الحزن، يأمل أنْ تتلكأ الفتاة ولو للحظة، واستجابت لأمنيته فتوقفت قليلًا عند الدرج، ولكنها لم تلبث أنْ سارت نحو الباب.. وتنهد توم تنهيدة عميقة عندما رآها تطأ مدخل الباب بقدمها، ولكن وجهه لم يلبث أنْ تهلل حينما رآها تلقي إليه بزهرة من فوق السياج قبل أنْ تختفي داخل المنزل.

ركض الصبي نحو زهرته، ثم توقف على مسيرة قدم أو اثنين من مكان الزهرة، ثم ظلل عينيه بيده وراح يتطلع على طول الطريق كأنما اكتشف شيئًا مُهمًّا يحدث في هذا الاتجاه. وسرعان ما التقط عودًا من القش وبدأ يحاول أنْ يوازنه فوق أنفه، ورأسه مائل إلى الخلف. وبينما كان يتحرك في هذا الجانب وذاك لحفظ توازن عود القش، أخذ يقترب من الزهرة إلى أنْ استقر قدمه العاري فوقها، وأصابعه حولها، ثم تهادى في مشيته مبتعدًا ولم يلبث أنْ اختفى بهذا الكنز خلف المنزل.. ولكن هذا الاختفاء كان موقوتًا -فقد بادر إلى وضع الزهرة بداخل سترته لصق قلبه- وربما كان الأصح لصق معدته، لأنه لم يكُن مُلمًّا بعلم وظائف الأعضاء وأماكنها إلمامًا كافيًا.

وعاد إلى مكانه السابق بالقرب من السياج، وظل واقفًا هناك حتى أقبل الليل وهو يؤدي حركاته البهلوانية، ولكن الفتاة لم تظهر ثانية، وكان يمني نفسه بأنها قريبة من إحدى النوافذ لترى مدى اهتمامه بها.. وأخيرًا اضطر إلى العودة للمنزل ورأسه مشحون بالأطياف.

كانت روحه المعنوية عالية في أثناء تناول طعام العشاء، حتى لقد تساءلت عمته «ماذا دهاه»! ومع أنها وبختته أشد التوبيخ لِمَا فرط منه في حق سيدني؛ لكنه لم يحفل بذلك على الإطلاق، وحاول أنْ يسرق قطعة من السكر تحت بصر عمته وسمعها مما اضطرها إلى أنْ تضربه فوق ركبتيه.

قال: إنك لا تضربين سيدني حينما يأخذ السكر يا عمتي.

- حسنًا.. إنّ سيدني لا يضايق أحدًا مثلك. ثم إنك لا يمكن أنْ تكف عن سرقة السكر لولا يقظتي وشدة مراقبتي لك.

وبعد قليل ذهبت العمة بولي إلى المطبخ، فانتهز سيدني فرصة الحصانة التي يتمتع بها ومد يده فالتقط وعاء السكر.. ولكن الوعاء انزلق من بين أصابعه وسقط؛ فطفح قلب توم بالسرور، بل لقد غلبه الضحك ولكنه استطاع أنْ يسيطر على نفسه ويلزم الصمت... قال لنفسه إنه لن ينطق بكلمة واحدة حتى عندما تعود عمته، وإنما سيجلس صامتًا إلى أنْ تسأل عمَّن أتى هذا الإثم، وعندئذ يفضي إليها بالحقيقة ليرى كيف ستصب غضبها على هذا الجرو المدلل.. وعادت العمة بولي أخيرًا وما كادت تكتشف الكارثة حتى جمدت في مكانها.. وراحت تتأمل وعاء السكر وقد تطاير من عينيها شرر الغضب، فقال توم لنفسه: «إنّ العاصفة على وشك الهبوب» وفي اللحظة التالية كان منبطحًا على وجهه فوق الأرض، ورفعت العمة بولي يدها لتهوى بها فوق رأسه مرة أخرى ولكنه صاح قائلًا:

- انتظري.. الآن، على ماذا تعاقبينني؟ سيدني الذي كسره!

وجمدت يد العمة بولي في الهواء، وقد تملكتها الحيرة وعقدت الدهشة لسانها.

وأخيرًا قالت بصوت خافت: أوه.. حسنًا، أظن أنك تستحق اللطمة التي أصابتك إذ لا ريب في أنك ارتكبت وزرًا آخر وأنا بالمطبخ.

وبدأ ضميرها يؤنبها، واكتسحتها رغبة طاغية في أنْ تقول له شيئًا لطيفًا، ولكنها ما لبثت أنْ تراجعت خشية أنْ يؤدي ذلك إلى الاعتقاد بأنها اعترفت بوقوعها في الخطأ، وهو أمر لا يتفق والنظام.. ومِن ثَمَّ لاذت بالصمت وانصرفت إلى شؤونها بقلبٍ مثقل. أما توم فقد انطوى في ركن الغرفة منتشيًا رغم ما تعرض له، كان يعلم أنّ عمته تتألم أشد الألم من أجله،

وغمره شعور بالسعادة.. فهو لم يكُن يأبه بكلماتها الخشنة، ولا بإشاراتها التي تدل على الغضب المفتعل كلما تطلع إلى عينيها، ورأى فيها تلك النظرة الضارعة التي تدل على تأنيب الضمير، وتلك الغشاوة الخفيفة من الدموع التي كانت تظهر بين الحين والحين؛ فتبادر العمة بولي إلى تجفيفها. وراح يتخيل نفسه راقدًا في الفراش وقد صرعه المرض حتى كاد يرديه، وعمته بولي منحنية فوقه وهي تتضرع إليه أنْ ينطق بكلمة صفح واحدة، ولكنه يدير وجهه إلى الجدار ويموت بغير أنْ ينطق بهذه الكلمة! آه ترى ماذا يكون شعورها وقتئذ؟ وتخيل نفسه وقد حملوه جثة هامدة إلى المنزل بعد أنْ غرق في النهر وخصلات شعره مبتلة وقلبه بارد كالثلج... وتصور عمته وهي تلقي بنفسها فوق جثته، وكيف أنّ الدمع سينهمر مدرارًا من عينيها وكيف أنّ شفتيها ستبتهلان إلى الله أنْ يعيده إليها، وكيف أنها ستعاهده على ألا تسيء إليه إطلاقًا! ولكنه سيظل ممددًا فوق الفراش جثة هامدة مصفرة دُون أنْ يأتي حراكًا، إنه المعذب التعس الذي انتهت آلامه ومتاعبه! وهكذا مضى الصبي يتلاعب بعواطفه بمثل هذه التخيلات والأوهام حتى يحتفظ بذلك الشعور اللذيذ من الشماتة.. ولكنه سرعان ما غُلب على أمره -وانقلب السحر على الساحر- حين أثارت خيالاته المؤلمة أشجانه، حتى جعلت الدمع يَنْسَال من عينيه ويتساقط من طرف أنفه.. وظل على حاله إلى أنْ أقبلت ابنة عمته ماري من الخارج وهي ترقص في سيرها، وقد امتلأت فرحًا وسرورًا لعودتها إلى المنزل بعد أنْ قضت سبعة أيام في زيارة بالمدينة. عند ذاك نهض توم من مكانه، وغادر الغرفة لينفرد بآلامه وأشجانه بعد أنْ ضاق بما جلبته ماري معها من جو كله بهجة ونعم ونور!

وراح يتسكع بعيدًا عن الأماكن التي اعتاد الصبيان ارتيادها، باحثًا عن مواقع موحشة منعزلة تتلاءم مع انقباض صدره، ورأى كتلة خشبية طويلة في النهر؛ فجلس فوق حافتها الخارجية وراح يفكر في اتساع النهر المخيف وتمنى لو استطاع أنْ يغرق بشرط ألا يشعر بذلك، وألا يتعرض لذلك العذاب الأليم الذي فرضته الطبيعة على كل من يلجأ إلى هذه الوسيلة لقطع ما بينه وبين الحياة من صلة، ولكنه تذكر الزهرة في تلك اللحظة فأخرجها من جيبه.. كانت قد تهشمت وذبلت فزاد ذلك من سخطه وحنقه وراح يتساءل: أتراها -أي صاحبة هذه الزهرة- سترثي لحاله إذا عرفت حقيقة أمره؟ أتراها ستبكي وترجو لو أنها تمتعت بحرية تتيح لها أنْ تحيط عنقه بذراعها لتهبه شيئًا من الراحة؟ أم تراها سترجع مبادرة بالابتعاد عنه في برود شأنها شأن العالم الأجوف كله؟ هذه الصورة جعلته يشعر بالألم، ولكنه كان ألمًا لذيذًا، فراح يقلبها في عقله المرة تلو المرة وهو يعرّضها لمختلف الأضواء ويستعرض ما فيها من محاسن وسيئات. وأخيرًا نهض من مكانه وهو يتنهد، وسرعان ما ابتلعه الظلام.

ونحو الساعة التاسعة والنصف أو العاشرة، وصل إلى الشارع الذي تقيم في أحد منازله المعبودة المجهولة، فتوقف لحظة أمام منزلها، وأصاخ السمع، ولكن الهدوء كان شاملًا، بينما كان هناك ضوء باهت ينبعث من شمعدان وينعكس على ستار مسدل فوق نافذة بالطابق الثاني.. وراح يتساءل: أتراها في هذه الغرفة؟ وتسلق السياج، وأخذ يتحسس طريقه متسللًا بين أشجار الحديقة إلى أنْ وقف أسفل النافذة وقد ضم يديه الممسكتان بالزهرة الذابلة المهشمة إلى صدره.. هكذا سيموت - في ذلك الفضاء البارد دُون أنْ يظلل رأسه شيء، وبغير أنْ تمسح يد حانية برودة الموت من فوق جبهته، أو ينحني فوقه وجه جميل ليرثي لحاله عندما يدهمه الموت.

وهكذا ستراه عندما تتطلع من نافذتها لتستقبل الصباح الجميل... و... أواه! أتراها ستذرف دمعة واحدة على جسده الجامد الذي انحسرت عنه الحياة؟ أتراها ستزفر زفرة واحدة حينما ترى هذه الحياة القصيرة وقد اختزلت قبل الأوان.

وفُتِحَت النافذة في تلك اللحظة، ومزق السكون صوت إحدى الخادمات ثم لم تلبث بقايا الشهيد المنتظر تحت النافذة أنْ غرقت في طوفان الماء الذي انسكب من النافذة.

ووثب البطل المعذب واقفًا، كان ينتفض من البلل والغضب معًا، وراح يسب ويلعن، وفي اللحظة التالية أُغلِقَت النافذة، وعندئذ انطلق شبح صغير كالسهم، فعَبَر الحديقة ثم تسلق السياج وغاب في الظلام.

وقبل أنْ يأوي توم إلى فراشه في تلك الليلة؛ أخذ يتأمل ثيابه المبللة على ذلك الضوء الضعيف الذي كان ينبعث من المصباح، واستيقظ سيدني وقتئذ ورغم أنه رأى حالة ثياب توم التعسة؛ فإنه لاذ بالصمت طلبًا للسلامة، فقد رأى الغدر في نظرات توم!

وصعد توم إلى الفراش دُون أنْ يصلي كالعادة.. ولم يخفَ ذلك على سيدني أيضًا.

***

الفصل الرابع

مسرحية في «مدرسة الأحد»

أشرقت الشمس على الدنيا الهادئة، وتألقت أشعتها فوق القرية الوادعة تباركها.. وقد انتهى الجميع في تلك اللحظة من تناول طعام الإفطار، وبدأت العمة بولي صلاة الصباح مع أسرتها، وقد استهلتها بتلاوة بعض آيات من الإنجيل، وختمتها بالتضرع إلى الله أنْ يبارك الأُسرة ويحفظها.

وعندما انتهت الصلاة، بدأ توم يستذكر درسه الديني، أما سيدني فكان قد استوعبه قبل ذلك بأيام، وبذل توم قَصَارى جهده محاولًا أنْ يستوعب خمس آياتٍ، وكان قد اختار قطعة من «موعظة الجبل» التي ألقاها المسيح على تلاميذه، لأنه لم يجد آيات أقصر منها. وبعد نصف ساعة، استطاع توم أنْ يحصل على فكرة عامة مبهمة عن درسه ولا شيء أكثر من ذلك، لأنّ عقله كان يسبح في حقل التفكير الإنساني كله، كما كانت يداه مشغولتين بالعبث ببعض اللعب.

أخذت ماري الكتاب منه وطلبت أنْ يسمعها ما حفظ.. فحاول أنْ يجد طريقه وسط الضباب.. قال:

- طوبى لله...

قالت ماري:

- للمساكين..

- نعم.. المساكين.. طوبى للمساكين..

- بالروح...

- بالروح.. طوبى للمساكين بالروح لأن..

- لأن لهم..

- لأن لهم.. طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات.. طوبى للحزانى لأنهم.. لأنهم...

- يتـ...

- لأنهم..

- يتـ...

- لأنهم يتـ... أوه.. لست أدري ماذا بعد ذلك.

- يتـ...!

- أوه! يتـ... لأنهم يتـ... لأنهم يتـــ... يحزنون.. طوبى لهم لأنهم... لأنهم ماذا؟

لماذا لا تخبرينني يا ماري؟ لماذا تتعمدين تعذيبي؟

- أوه يا توم يا لك من تعس غليظ العقل.. إنني لا أعذبك ولا يطاوعني قلبي على ذلك، لكن يجب أنْ تذهب وتعيد استذكار دروسك، واحذر أنْ تستسلم لليأس يا توم.. ثق إنك ستستطيع حفظ الدرس، فإنْ فعلت فسأعطيك شيئًا لطيفًا للغاية.. هيا يا صبي وكُن لطيفًا.

- حسنًا.. لكن ماذا ستعطينني يا ماري؟

- لا تفكر في ذلك الآن يا توم، إنك تعلم أنني حين أقول إنّ ما سأعطيه لك شيئًا لطيفًا فلا بُد أنْ يكون لطيفًا فعلًا.

- إني واثق من ذلك يا ماري، حسنًا.. سأحاول حفظ الدرس مرة أخرى.

وحاول فعلًا أنْ يتذكره - ولقد جعله حب الاستطلاع وتلهفه على الجائزة المرتقبة يستغرق تمامًا في الدرس، حتى استطاع أنْ يتذكره كأجود ما يكون الاستذكار، وعندئذ أعطته ماري مدية جديدة لطيفة ثمنها اثني عشر سنتًا ونصف سنت، ولقد جعله هذا النصر يهتز طربًا من قمة رأسه إلى قدمه، صحيح إنّ المدية لم تكُن تصلح لقطع أي شيء ولكنها كانت ثمينة وفاخرة للغاية، وحاول توم أنْ يخدش الصوان «الدولاب» بها، وكان يتهيأ للعبث بأحد الأدراج عندما استدعى لارتداء ثيابه ليتجهز للذهاب إلى مدرسة الأحد.

قدمت له ماري قطعةً من الصابون ووعاءً مملوءًا بالماء، فحمله إلى خارج الباب ووضع الوعاء فوق مقعد خشبي هناك، ثم وضع قطعة الصابون في الماء وشمر عن ساعديه، وبعدئذ سكب الماء على الأرض بلطف، ثم عاد إلى المطبخ وبدأ يجفف وجهه بقوة في المنشفة المعلقة خلف الباب، ولكن ماري انتزعت المنشفة منه قائلة:

- يا للعار ألا تخجل من نفسك يا توم؟ يجب ألا تكون شريرًا هكذا فإنّ الماء لن يؤذيك.

وارتبك توم قليلًا.. وأُعِيد مَلء الوعاء، وفي هذه المرة وقف توم يتأمله بعض الوقت وهو يحاول أنْ يستجمع شجاعته.. ثم ملأ رئتيه بالهواء... وبدأ... وعندما عاد إلى المطبخ كان مغمض العينين - وراح يتحسس موضع المنشفة، بينما كانت قطرات الماء وفقاقيع الصابون تتساقط من وجهه، وعندما انتهى من تجفيف نفسه، لم يكُن وجهه نظيفًا تمامًا، ذلك لأن الجزء النظيف من وجهه كان يعلو ذقنه وفكيه فبدا أشبه بالقناع، وعندما فرغت ماري من العناية بأمره.. كان قد أصبح مخلوقًا آخر، فقد صففت شعره بشكل جميل وشذبت خصلاته القصيرة بشكل أكسبه منظرًا لطيفًا، «وكان توم يعبث بتجاعيد شعره سرًا ليتخلص منها، لأنه كان يعتبرها مظهرًا من مظاهر الأنوثة، ومِن ثَمَّ كانت التجاعيد التي تحدثها ماري في شعره تملأ حياته مرارة وأسى»، وعندئذ أخرجت ماري ملابس توم التي ظل يرتديها أيام الآحاد فقط خلال العامين الأخيرين -والتي كان يطلق عليها ببساطة الثياب الخاصة- ومن ذلك نستطيع أنْ نتخيل ما هي مجموعة الثياب التي يملكها! وبعد أنْ ارتدى ثيابه أصلحت ماري من شأنه وأغلقت سترته إلى أسفل ذقنه وقلبت ياقة قميصه فوق ياقة سترته، ثم وضعت قبعته المصنوعة من القش فوق رأسه. وقد كان يشعر بالضيق من هذه الأناقة المفرطة.. لأن هذه الثياب «الخاصة» تعوقه عن الحركة. وتمنى أنْ تنسى ماري حذاءه، ولكن أمله تبدد؛ إذ سرعان ما أحضرته الفتاة من الصوان، فثارت ثائرته وقال لها إنهم يرغمونه دائمًا على فعل ما لا يريد، فقالت له ماري محاولة إقناعه:

- أرجوك يا توم.. كن ولدًا لطيفًا.

واضطر الصبي إلى ارتداء الحذاء على مضض.. وبعد قليل كانت ماري نفسها قد ارتدت ثيابها، وخرج الأطفال الثلاثة من المنزل في طريقهم إلى مدرسة الأحد - وهو المكان الذي يكرهه توم من كل قلبه، أما سيدني وماري فكانا يحبانه.

الدراسة تبدأ من التاسعة حتى العاشرة والنصف، ثم تقام الصلاة في الكنيسة بعد ذلك. وكان طفلان من مجموعة أطفال مدرسة الأحد يشتركان اختياريًا في خدمة «القداس» بينما باقي الأطفال يبقون جالسين في القداس، وكانت مقاعد الكنيسة ذات الظهر المرتفع تتسع لثلاث مئة شخصٍ من المصلين، أما بناء الكنيسة نفسه فكان صغيرًا ولكنه رائع.. وعندما وصل توم وأخويه إلى الكنيسة تقهقر الصبي خطوة ليتحدث إلى زميل له:

- أخبرني يا بيلي.. هل لديك بطاقة صفراء؟

- نعم.

- ماذا تريد مقابلها؟

- ما الذي تعرضه؟

- شص سنارة.

- أرني إياه.

فعرضه توم عليه، ووافق بيلي على إبرام الصفقة.. واتبع توم هذه الصفقة بأخرى حصل منها على بطاقتين حمراوين، ثم بثالثة مقابل بطاقتين زرقاوين.. وكان يتصيد الصبيان بمجرد وصولهم إلى الكنيسة، فيشتري منهم البطاقات مختلفة الألوان بما لديه من الثروة التي جمعها إبان طلاء السياج، واستغرقت هذه العملية أكثر من ربع ساعة. فلما فرغ منها انضم إلى مجموعة من الأولاد والبنات كانت تدخل إلى الكنيسة في تلك اللحظة، وتقدم من مقعده وبدأ يتشاجر مع أول صبي صادفه فتدخل المشرف، وكان كهلًا وقورًا، حتى فض المشاجرة، ولكنه لم يكد يوليه ظهره حتى جذب توم شعر الصبي الذي يجلس أمامه، فلما استدار الصبي إليه وجده منهمكًا في المطالعة، وما كاد الصبي ينصرف عنه، حتى غرس توم دبوسًا رفيعًا في ظهر صبي آخر، فصرخ بصوت مرتفع، فاستدار له المدرس وعنفه بقوة، وقد كان فصل توم معروفًا بالشغب. وعندما حان موعد التسميع تبين أنّ الجميع لم يستذكروا الآيات كما ينبغي، مما اضطر المدرس إلى معاونتهم كي

يتذكروا بعض الفقرات، ومع ذلك وزّع المدرس على كل منهم ما يستحقه من بطاقات زرقاء.. بواقع بطاقة عن كل آيتين، وكانت كل عشر بطاقات زُرق تقوم ببطاقة واحدة حمراء، وكل عشر بطاقات حُمر ببطاقة صفراء، وقد جرت العادة أنْ يعطي المدرس لمن يحصل على عشر بطاقات صُفر إنجيلًا أنيقًا «يساوي أربعين سنتًا في تلك الأيام» بَيد أنه كان من النادر جدًّا أنْ يظفر صبي أو فتاة بهذه الجائزة؛ لأن ذلك كان يستلزم حفظ ألفي آية من الإنجيل، ورغم ذلك فقد استطاعت ماري أنْ تحصل على إنجيلين -وكان ذلك نتيجة مجهود شاق بذلته خلال عامين متتاليين- كما حصل صبي من أبوين ألمانيين على أربعة أو خمسة أناجيل. فقد استطاع أنْ يردد ثلاث آلاف آية ذات مرة دُون توقف، ولكن الجهد العقلي الذي بذله يومذاك كان عنيفًا للغاية، ومِن ثَمَّ فقد أصيب الصبي بما يشبه الجنون منذ ذلك الحين -وهو حادث مؤسف جدًّا بالنسبة للمدرسة، فقد كان المشرف ينتهز فرص الاجتماعات المُهمة ويستدعي هذا الصبي ويطلب منه أنْ يظهر مهارته، ولذلك كان باقي الأطفال يخشون هذه التجربة الشاقة كما كان يسميها توم. وعلى إثر هذا الحادث لم يستطع غير الأولاد الكبار أنْ يحصلوا على البطاقات الملونة التي تكفي للحصول على نسخة من الإنجيل الأنيق، ومِن ثَمَّ كان تقديم إحدى هذه الجوائز من المناسبات المهمة نادرة الوقوع، فإذا ما حصل تلميذ على إنجيل فقد حازَ شرفًا عظيمًا، فيكرمه المدرس ويحسده الزملاء طوال اليوم.. ولم يكُن توم ليفكر يومًا في بذل ذلك المجهود المضني الذي يمكّنه من الظفر بهذا الشرف العظيم، بَيد أنه كان يشعر في الأيام الأخيرة برغبة شديدة في أنْ يظفر بالمجد والتصفيق اللذين يحظى بهما كل فائز في هذا المضمار.

وفي الوقت المحدد وقف المشرف أمام «المذبح» وهو يحمل كتابًا دينيًّا مغلقًا في يده، وقد وضع سبابته بين صفحتين من صفحاته، وطالب الحاضرين بالإنصات، وذلك لأنه من العادات المتبعة أنْ يحمل المشرف في مدرسة الأحد كتابًا دينيًّا في يده حينما يلقي حديثه المعتاد، كما هو الحال حينما يحمل المغني نوتة موسيقية في يده، حينما يظهر على المسرح ليردد أغنية بمفرده، أما منشأ هذه العادة وسرها، فالأمر لا يزال غامضًا حتى الآن، لأن المشرف والمغني معًا لا يلجآن إلى الكتاب الديني ولا النوتة الموسيقية عندما يؤديان واجبيهما، وكان المشرف نحيف القامة في الخامسة والثلاثين من عمره، ذهبي الشعر، يرتدي ياقة صلبة تكاد حافتها العليا أنْ تصل إلى أذنيه، ولها طرفان مدببان مثنيان يوشكان على بلوغ ركني فمه، وكانت هذه الياقة تجبره على النظر أمامه دائمًا، وتضطره إلى أنْ يدور بجسمه كله كلما أراد التطلع في أي اتجاه آخر. أما ربطة عنقه فكانت عريضة جدًّا لا يزيد طولها عن طول ورقة النقد الكبيرة. وكان مقدم حذائه مقوسًا إلى أعلى حسبما كان شائعًا في تلك الأيام. ولقد كان شباب هذا الوقت يضطرون إلى قضاء الساعات الطويلة وهم يقوسون أصابع أقدامهم داخل الجدار العلوي للحذاء لكي يتقوس ويجاري «الموضة»! وباختصار كان مستر «ولترز» المشرف رجلًا مهيب الطلعة، مخلصًا، أمينًا، لا يفرط أو يتهاون في الشعائر الدينية، ولذلك أحبه الجميع ووثقوا به.

وبدأ الرجل موعظته فقال:

«أيها الأطفال أريد منكم الآن أنْ تستمعوا إليَّ استماعًا تامًا لدقيقة أو دقيقتين.. نعم، فهذه هي الطريقة التي يجب أنْ يتبعها الأولاد الطيبون، ولكني أرى فتاة صغيرة تتطلع إلى الخارج من النافذة -كأنَّ بها تظن أنني موجود بالخارج- وربما تتوهم أنني جالس فوق إحدى الأشجار ألقي درسي على صغار الطيور! «وهنا سرت بين الجالسين همهمة الاستحسان»، أحب أنْ أقول لكم إنني أشعر بأشد الارتياح حينما أرى هذا العدد الكبير من الوجوه النضرة النظيفة مجتمعة في مكان كهذا لتتعلم كيف تفعل الصواب والخير»، وهلم جرا.. فليس من الضروري أنْ نمضي في ترديد بقية الموعظة، فقد كانت ذات طابع واحد لا يتغير، ومِن ثَمَّ فإنها مألوفة لنا جميعًا. بَيد أنّ الاضطراب ساد الثلث الأخير من الموعظة نظرًا لتجدد العراك بين جماعة معينة من الأولاد الأشرار. كذلك لِمَا شعر به آخرون من ضيق وملل بسبب طول الموعظة، وسرعان ما تفشى هذا التبرم حتى شمل الأولاد الهادئين أمثال سيدني وماري. ولكن هذه الضوضاء لم تلبث أنْ تلاشت تمامًا حينما أخذ صوت مستر «ولترز» يخفت إيذانًا بانتهاء الموعظة، وعندئذ ساد الجميع الصمت، تعبيرًا عن الشكر والعرفان بالجميل!

ولقد سرى الهمس بين الجالسين بسبب حادث يعتبر من الأمور النادرة في مدارس الأحد، ألا وهو ظهور عدد من كبار الزائرين أمثال المحامي «تاتشر» الذي كان بصحبة كهل هزيل، ورجل آخر مهيب الطلعة في منتصف العمر، وسيدة وقورة، لم يكُن هناك شك في أنها زوجة الرجل الأخير، وكانت السيدة تصطحب معها فتاة صغيرة. وكان توم يشعر بالقلق والضيق والتململ، فضلًا عن تأنيب الضمير. فهو لم يستطع مواجهة عيني «آمي لورنس» فتاته الأولى وهي تنظر إليه نظرات حب وهيام. ولكنه ما كاد يرى هذه القادمة الصغيرة حتى امتلأت روحه بالسعادة. وفي اللحظة التالية بدأ مسرحيته المعتادة بكل قواه -كان يلكز جاريه بكوعه، ويجذب شعر مَن أمامه، ويأتي حركات مضحكة بأعضاء وجهه- وصفوة القول؛

استخدم كل فن يمكّنه من سلب قلب الفتاة ونيل استحسانها.. ولا عجب، فقد كانت ملاكه الحارس الذي أهداه تلك الزهرة الذابلة، ثم لم يلبث أنْ أذله حينما رآه نائمًا في حديقة منزله!

أفسح المشرف للزائرين مكان الصدارة في القاعة، وما أنْ انتهى مستر «ولترز» من الوعظ، حتى بادر فقدم الضيوف للتلاميذ.. وكان الرجل متوسط العمر مهيب الطلعة، شخصية ممتازة، ولا عجب، فقد كان قاضي المقاطعة - ولا شك في أنّ الأطفال لم يسبق لهم أنْ حظوا بشرف لقاء مثل هذا الرجل العظيم، ولهذا كانوا يتعجبون ويتساءلون عمّا إذا كان هذا الرجل بشرًا مثلهم! وأحسوا بالرغبة في أنْ يسمعوه وهو يزأر كما يفعل في المحكمة، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه خائفين خشية أنْ يفعل ذلك.

كان إعجابهم به كبيرًا، فهو قادم من مدينة تبعد اثني عشر ميلًا عن قريتهم -ومِن ثَمَّ فلا بُد- أنه قام برحلات كثيرة رأى الدنيا خلالها، وزاد من هذه الرهبة التي أثارتها تلك الأفكار ذلك السكون التام الذي شمل القاعة، فراحت جميع العيون تحدق في هذا الزائر العظيم القاضي «تاتشر» شقيق محاميهم، وفي التو تقدم «چيف تاتشر» نحو الرجل العظيم ليصافحه، وهم يتطلعون إليه بعيون ترتسم فيها نظرات الحسد، ولو أنه سمع الهمس التالي لرقص من فرط الطرب:

- انظر إليه يا چيم إنه يتقدم منه، انظر إنه سيصافحه، ها هو يصافحه فعلًا! يا إلهي! ألا تود أنْ تكون چيف؟

وبدأ مستر ولترز يؤدي عمله فراح يصدر الأوامر هنا وهناك، ويصدر الأحكام أيضًا ويوجه مساعديه في كل اتجاه، أما أمين المكتبة فقد بادر بإحضار كمية ضخمة من الكتب والمراجع، بينما تفرقت المدرسات الشابات بين الأطفال الذين أصابتهم لكمات كثيرة فيما بعد، وكن يرفعن أصابعهن إلى شفاههن محذرات الأطفال الأشرار من الإقدام على ما يسيء إلى جلال هذه المناسبة العظيمة، أما المدرسون فقد سارعوا إلى أداء واجبهم، فكانوا يزجرون المسيئين بلطف لا يخلو من قدر من العنف، ويطالبون الجميع باحترام النظام - وقد خلق أكثر المدرسين والمدرسات لأنفسهم عملًا في هذه اللحظة إما في المكتبة وإما عند المذبح، كل ذلك والقاضي يتطلع في عظمة وخيلاء، وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة خفيفة تشف عن الرضاء والارتياح لما قوبل به من تبجيل وتعظيم!

لم يكُن ينقص مستر ولترز غير شيء واحد لتتم سعادته، أنْ تتاح له فرصة تقديم إنجيل إلى أحد الأطفال بعد أنْ يعرض ما بلغه من إعجاز. وكان أطفال كثيرون يملكون بطاقات صُفر، ولكن أحدًا منهم لم يكُن يملك العدد الكافي، والذي يتيح له الحصول على نسخة من الإنجيل، واتصل مستر ولترز سرًا بجميع الصبيان النابهين، واستفسر منهم عمّا معهم من بطاقات، وكان مستر ولترز على استعداد لأن يدفع أي ثمن في هذه اللحظة، وذلك مقابل أنْ يستعيد الصبي الألماني التمتع بكامل قواه العقلية.

وفي لحظة اليأس المرير تلك، تقدم توم سوير وهو يحمل تسع بطاقات صُفر ومثلها حُمر وعشر بطاقات زُرق، وطالب بالحصول على نسخة الإنجيل.. كان ذلك بمثابة صاعقة تنقض في سماء صافية، فإنّ مستر ولترز لم يكُن يتوقع إطلاقًا أنْ يتحقق هذا النصر لصبي مثل توم سوير ولو حتى بعد عشر سنوات! ولم يكُن في استطاعته أنْ يراوغ أو يرفض - فقد كان توم يملك بطاقات مختومة لا يمكن الطعن فيها، ومِن ثَمَّ فقد رُفِعَ توم إلى المنصة التي جلس القاضي ومَن معه فوقها، وأُعلن النبأ العظيم مِن القيادة، فكانت مفاجأة الجيل المذهلة، والتي أحدثت تأثيرًا عميقًا في الجميع. رُفِعَ البطل الجديد إلى مرتبة العظمة، وهكذا لم تحدث في المدرسة أعجوبة واحدة ممثلة في شخص القاضي الزائر، وإنما أصبحت أمامها أعجوبتان؛ هما «القاضي وتوم سوير» ولقد أكل الحسد قلوب الصبيان، أما أكثرهم حقدًا وغيظًا، فكانوا أولئك الذين أدركوا بعد فوات الأوان، أنهم ساهموا في تحقيق هذا المجد للصبي توم بقبولهم بيع ما كان لديهم من بطاقات ملونة له، مقابل ما كان يقدمه لهم من تفاهات لا قيمة لها، جمعها من زملائهم الذين سمح لهم بالمساهمة في طلاء السياج.. وكم احتقر هؤلاء الصبية أنفسهم لأنهم سمحوا لهذه الحية الرقطاء -توم- بأنْ تخدعهم وتسخر منهم!

وقُدِمَت الجائزة لتوم وسط مظاهر التكريم، سوى أن مستر ولترز المشرف لم يكُن متحمسًا لتكريم توم.. فقد كان المسكين يعتقد بالغريزة أنّ في الأمر سرًا وإنْ خفي عنه فهم هذا السر في تلك اللحظة، لأنه كان واثقًا من أنّ صبيًا مثل توم لا يمكن أنْ يستوعب ألفي آية من الإنجيل، فإنّ عشر آيات فقط كانت تكفي لإجهاده واستنزاف قواه الفكرية.

غمرت السعادة والفخر «آمي لورنس» وحاولت أنْ تجتذب أنظار توم إلى وجهها، ولكنه لم يفكر في التطلع إليها. فعجبت الفتاة لذلك، ثم لم تلبث أنْ تملكها القلق، وسرعان ما تحول هذا القلق إلى شك ظل يساورها وينحسر عنها، ثم يساورها مرة أخرى، واستمرت تراقب توم خلسة، وقد كشفت لها نظرة واحدة عن أشياء كثيرة - وفي التو، تحطم أملها

ونهشت الغيرة قلبها، واستبد بها الغضب، فبدأت الدموع تتساقط من عينيها، وتملكها الحقد على الجميع، وكانت أكثر حقدًا على توم «وهكذا ظنت»! وقُدّم توم للقاضي، وأحس الصبي بأنّ لسانه قد ألجم، وأنّ أنفاسه تكاد تتوقف، وراح قلبه يدق بعنف، لشدة الرهبة التي أحس بها من لقاء هذا الرجل العظيم، وبخاصة عندما تبين له إنّ هذا الرجل هو والد معبودته.. لقد كان على استعداد لأن يجثو عند قدمي هذه المعبودة، لو أنّ الوقت كان ليلًا، ولكنه كان نهارًا، وفي تلك اللحظة وضع القاضي يده فوق رأس توم ووصفه بأنه رجل صغير لطيف، ثم سأله عن اسمه، فتلعثم الصبي وشهق.. ثم قال بصعوبة:

- توم.

- أوه! كلا.. ليس اسمك توم وإنما...

- توماس.

- آه! هو ذاك.. هذا حسن، ولكني أظن أنّ لك اسمًا آخر.. فهل قلته لي؟

فقال ولترز يحث توم على الكلام:

- قل للسيد ما هو اسمك الآخر يا توم، واختم كلامك بلفظ سيدي.. يجب ألا تتجاهل آداب الحديث يا فتى.

- توماس سوير يا سيدي.

- هذا حسن.. أيها الفتى اللطيف، إنّ ألفي آية عدد كبير جدًّا، نعم. كبير جدًّا جدًّا. ومع ذلك فإنك لن تشعر بأي أسف على المجهود الكبير الذي بذلته في استيعابها، لأن المعرفة أثمن شيء في هذا العالم إنها هي التي تصوغ عظماء الرجال وأخيارهم. وأنت يا توماس ستصبح في أحد الأيام رجلًا عظيمًا خيّرًا، ويومذاك ستتطلع إلى الوراء وتقول: «إنّ ذلك كله راجع إلى المزايا العظيمة التي أكسبتني إياها مدرسة الأحد في أيام صباي، إنّ مرجعه إلى المدرسين الأعزاء الذين علموني كيف أحب العلم وشجعوني، وعنوا بأمري، وقدموا لي نسخة جميلة من الإنجيل لأحتفظ بها ولتكون معي دائمًا.. إنّ مرجعه إلى التنشئة الصالحة»، هذا ما ستقوله يا توماس، ولكنك لن تحصل على أي نقود مقابل استيعابك لألفي الآية هذه -كلا بالطبع- إنني أعرف إنك لن تقبل ذلك.. والآن، لا أظنك تبخل عليَّ وعلى هذه السيدة بسماع شيء مما تعلمته، كلا.. إنني أعرف إنك لن تبخل علينا بذلك، إذ إننا نفخر بالصبيان الصغار الذين
يتعلمون. والآن.. لا شك في إنك تعرف أسماء تلاميذ السيد المسيح الاثني عشر، فهلا ذكرت لنا اسمي أول تلميذين منهما؟

كان توم يعبث بأحد أزرار سترته، وقد بدا عليه الارتباك، ثم تملكه القلق.. وعندئذ غاص قلب مستر ولترز بين جنبيه، وقال لنفسه ليس من الممكن أنْ يفلح الصبي في الإجابة على سؤال بسيط كهذا، رباه! لماذا سأله القاضي؟ ومع ذلك فقد أدرك أنه يجب عليه أنْ يتكلم.. قال:

- أجب على سؤال السيد يا توماس.. لا تخف.

وبقيَ لسان توم معطلًا عن العمل.

قالت السيدة: لا شك أنك ستكلمني أنا.. لقد كان اسما أول تلميذين هما...

- داوود وچولييت!

وأحسبُ أنه يحسن بنا أنْ نسدل الستار هنا وألا نتعرض لبقية المنظر!

***

الفصل الخامس

الخنفساء الفريسة

نحو الساعة العاشرة والنصف بدأ ناقوس الكنيسة الصغيرة يدق، وسرعان ما تجمع الجمهور لحضور صلاة الصباح، ووزع أطفال مدرسة الأحد أنفسهم في أرجاء المكان، وشغلوا المقاعد عالية الظهر مع آبائهم حتى يكونوا تحت رقابتهم، وأقبلت العمة بولي ومعها توم وسيدني وماري، وجلسوا معًا. جلسَ توم بجوار الممر ليكون بعيدًا عن ماري قدر المستطاع، وبعيدًا عن النافذة وعن مناظر الصيف المغرية خارج الكنيسة. امتلأت القاعة بالمصلين، وكان بينهم وكيل مكتب البريد وهو كهل أصبح في تلك الأيام معدمًا بعد أنْ شهد كثيرًا من أيام المجد، والعُمدة وزوجته، فقد كان للقرية عُمدة وهو منصب من المناصب التي لم تكُن الضرورة تدعو لوجودها، كذا الأرملة «دوجلاس»، وهي امرأة جميلة أنيقة في الأربعين من عمرها، عُرِفَت بالسخاء، وطيبة القلب، وسعة العيش، وكان قصرها المشيَّد فوق التل هو القصر الوحيد في المدينة، وكان يعتبر أكبر دار للضيافة، وأكثرها كرمًا من حيث الولائم الكبرى التي كانت تقام فيه، والتي كانت «سانت بطرسبرج» كلها تتباهى بها، وكان من بين الحاضرين أيضًا «الماجور وارد» وزوجته، والمحامي «ريفرسون» وهو رجل بارز، جاء إلى المدينة ليقيم فيها بصفة دائمة، وأقبلت في إثره أجمل فتاة في القرية يتبعها صف من الفتيات الفاتنات أنيقات الثياب وتبعهن الكتبة الشبان الذين جاءوا من المدينة معًا، ووقفوا يتأملون الفتيات بإعجاب، وأخيرًا أقبل الصبي النموذجي «ويلي مافرسون» وهو يبدي أشد العناية بأمه كما لو كانت دمية مصنوعة من الزجاج، فقد كان من عادته أنْ يصحب أمه إلى الكنيسة، ولهذا كان موضع فخر جميع الأمهات، ولكنه كان أيضًا مكروهًا من جميع الصبيان لأنه كان صبيًّا مثاليًّا، ولأنه كان يبزهم جميعًا لا من الناحية الأخلاقية فحسب وإنما أيضًا من ناحية الهندام، كان منديله الأبيض يتدلى من جيبه.. ولم يكُن توم يملك منديلًا، ولهذا كان يعتبر الصبيان الذين يملكون المناديل متغطرسين!

وعندما التأم عقد المصلين، دق الناقوس مرة أخرى لينبه المتسكعين والمتأخرين، ثم لم يلبث أنْ ساد القاعة سكون شامل، لم يكُن يعكره سوى همس الشمامسة فقد كان ذلك حالهم دائمًا حتى إبان الصلاة.

وبدأ المنشد يردد تراتيله بصوت رخيم ونغمة كانت تستهوي جميع سكان هذا الجزء من الريف، وقد بدأ صوته هادئًا لطيفًا، ثم لم يلبث أنْ ارتفع حتى بلغ نقطة معينة، ثم لم يلبث أنْ خفت ثانية وهو يردد:

هل أحمل إلى المجد فـــــوق فـــــــراش من الأزهار

بينما يرهق الآخرون أنفسهم من أجل الفوز والفخار؟

كان يُعتَبر منشدًا مثاليًّا، ولهذا كان يُستَدعَى دائمًا إلى الاجتماعات الكنسية ليردد التراتيل، حتى إذا ما فرغ من الإنشاد رفعت السيدات أيديهن وتركنها تسقط في حجورهن، أو حجبن أعينهن بأيديهن، أو هززن رؤوسهن كأنما يقلن: «إنّ الكلمات لا تستطيع أنْ تصف هذا الإعجاز.. إنّ صوته رخيم ساحر لا يتلاءم مع هذه الدنيا الفانية».

وبعد أنْ فرغ المنشد من الترتيل، تحول الكاهن مستر «سبراج» إلى نشرة أنباء، وأخذ يقرأ قائمة بمواعيد الاجتماعات، وأسماء الشركات، حتى خيّل للحاضرين إنّ هذه القائمة لن تنتهي إلا في يوم الحشر، وللعجب فإن هذه العادة الغريبة ما زالت موجودة في أمريكا في هذا العصر الذي كثرت فيه الصحف. إذ يبدو أنه كلما قلت مبررات إحدى العادات التقليدية؛ أصبح من الصعب التخلص منها.

وبدأ الكاهن يصلي، وكانت صلاته حارة صادرة من القلب، ثم لم يلبث أنْ انتقل إلى التفصيلات، فأخذ يبتهل من أجل الكنيسة وأبنائها، ومن أجل كنائس القرية الأخرى، ومن أجل القرية نفسها، ثم من أجل المقاطعة، فمن أجل الولاية ومن أجل موظفيها، والولايات المتحدة كلها، وكنائس الولايات المتحدة، والكونجرس، ورئيس الولايات المتحدة، وضباط الحكومة، والبحارة المساكين الذين يكافحون في البحار العاتية، ومن أجل ملايين المضطهدين الذين ينوءون ويرزحون تحت حكم الملوك الأوربيين الطغاة والمستبدين في الشرق، كما أخذ يبتهل إلى أنْ يهدي أولئك الذين وهبهم النور والرزق ولكنهم لا يبصرون ولا يسمعون، ومن أجل الوثنيين الذين يعيشون في الجزر السحيقة، ثم ختم ابتهالاته ضارعًا إلى الله أنْ تلقى كلماته قبولًا من المستمعين، وأنْ تكون بمثابة الحب، يبدو في
الأرض الطيبة لينتج في الوقت الملائم ثمارًا كثيرة من الخير.. آمين.

وجلس المصلون، أما الصبي الذي تدور حوله هذه القصة فلم يشعر بأي متعة من هذه وإنْ احتملها، وكان احتماله على مضض.. لقد بقيَ ساكنًا طوال الوقت، ولكنه كان عازفًا عن الاستماع إلى التفصيلات، ولا عجب فقد ألم بها منذ أمد

طويل، إلا أنه كان لا يلبث أنْ يرهف سمعه كلما نطق الكاهن بجديد، إذ كان يتمتع بأُذُن حساسة تلتقط كل جديد، ولو أنّ طبيعته كانت تنفر منه، لأنه كان يعتبر كل إضافة عملًا لا ينطوي على العدالة... وفي منتصف الصلاة حطت ذبابة على ظهر المقعد المواجه له، وراحت تعذب روحه حينما حكت ذراعيها معًا في هدوء، ثم أحاطت رأسها بذراعيها وأخذت تدلكه بقوة؛ حتى لقد خيّل لتوم إنّ رأسها يكاد ينفصل عن جسدها. وبعدئذ أخذت تدلك جناحيها برجليها الخلفيتين، وهكذا مضت في عملية زينتها بهدوء عجيب، كما لو كانت مطمئنة تمامًا إلى أنها آمنة من كل سوءٍ، والحق أنها كانت آمنة فعلًا، فبرغم ما كان يشعر به توم من رغبة عارمة في الفتك بها، فإنه لم يجرؤ على ذلك، كان يؤمن بأنّ روحه ستزهق في الحال إذا أتى مثل هذا الإثم والصلاة قائمة، لذا فما أنْ اختتم الكاهن صلاته؛ حتى ثنى توم راحة يده، وراح يحركها بحذرٍ شديد إلى الأمام، وفي اللحظة التي نطق الكاهن فيها بكلمة أمين سقطت الذبابة أسيرة حرب! ولكن العمة بولي فطنت إلى ما حدث وأرغمته على إطلاق سراح الذبابة.

وبدأ الواعظ يقرأ بعض آيات من الكتاب المقدس، ثم فسرها بصوت عميق ممل، حتى لقد أحسّ كثير من الحاضرين بالنعاس.. أما توم فقد راح يعد الصفحات التي قرأها الواعظ إبان هذه المرحلة من الصلاة، وكان في استطاعته دائمًا أنْ يحدد عدد الصفحات التي يقرأها الواعظ في أثناء صلاة كل يوم أحد، ولكنه لم يكُن ليستطيع أنْ يتذكر شيئًا من محتويات هذه الصفحات! ومع ذلك شعر بشيء من الاهتمام بما قاله الواعظ في ذلك اليوم لأنه -أي الواعظ- استطاع أنْ يرسم صورة رائعة لالتئام شمل جميع الأعداء في هذا العالم في يوم القيامة، عندما يجلس الأسد والحَمَل معًا، ثم يأتي طفل صغير ليقودهما! وعلى الرغم من أنّ الصبي لم يدرك ما في هذا القول من معنى عميق، فإنّ المعنى الواضح للمبدأ من ناحية تآلف الشعوب، لم يغب عنه فتهلل وجهه وقال لنفسه إنه يتمنى أنْ يكون ذلك الطفل!

وعاد الصبي يستشعر الضيق ثانية، وذلك حينما استأنف الواعظ حديثه الجاف. في تلك اللحظة رأى توم خنفساء سوداء كبيرة، وكان أول ما فعلته هذه الخنفساء أنْ مرقت من فوق إصبعه فاقشعر جسده، وفي اللحظة التالية كانت الخنفساء تتخبط في ممشى الكنيسة، بينما وضع توم إصبعه في فمه وظلت الخنفساء ملقاة على الأرض، وقد انقلبت على ظهرها وهي تحاول عبثًا أنْ تستعيد توازنها. وراح توم يتأملها بغيظ فقد كان يريد القضاء عليها، ولكنها كانت بعيدة عنه. ولقد وجد كثير من المصلين الذين ضاقوا ذرعًا بلجاجة الواعظ وسيلة للتسلية في هذه الخنفساء، فراحوا يتأملونها بدورهم، وفي تلك اللحظة أقبل كلب ضال متسكع يبدو عليه الحزن، ويعاني من الكسل بسبب هدوء الصيف وقيظه، ومن الإعياء بسبب مضي الحياة على وتيرة واحدة، لقد كان يهفو إلى التغيير، ومِن ثَمَّ فما كادت عيناه تقعان على الحشرة؛ حتى رفع ذيله وأخذ يحركه ومضى يتأمل الخنفساء، ثم لم يلبث أنْ دار حولها وشمها من بُعدٍ، ثم دار حولها مرة ثانية، وكأنما استجمع شجاعته في تلك الفترة إذ إنه اقترب منها وشمها مرة أخرى، ثم رفع شفته وهجم عليها، ولكنه أخطأها، فقام بمحاولة ثانية فثالثة، أَوْبَد يستمتع بهذا اللون من التسلية وسرعان ما ضم فكيه على الخنفساء ومضى في تجاربه، بَيد أنه لم يلبث أنْ ضاق بها ذرعًا في النهاية، فانصرف عنها وكاد ينساها، وأخذ رأسه يهتز كأنما استولى عليه النعاس، وبعد لحظات.. بدأ ذقنه يتراخى ويهبط رويدًا رويدًا حتى لمس العدو الذي قبض على طرفه، وفي التو نبح الكلب بقوة، وحرك رأسه بعنف شديد وسقطت الخنفساء على مبعدة ياردتين، وكان سقوطها على ظهرها هذه المرة أيضًا. وابتسم كل مَن رأوا هذا المنظر، واختبأ عدد غير قليل من وجوه المصلين خلف المناديل والمراوح. أما توم فقد أحس بسعادة غامرة. وبدا الكلب كالأحمق، ومِن المحتمل أنه أحسّ بأنه كذلك، ولكنه كان يستشعر القيظ أيضًا، كما كان يتحرق إلى الانتقام، ولهذا اقترب من الخنفساء.. وبدأ هجومه عليها، وكان يثب نحوها من كل جانب، وهو يقترب منها برجليه الأماميتين بوصة في كل مرة، ويحاول أنْ ينقض عليها بأسنانه، ولكنه لم يلبث أنْ أحس بالإعياء مرة أخرى من فرط ما بذل من جهد.. فحاول أنْ يسلي نفسه بمطاردة ذبابة، ولكنه لم يجد في ذلك متعة، فانصرف عنها إلى متابعة نملة كانت تسير على الأرض، وقد جعل أنفه قريبًا منها، ولكنه سرعان ما ضاق ذرعًا بهذه المحاولة أيضًا.. فتمطى وتنهد وكان قد نسيَ الخنفساء تمامًا فجلس فوقها. وفي اللحظة التالية انطلق ينبح نباحًا متواصلًا، بينما طارت الخنفساء في ممر الكنيسة.

وأخذ الكلب يعدو حتى خرج من باب الكنيسة، أما الخنفساء فقد سقطت في حجر الكاهن الذي قذف بها من النافذة، فعاد الهدوء يشمل المصلين مرة أخرى.

في ذلك الوقت كانت وجوه جميع المصلين مختنقة من فرط ما بذلوه من جهد لكبت الضحك، وتوقف الواعظ عن الكلام، ولكنه سرعان ما استأنفه. وإنْ خلا من ذلك من الحماس السابق، ولم يجد الكاهن بدًا من الإسراع بأداء الشعائر الدينية، فلما فرغ منها تنفس الجميع الصعداء.

وعاد توم سوير إلى منزله وهو مرح جدًّا، وبدأ يعتقد ألا بأس من حضور صلاة يوم الأحد، طالما كان في الإمكان حدوث شيء من التجديد فيها!

***

الفصل السادس

توم يقابل بيكي

كان توم سوير تعسًا صباح يوم الاثنين.. ولا عجب، فقد كان يشعر بهذه التعاسة في صباح كل يوم اثنين، لأنه بداية أسبوع من العذاب البطيء في المدرسة، كان يبدأ هذا اليوم عادة وهو يتمنى لو أنه لم يحصل على إجازة، لأنه كان يشعر بأنه ذاهب للأسر، وأنّ قيودًا أثقل ستكبل يديه خلال الأسبوع الجديد.

وبقيَ توم ممددًا في فراشه، واستغرق في التفكير.. ولم يلبث أنْ خطر بباله أنه يتمنى أنْ يكون مريضًا، فبذلك يمكنه أنْ يبقى في المنزل ولا يذهب إلى المدرسة، ولاحت له فكرة؛ راح يستعرض كل جزء في جسمه، ولكنه لم يجد عضوًا منه يشكو ألمًا فأعاد الفحص مرة أخرى، وفي هذه المرة خيّل إليه أنه يستطيع أنْ يكتشف أعراض مغص، فراح يشجع هذه الأعراض وقد امتلأ بالأمل، ولكن الأعراض سرعان ما ضعفت ثم تلاشت تمامًا. فعاود التفكير. وفجأة اكتشف شيئًا؛ كانت إحدى أسنانه العلوية الأمامية غير ثابتة.. فاعتبر ذلك مرضًا خطيرًا وأوشك على البدء بالتأوه، لولا أنه تبادر إلى ذهنه أنه من المحتمل أنْ تعمد عمته إلى جذب هذه السن وخلعها، وإنّ ذلك خليق بأنْ يسبب له ألمًا شديدًا.

وسرعان ما حزم أمره على أنْ يبحث عن مرض آخر.. بَيد أنه لم يستطع أنْ يجد هذا المرض بعض الوقت، ولكنه سرعان ما تذكر أنه سمع الطبيب يتحدث عن شيء معين يضطر المريض إلى ملازمة الفراش أسبوعين، أو ثلاثة أسابيع ويتهدده بفقد إحدى أصابعه، فبادر وأخرج قدمه من أسفل الغطاء وتأمل إصبعه المتقرحة، ومع أنه لم يكُن يعرف ما هي الأعراض الملازمة لهذا المرض؛ فإنه قرر أنْ ينفذ التجربة، فتمدد على الفراش وراح يئن بصوتٍ عالٍ.

ولكن سيدني ظل مستغرقًا في نومه كأنما فقد وعيه.

وازداد أنين توم عنفًا، وتخيل أنه بدأ يشعر بألم حقيقي في إصبع قدمه..

وظل سيدني جامدًا.

وبدأ توم يلهث من فرط ما بذل من جهد.. فاستراح قليلًا، ثم استأنف الأنين بعنفٍ شديدٍ، ولكن سيدني مضى في شخيره.

وضاق توم ذرعًا فنادى سيدني، ثم هزه.. فتنبه الصبي، وعندئذ استأنف توم أنينه وتثاءب سيدني وتمطى، ثم نهض معتمدًا على مرفقيه، وراح يحدق في وجه توم بينما استمر هذا في تأوهه.

قال سيدني: توم.. توم.. ماذا يؤلمك؟

ولكن توم لم يجب، فأردف سيدني: توم.. توم.. أخبرني ماذا يؤلمك؟

وهزه بقوة، وتطلع إلى وجهه بلهفة.. فقال توم متأوهًا:

- آه.. كلا.. لا تهزني يا سيدني.

- لماذا؟ ما الأمر يا توم! يجب أنْ أنادي عمتي.

- كلا.. لا داعي لذلك، فقد تتحسن حالتي بعد قليل، لا تنادِ أحدًا.

- لكني يجب أنْ أدعوها! لا تتأوه هكذا، لأن تأوهاتك تؤلمني..

منذ متى وأنت على هذه الحال؟

- منذ ساعات.. آه! لا تهزني هكذا يا سيدني.. إنك ستقتلني.

- لماذا لم توقظني قبل الآن يا توم؟ أواه يا توم.. لا تتأوه.. لأن جسدي يقشعر كلما سمعت أنينك.. ما الأمر يا توم؟

- إنني أسامحك تمامًا يا سيدني و«تأوه»، إنني أسامح في كل ما ارتكبته في حقي.. عندما أموت...

فقاطعه سيدني بلهفة: أواه يا توم.. لن تموت.. أليس كذلك؟ كلا.. توم أوه.. ربما...

- إني أصفح عن كل إنسان يا سيدني و«تأوه» قل لهم ذلك يا سيدني.. كذلك أرجوك أنْ تهب مزلاج النافذة وقطتي ذات العين الواحدة إلى تلك الفتاة التي أتت إلى المدينة حديثًا، وقل لها...

ولكن سيدني كان قد وثب من الفراش وانطلق من الغرفة كالسهم، كان توم يتألم فعلًا الآن، جعله الخيال يتوهم أنه مريض حقًّا فاكتسبت أناته طابع الحقيقة.

وهبط سيدني الدرج وثبًا وصاح:

أواه.. يا عمتي بولي تعالي على عجل! إنّ توم يموت!

- يموت!

- نعم يا عمتي.. لا تتلكأي.. تعالي سريعًا!

- هذا سخف، إنني لا أصدقك!

ولكنها هرولت إلى الطابق العلوي وسيدني وماري في أعقابها. وعندما وقفت أمام الفراش شهقت وصاحت: ماذا دهاك يا توم!

- أواه يا عمتي.. إنني...

- ماذا يؤلمك أيها الطفل؟

- أواه يا عمتي.. إنني أشعر بأنّ إصبع قدمي المتقرحة قد ماتت! وتهاوت السيدة العجوز على أحد المقاعد وانفجرت ضاحكة، ثم انفجرت باكية، ثم اختلط ضحكها ببكائها. وهكذا استطاعت أنْ تتمالك رباطة جأشها.

وقالت: لقد أفزعتني يا توم.. والآن، كف عن هذا الهذيان، واهبط من الفراش.

واختفت الأنات وتلاشى الألم، وتظاهر الصبي بشيء من الغباء، ثم قال:

- أواه يا عمتي.. لقد خيّل إليَّ إن إصبع قدمي ماتت، ثم إنّ ألمها لا يطاق، حتى لقد أنساني ألم أسناني.

- أسنانك! وماذا لحق بأسنانك؟

وبدأ توم يتأوه..

- أوه! كفى.. لا تستأنف التأوه.. هيا، افتح فمك.. حسنًا، إنّ سنك غير ثابتة ولكنك لن تموت بسببها.. اذهبي يا ماري وأحضري خيطًا من الحرير وقطعة فحم مشتعلة من المطبخ، فقال توم: أرجوكِ ألا تخلعيها يا عمتي.. إنها لم تَعُد تؤلمني أرجوكِ يا عمتي.. إنني لا أريد البقاء في المنزل والتخلف عن المدرسة.

- أوه! أحقًا؟ إذن كانت كل هذه الجلبة لأنك ظننت إنك تستطيع البقاء بالمنزل والذهاب لصيد السمك؟ توم.. إنني أحبك أشد الحب، ولكن يبدو أنك تجرب كل وسيلة لكي تحطم قلبي العجوز بما تأتيه من فضائح.

وفي تلك الأثناء كانت أدوات خلع السن قد أُعِدَت، فربطت العجوز السن بأحد طرفي الخيط الحريري وربطت الطرف الآخر بعمود الفراش. وقربت قطعة الفحم المشتعلة فجأة من وجه توم حتى كادت تلمسه، وسرعان ما كانت السن تتأرجح بجوار السرير.

إنّ لجميع المحن مزاياها، فما كاد توم يتناول طعام الإفطار ويغادر المنزل في طريقه إلى المدرسة، حتى أصبح موضع حسد كل صبي قابله بسبب تلك الفجوة التي خلفها خلع السن في صف أسنانه العلوي، والتي كانت تمكنه من أنْ يبصق بطريقة مدهشة! وسرعان ما أحاط به عدد كبير من الصبية الذين استهواهم هذا المنظر الجديد، بعد أنْ انصرفوا من حول صبي آخر كان قد جُرِحَت إصبعه، وهكذا وجد الصبي الأخير نفسه فجأة بغير متفرجين.. فأحس بالضيق، وقال باحتقار مفتعل: إنّ البصق بالطريقة التي يتبعها توم سوير ليس شيئًا يستحق الاهتمام!

وبعد قليل التقى توم بصبي القرية الرشيد «هاكلبري فين»، وهو ابن رجل سكير، وكانت جميع الأمهات في المدينة يكرهن هاكلبري؛ لأنه كان كسولًا خارجًا على القانون مبتذلًا شريدًا - ولأن جميع أطفالهن كانوا يعجبون به يتشوقهم رفقته المحرمة، كما كانوا يتمنون أنْ يكونوا مثله! ولقد كان توم مثل الآخرين يحسد هاكلبري على تشرده هذا، ولكن عمته بولي كانت تحرم عليه أنْ يلعب معه، ولهذا كان يلعب معه كلما واتته الفرصة. وكان هاكلبري يرتدي دائمًا ثياب الرجال الكبار المهلهلة التي كثرت بها الرتوق، فضلًا عن اتساعها عليه. أما قبعته فكانت حطام قبعة ضخمة، في حين كانت السترة تكاد تصل إلى أخمص قدميه، ولم يكُن يرفع سرواله ويثبته حول خصره غير جانب واحد من «الحمالة»، بينما كانت قاعدة السروال تتدلى إلى منتصف ساقيه، مما جعل أطرافه السفلية تمتزج بالقاذورات بسبب طول السروال!

كان هاكلبري يتجول حيثما يشاء، ينام فوق عتبات أبواب المنازل إذا كان الطقس معتدلًا، وفي البراميل الكبيرة إذا

أمطرت السماء.. ولم يكُن مضطرًا للذهاب إلى الكنيسة أو إلى المدرسة، كما لم يكُن مضطرًا لأن ينادي أحدًا بـ «يا سيدي»، أو يطيع أحدًا. وكان في استطاعته أنْ يذهب للسباحة وصيد السمك أينما يشاء ووقتما يريد، وأنْ يقضي الوقت في ذلك اللهو الذي يروقه، ولم يكُن أحد ليجرؤ على تحديه للقتال، كما كان يستطيع أنْ يسهر إلى أي ساعة من ساعات الليل. وكان هو أول صبي يمشي حافي القدمين في الربيع، وآخر من يرتدي الحذاء عندما يقبل الخريف. ولم يكُن يغسل وجهه قط أو يرتدي ثيابًا نظيفة كما يجيد الشتائم والسباب.. صفوة القول؛ كان هذا الصبي يملك كل ما مِن شأنه أنْ يجعل الحياة ثمينة، أو هذا على الأقل ما كان يظنه كل صبي في قرية «سانت بطرسبرج!».

نادى توم هذا الطريد قائلًا:

- أهذا أنت يا هاكلبري؟

- أهلًا.. كيف حالك يا توم!

- ما هذا الذي معك؟

- قطة ميتة.

- دعني أراها يا هاك.. يا إلهي! إنها متصلبة تمامًا.. مِن أين حصلت عليها؟

- اشتريتها من أحد الصبيان.

- ماذا أعطيت له مقابلها؟

- بطاقة زرقاء ومثانة حصلت عليها من المجزر!

- ومِن أين حصلت على البطاقة الزرقاء؟

- اشتريتها من «بن روجرز» منذ أسبوعين مقابل مضرب طوق.

- أخبرني يا هاك.. ما فائدة القطة الميتة؟

- فائدتها إنها تشفي السنط!

- أحقًا؟ إنني أعرف طريقة أحسن من ذلك..

- أراهن أنها ليست أحسن.. لكن ما هي؟

- الماء المتخلف عن المطر.

- ماء المطر! هذا سخف..

- لماذا؟ هل سبق لك أنْ جربته؟

- كلا.. ولكن «بوب تانر» جربه.

- مَن قال لك ذلك؟

- هو قال لچيف تاتشر، وچيف قال لچوني بيكر، وچوني قال لچيم هوليس، وچيم قال لبن روجرز، وبن قال لصبي زنجي، والزنجي قال لي.

- حسنًا، إنهم جميعًا كاذبون لكن قُل لي كيف استطاع بوب تانر أنْ يفعل ذلك يا هاك؟

- لقد غمس يده في جذع شجرة مجوف متآكل حيث تجمع ماء المطر.

- أكان ذلك نهارًا؟

- بالتأكيد.

- وهل كان وجهه نحو الجذع؟

- هذا ما أظنه.

- وهل نطق بشيء؟

- عِلم ذلك عند ربي لكني لا أعتقد أنه قال شيئًا.

- يا للسخف! أليس من خطل الرأي أنْ تقول إنّ في الإمكان شفاء السنط بالماء المتخلف من المطر؟ إنّ ذلك غير معقول! إنهم يقولون إنه يجب عليك أنْ تذهب إلى قلب الغابة بمفردك حيثما تعرف أنّ هناك جذع شجرة مملوء بماء المطر. وعندما ينتصف الليل تلصق ظهرك بجذع الشجرة وتدخل يديك فيه، وتردد بيتين معينين من الشعر. وبعدئذ تمشي إحدى عشرة خطوة بسرعة، وعينيك مغلقتين وتدور حول نفسك ثلاث مراتٍ، ثم تعود إلى منزلك بغير أنْ تكلم أحدًا، لأنك إذا تكلمت فقد السحر أثره!

- حسنًا، يبدو أنها طريقة لا بأس بها، ولكن ذلك لم يكُن هو ما فعله بوب تانر.

- نعم يا سيدي، تستطيع أنْ تراهن على أنه لم يفعل ذلك؛ لأن جسمه مملوء بالسنط، ولا شك أنه ما كان ليتردد في التخلص منه إذا عرف كيف يستخدم الماء المتخلف عن المطر، لقد تخلصت من السنط الذي يظهر على يدي بهذه الطريقة يا هاك، إنني أكثر من اللعب بالضفادع لهذا فإنّ يدي كثيرًا ما تصابان بالسنط وفي بعض الأحيان أتخلص منه بحبة مِن الفول.

نعم، إنّ الفول مفيد في مثل هذه الأحوال، فقد جربته.

- أحقًا! ما هي الطريقة التي تتبعها.

- افلق حبة الفول، ثم اقطع السنطة حتى يسيل منها دم قليل، وبعدئذ لطخ الفلقتين بالدم، ثم احفر حفرة في تقاطع طريقين بشرط أنْ يكون ذلك منتصف الليل، وفي الظلام، وادفن الفلقة فيها، وبعدئذ أحرِق ما تبقى من حبة الفول. إنّ ما يحدث هو أنّ فلقة حبة الفول الملوثة بالدم، ستحاول أن تبحث عن زميلتها الأخرى، وهي كلما تفعل ذلك تساعد الدم على طرد السنطة وسرعان ما تسقط.

- نعم، هذا صحيح يا هاك. وإنه ليحسن أنْ تقول وأنت تدفن فلقة حبة الفول: «انزلي يا حبة الفول.. اسقطي أيتها السنطة.. لا تعودي لمضايقتي مرة أخرى»، تلك هي الطريقة التي يتبعها چو هاربر، ولكن قُل لي كيف تتخلص من السنط بالقطط الميتة؟

- هذا يستلزم أنْ تذهب ومعك القطة الميتة إلى المقابر، في منتصف الليل بشرط أنْ يكون شخص شرير قد دُفِنَ في اليوم السابق، وعندما ينتصف الليل سيأتيك شيطان وربما اثنان أو ثلاثة، ولكنك لن تستطيع أنْ تراهم وإنما قد تسمع فقط شيئًا يشبه قصف الريح، وربما تسمع الشياطين يتكلمون، وعندما يتأهبون للمضي بجثة هذا الشرير؛ يجب عليك أنْ تقذف بالقطة في أثرهم وأنت تقول: «يا شيطان اتبع الجثة، ويا قطة اتبعي الشيطان، ويا سنط اتبع القطة فإنني لست بحاجة إليك»، فإنّ ذلك خليق بالقضاء على أي سنطة.

- يخيل إليَّ إنها طريقة لا بأس بها.. هل سبق لك أنْ جربتها يا هاك؟

- كلا، ولكني سمعت هذه القصة من الأم العجوز «هوبكنز».

- حسنًا، أظن أنّ الأمر كذلك، فقد سمعت الناس يقولون إنها الساحرة.

- أنا أعلم أنها كذلك، لقد سحرت أبي فإن أبي يقول ذلك.. لقد جاء إلى المنزل وقال إنها كانت تسحره، فالتقط صخرة وقذفها بها، ولولا أنها استطاعت أنْ تتجنبها لأصابتها، مَهما يكُن.. لقد حدث له أمر غريب في تلك الليلة. فقد سقط في إحدى الحظائر وبقيَ ممددًا فيها وهو مخمور كما كسر ذراعه.

- هذا أمر مخيف، لكن كيف عرف إنها كانت تسحره؟

- إنّ أبي يفسر ذلك بسهولة.. فهو يقول إنّ الساحر إذا استمر يحدق النظر فيك وقتًا طويلًا فإنه يسحرك وبخاصة إذا كان يتمتم؛ إذ إنّ هذه التمتمة عبارة عن صلات ذات تأثير عكسي.

- أخبرني يا هاك، متى ستقوم بتجربة القطة الميتة؟

- الليلة، فأكبر ظني أنّ الشياطين ستسعى الليلة في طلب «هوس وليامز»!

- ولكنهم دفنوه يوم السبت، فهلا سعت الشياطين إليه ليلة الأحد؟

- يا الله! إنك ساذج يا توم. كيف يمكن أنْ تحدث تعاويذهم أثرها حتى منتصف الليل؟ ثم لا تنسَ إنّ الشياطين لا تستطيع أنْ تعمل يوم الأحد فيما أعتقد.

- إنّ ذلك لم يخطر ببالي إطلاقًا، هل تدعني أذهب معك؟

- بالطبع، إذا لم تكُن خائفًا.

- خائف؟! هذا أمر بعيد الاحتمال.. لكن هل ستموء تحت نافذتي ليلًا لكي تنبهني إلى أنه قد حان وقت الذهاب إلى المقابر؟

- نعم، وعليك أنْ تموء أيضًا إذا واتتك الفرصة.. لقد تركتني أموء في المرة السابقة إلى أنْ بدأ «هايز» العجوز يقذفني بالأحجار وهو يقول: لعنة الله على هذا القط، فاضطررت إلى أنْ ألقي حجرًا عليه - لكن إياك أنْ تذكر ذلك لأحد.

- لن أفعل، إنني لم أستطع أنْ أموء في تلك الليلة لأن عمتي كانت تراقبني عن كثب ولكني سأموء هذه المرة قُل لي ما هذا؟

- إنها قرادة.

- مِن أين حصلت عليها؟

- مِن الغابة.

- ماذا تأخذ مقابلها؟

- لا أعلم، ولكني أريد أنْ أبيعها.

- حسنًا، إنها حشرة صغيرة على كل حال.

- أوه! إنّ في استطاعة أي شخص أنْ يحصل على ما يشاء من هذه الحشرات، ولكني قانع بهذه القرادة على كل حال.

- مهما يكُن.. هناك قراد كثير.. وإني لمستطيع أنْ أحصل على ألف واحدة منها إنْ شئت.

- إذن لماذا لا تحاول؟ أنت تعلم أنه ليس هناك قراد الآن؛ إذ إنّ موسمه لم يحن بعد فيما أظن. لقد كانت هذه القرادة أول واحدة أراها هذا العام.

- أصغِ إليَّ يا هاك، سأعطيك سنتي مقابلها.

- دعني أراها.

وأخرج توم لفافة صغيرة من الورق، راح يحلها بعناية. وتأمل هاكلبري السن بإعجاب، كان الإغراء قويًّا.. وأخيرًا قال:

- هل هي سن حقيقية؟

- ورفع توم شفته العلوية فكشف عن الفجوة.

قال هاكلبري: حسنًا، إنني موافق على الصفقة.

ووضع توم القرادة بداخل علبة كبسول، وافترق الصبيان، وكل منهما يشعر أنه أثرى من ذي قبل!

وعندما وصل توم إلى مبنى المدرس الصغير المنعزل، كان يمشي بخطواتٍ واسعة، شأن الشخص الأمين الذي يلجأ إلى أقصى سرعة مستطاعة حتى يستطيع أنْ يصل إلى غايته في الموعد المحدد، وعلَّق قبعته على المشجب، وجلس فوق مقعده بنشاط أشبه بنشاط رجال الأعمال، وكان المعلم في تلك اللحظة مستسلمًا للنعاس اللطيف وهو جالس فوق عرشه الضخم المرتفع، ولكنه لم يلبث أنْ تنبه عند دخول توم وما أحدثه من ضوضاء حينما جلس.

هتف المعلم: «توماس سوير»!

كان توم يعلم أنه يجب عليه أنْ يتوقع المتاعب كلما نطق المعلم باسمه كاملًا.

أجاب: نعم يا سيدي.

- تعال هنا، والآن أخبرني يا صبي لماذا جئت متأخرًا كالعادة؟

كان توم يوشك على قول أكذوبة يبرر بها تأخيره، ولكنه عدل عن ذلك حينما رأى خصلتين طويلتين من الشعر الذهبي تتدليان فوق ظهر فتاة، جعلته كهرباء الحب يعرف مَن هي صاحبتهما، كما رأى بجوار صاحبة هاتين الضفيرتين مقعدًا شاغرًا.

أجاب بلا إبطاء:

- لقد كنت أتحدث مع هاكلبري فين.

وجمد الدم في عروق المعلم وراح يحدق في وجه توم مبهوتًا، وتلاشى في الحال ذلك الطنين الذي يصدر عن التلاميذ وهم يستذكرون درسهم، وراح جميع مَن في القاعة يتساءلون: هل فقد توم عقله حتى يدلي بهذا التصريح الخطير؟!

وقال المعلم: ماذا! ماذا تقول؟

- لقد كنت أتحدث مع هاكلبري فين!

لم يبقَ شك في مغزى كلمات توم.. فقال المعلم:

- إنّ هذا أخطر اعتراف سمعته في حياتي يا توم سوير.. وليست هناك عقوبة يمكن أنْ تتلاءم مع هذا الإثم الكبير، اخلع سترتك!

وظل المعلم يضرب الصبي إلى أنْ كَلَّ ساعده، ثم قال له آمرًا:

- والآن، اذهب اجلس مع البنات يا سيدي، وليكن لك في ذلك عِبرة.

ورغم ما كان يبديه زملاؤه من استنكار لمسلكه، فإنّ توم لم يبالِ بذلك كثيرًا إزاء ما كان يملأ قلبه من سعادة أتاحها له حظه الحسن، وما كاد يجلس فوق حافة المقعد حتى تحركت الفتاة مبتعدة عنه، وهي تحرك رأسها إلى الوراء، وبدأت الهمسات والغمزات تسري في جميع أنحاء الفصل، ولكن توم جلس جامدًا في مكانه وقد اعتمد بذراعيه فوق الدرج الطويل المنخفض الموجود أمامه، وهو يتظاهر بالقراءة في كتابه.

وبعد قليل انصرف زملاؤه عن الاهتمام بأمره وارتفع طنين الاستذكار المألوف مرة أخرى. وعندئذ بدأ توم يختلس النظر إلى الفتاة ولم يخفَ ذلك عليها، فقلبت له شفتيها وأدارت رأسها عنه قرابة دقيقة. وعندما حولته نحوه بحذر؛ وجدت أمامها خوخة، فدفعتها بعيدًا عنها، ولكن توم أعادها برفق إلى مكانها الأول فدفعتها بعيدًا، ولكن بنفورٍ أقل، فأعادها توم إلى مكانها بصبرٍ، فتركتها حيث هي. وعندئذ كتب توم على لوحة؛ «أرجوكِ أنْ تأخذيها، فإن معي مزيدًا من الخوخ». وتطلعت الفتاة إلى الكلمات، ولكنها لم تأتِ بأي حركة. وبدأ الصبي يرسم شيئًا فوق لوحه وهو يخفيه بيده اليسرى. وقد عزفت الفتاة عن إبداء أي اهتمام بما يرسمه أول الأمر، ولكن حب الاستطلاع تغلب عليها، وإنْ بدأ في حركات لا تكاد تُلْحَظ.. واستمر الصبي في عمله دُون أنْ يفطن إلى الحركات، كما بذلت الفتاة محاولة لترى الرسم، ولكن توم لم يبدِ أي حركة تدل على أنه لاحظ محاولتها. وأخيرًا استسلمت للإغراء وقالت بصوتٍ هامس متردد:

- دعني أراه.

وكشف توم عن رسم كروكي لمنزلٍ، ينبعث من مدخنته خط متعرج مِن الدخان. وعندئذ تركز اهتمام الفتاة في الرسم ونسيت كل شيء، فعندما انتهى توم مِن عمله حدقت فيه الفتاة وهمست:

إنه بديع.. ارسم رجلًا.

ورسم الفنان الصغير رجلًا في الساحة الأمامية، وتأملته الفتاة لحظة، ثم همست:

- إنه رجل جميل.. والآن ارسمني وأنا قادمة.

ورسم توم فتاة جميلة بيدها مروحة، فقالت الفتاة:

- إنه رسم مدهش جدًّا، كم أود لو عرفت كيف أرسم.

- فهمس توم: إنّ ذلك أمر سهل، سأعلمك.

- أوه! أحقًا؟ ومتى؟

- عند الظهر، هل تذهبين إلى المنزل لتناول طعام الغداء؟

- سأبقى إذا بقيت.

- حسنًا.. إنها فكرة عظيمة، ما اسمك؟

- بيكي تاتشر، وما اسمك؟ أوه.. إنني أعرفه «توماس سوير».

- هذا هو الاسم الذي ينادونني به، ولكنهم يدعونني توم فقط عندما يدللونني. أما أنتِ فستنادينني باسم «توم» أليس كذلك؟

- نعم.

وبدأ توم يكتب شيئًا على لوحه وهو يخفي الكلمات عن الفتاة.

ولكنها توسلت إليه أنْ يدعها تقرأ ما يكتب. فقال توم:

- أوه! ليس ما أكتبه شيئًا مذكورًا.

- بل إنه لا بُد أنْ يكون شيئًا ذا بال.

- كلا، لا أظنك راغبة حقًا في رؤية ما أكتب.

- نعم، إنني راغبة في ذلك.. أرجوك أنْ تدعني أقرأ.

- وهل ستفضحينني؟

- كلا، لن أفعل.. ثق من ذلك.

- لن تقولي لأحد طالما أنتِ على قيد الحياة؟

- كلا، لن أقول لأحد.. دعني أقرأ ما كتبت.

- أوه! إنك لا تريدين أنْ تقرأيه.

- ما دُمت تعاملني على هذا المنوال، فسأرى.

ووضعت يدها الصغيرة فوق يده، وأعقب ذلك شيء من الهرج. وكان توم يتظاهر بأنه يقاومها بقوة، ولكنه ترك يده تنزلق شيئًا فشيئًا حتى كشف عن الكلمة التالية: «أحبك».

فقالت وهي تضربه على يده: أوه، يا لك من شرير.

ولكن وجهها تخضَّب بحمرة الخجل، وبدت عليها علامات السرور، وفي تلك اللحظة الحاسمة؛ أحس توم بيدٍ تطبق على أذنه، وتجذبه بقوة، فاضطر إلى النهوض. وعلى ذلك النحو ظل المعلم يجذبه حتى أجلسه على مقعده بينما انفجر التلاميذ يضحكون ويتغامزون. وظل المعلم يتأمل توم بنظرات يتطاير منها شرر الغضب عدة لحظات، ثم استدار ومضى عنه ليجلس فوق عرشه المرتفع دُون أنْ ينطق بكلمة واحدة. ورغم أنّ أُذن توم كانت تؤلمه أشد الألم؛ فإنه كان يشعر بسعادة غامرة.

وعندما عادت الأمور إلى نصابها، بذل توم جهدًا صادقًا ليستذكر درسه، ولكن الانفعال الذي استبد به كان شديدًا فلم يستطع تركيز انتباهه، فلما كانت حصة المطالعة أكثر من الخطأ في النطق. وعندما جاءت حصة الجغرافيا قلب البحيرات إلى جبال، والجبال إلى أنهار، والأنهار إلى قارات، حتى عمَّت الفوضى الفصل من جديد. وفي حصة الهجاء راح المعلم يحقره بعبارات لاذعة وحيثما ضاق به ذرعًا أوقفه أمام التلاميذ، وانتزع منه ميدالية التفوق التي ظل يرتديها شهورًا طويلة منذ أنْ حصل على نسخة من الإنجيل زورًا وبهتانًا.

***

الفصل السابع

مطاردة وفشل

كان توم كلما بذل جهدًا لتركيز اهتمامه في الكتاب الموضوع أمامه؛ ازدادت أفكاره شرودًا.

لذلك فقد اضطر أخيرًا إلى التخلي عن المحاولة وتنهد وتثاءب، وقد خيّل إليه أنّ فسحة الظهر لن تحين، كان الهواء راكدًا تمامًا، فلم تكُن هناك نسمة تخفف من وطأة ذلك القيظ الشديد، كما كان يومًا يخيّم عليه الخمول التام بشكل أنهك الأعصاب وجلب النعاس إلى الجفون. وهكذا كانت همهمة التلاميذ الخمسة والعشرين الموجودين في الفصل هي الصوت الوحيد الذي يشعر الإنسان بأنّ هناك حياة، رغم أنّ هذه الهمهمة كانت أشبه بطنين النحل. وعلى مبعدة كانت تلال «كارديف هيل» ترتفع بجوانبها العالية المكسوة بالخضرة، وقد انعكست عليها أشعة الشمس مُكْسبةً إياها منظرًا رائعًا خلابًا، بينما راح عدد قليل من الطيور يسبح في الفضاء وهو يرفرف بأجنحته في كسل، ولم يكُن يُرَى في المنطقة كلها أحياء غير بضعِ بقراتٍ مستسلماتٍ للنوم بدورها، وأحس توم ببطء في مرور الوقت، كان أشد ما يكون لهفة على التحرر من قيود المدرسة، أو أنْ يجد ما يفعله ليشغل به الوقت الباقي على مجيء الفسحة. ومِن ثَمَّ فقد وضع يده في جيبه باحثًا عن شيء يسليه، ولم يلبث أنْ تهلل وجهه ابتهاجًا، وأخرج يده وقد أغلقها على الكبسول، وأزاح الغطاء، ثم أمسك بالقرادة الموجودة بداخل العلبة ووضعها فوق الدرج الطويل الأملس. ويبدو أنّ الحشرة أحست بشيء غير قليل من الشكر لإطلاق سراحها، ولكنها لم تتمتع بحريتها طويلًا، إذ ما إنْ بدأت تنطلق حسبما تريد، حتى أعادها توم إلى حيث وَضَعها أول الأمر مستعينًا في ذلك بطرف دبوس صغير، وبذلك أرغم الحشرة على أنْ تسلك اتجاهًا جديدًا.

كان الصديق الصدوق لتوم يجلس بجواره، وكان يعاني مثله من شدة الحر، ولكنه ما كاد يرى القرادة حتى ابتهج، وأيقن أنه وجد أخيرًا الوسيلة الكفيلة بقتل الوقت، ريثما يدق الناقوس مؤذنًا بانتهاء الدراسة، كان هذا الصديق هو «چو هاربر»، ولقد كانت صداقة الصبيين أقوى من صلة القربى، ولهذا ندر أنْ يفترقا في السراء والضراء. وأخذ چو دبوسًا من ياقة سترته وبدأ يعاون صديقه في تدريب الحشرة السخيفة، وسرعان ما أصبحت هذه التسلية مثار اهتمامهما الشديد. وبعد قليل قال توم: «إننا ننافس أحدنا الآخر في متابعة الحشرة مما يؤدي إلى عدم استمتاعنا باللعبة كما ينبغي»، ثم جذب توم لوح چو ورسم فوق سطحه خطًا قسم اللوح إلى مستطيلين.

وقال: استمع إليَّ، طالما كانت القرادة في المستطيل المواجه لك؛ فإنك حُر في توجيهها كيفما تشاء، أما إذا تركتها تَعْبُر الخط لتدخل في مستطيلي فعليك أنْ تتركها وشأنها، وما دمت أستطيع منعها من تخطي الحد الفاصل بيننا.

- حسنًا، فلنبدأ.

وبعد قليل استطاعت الحشرة أنْ تفلت من توم، فأخذ چو يطاردها في منطقته إلى أنْ تمكنت أخيرًا من عبور الخط مرة أخرى. ولقد حدث هذا التغيير في القاعدة مرات عديدة. وهكذا بينما كان أحد الصبيين منصرفًا تمامًا إلى ملاحقة الحشرة كيلا تفلت منه، كان الصبي الثاني يراقبها عن كثب، وقد انحنى الاثنان برأسيهما فوق اللوح وانصرفا عن كل شيء آخر في الوجود. وأخيرًا.. بدا أنّ الحظ قد حالف چو فبقيت الحشرة في منطقته.. ورغم المجهود العنيف الذي بذلته القرادة للفرار بسلوك هذا السبيل، أو ذاك، فقد أخفقت تمامًا وكأنما أثار ذلك اهتياجها مثلما أثار انفعال الصبيين؛ إذ راحت تندفع هنا وهناك بجنون، وفي كل محاولة كان توم يتحفز لاستئناف المطاردة، ولكن چو نجح في التضييق على الحشرة وإرغامها على البقاء في منطقته. وأخيرًا، لم يستطع توم احتمال الانتظار، فقد كان الإغراء عنيفًا أشد ما يكون العنف، ومِن ثَمَّ، فقد مد يده ليشترك مع چو في المطاردة فاستولى الغضب على چو لحظة وقال:

- توم، دعها وشأنها.

- لقد أردت أنْ أبعث فيها قليلًا من النشاط يا چو.

- كلا يا سيدي، ليس ذلك من العدالة في شيء دعها وشأنها.

- قلت لك: إنني أبعث فيها بعض النشاط.

- قلت لك: اتركها وشأنها.

- كلا، لن أفعل!

- بل ستفعل إنها في منطقتي.

- أصغ إليَّ يا چو هاربر، قرادة مَن هذه؟

- لست أبالي مَن يكون صاحبها، إنها في منطقتي الآن، فعليك أنْ تمسك عن لمسها.

- حسنًا، إنني لن أستجيب لقولك.. لأنها ملكي، وسأفعل بها ما أشاء أو أموت!

وأحس توم بشيء ثقيل يسقط فوق كتفه كما أحس چو بالشيء نفسه، ومضت دقيقتان قبل أنْ يتلاشى الغبار الذي تناثر من سترتي الصبيين بسبب اللطمتين اللتين هوت بهما يدا المعلم على كتفيهما. أما باقي التلاميذ، فراحوا يراقبون هذا المنظر الفريد باهتمامٍ شديدٍ. لقد كان الصبيان توم وچو مستغرقين تمامًا في لعبهما ومناقشتهما؛ حتى أنهما لم ينتبها إلى ذلك الصمت الرهيب الذي ساد الفصل قبل أنْ يهبط المعلم من فوق عرشه، ويتقدم منهما على أطراف أصابعه، ثم يقف خلفهما فترة يشاهد خلالها ما كانا يفعلان، ثم يتدخل لإنهاء الموقف بشكل حاسم!

وعندما حان موعد انصراف المدرسة ظُهرًا بادر توم بالذهاب إلى بيكي تاتشر وهمس في أذنها:

- ارتدي قبعتك وتظاهري بأنك منصرفة إلى المنزل، وعندما تصلين إلى ناصية الطريق، انسحبي سرًا من بين زميلاتك، واسلكي الممر الجانبي، ثم عودي ثانية. أما أنا فسأمضي في الاتجاه المضاد ثم أعود أدراجي إلى هنا.

وهكذا سارت الفتاة مع مجموعة من التلميذات، بينما سار توم مع بعض التلاميذ. وبعد قليل التقى الاثنان في الطريق الجانبي، وكرا عائدين إلى مبنى المدرسة دُون أنْ يلتقيا بأحد، فقد انصرف كل من كان بها. وجلسا معًا، وقد وضعا لوحًا أمامهما، وقدم توم لصديقته بيكي قطعة من الطباشير، وأمسك يدها ليرشدها، وبعد لحظات كانت قد رسمت منظرًا آخر مدهشًا للمنزل الذي رسمه توم في الصباح. وعندما بدأ اهتمامها بالفن يضمحل؛ انصرف الاثنان للحديث.

وكان توم يشعر بسعادة غامرة، سألها:

- هل تحبين الفئران؟

- كلا، إنني أكرههم.

- وأنا أيضًا أكره الجرذان الحية، ولكن أحب الفئران الميتة التي نستخدمها في اللعب، فنربط إحدى قدميها بخيط ونديرها في الهواء فوق رؤوسنا.

- مهما يكُن، إنني لا أهتم كثيرًا بالفئران، ولكني أحب اللبان.

- أوه، أظنك على حق، بودي لو كان معي شيء منه.

- أحقًا؟ إنّ معي قليلًا منه، وسأجعلك تمضغه عدة دقائق، لكن يجب عليك أنْ تعيده إليَّ.

وهكذا تبادلا مضغ قطعة اللبان وهما يؤرجحان أرجلهما ويشعران بفيض من السعادة.

سألها توم: هل ذهبتِ إلى السيرك في أحد الأيام؟

- نعم، وسيصحبني أبي إليه مرة عمًا قريب إذا ظللت فتاة عاقلة.. هكذا قال أبي!

- أما أنا فقد ذهبت إلى السيرك ثلاث أو أربع مراتٍ، وربما أكثر، ليس هناك تشابه بين الكنيسة وبينه، السيرك يظل ممتلئًا بالحركة طوال الوقت، ولسوف أصبح بهلوانًا عندما أصبح رجلًا.

- أوه! أحقًا! هذا جميل، فإنّ جميع البهلوانات يتمتعون بمظهر جذاب في ثيابهم المزركشة.

- نعم، إنهم كذلك كما أنهم يحصلون على نقود كثيرة - فإنّ «بن روجرز» يقول إنّ أكثرهم يحصلون على دولارٍ في اليوم، أخبريني يا بيكي، ألم يسبق لكِ أنْ خطبت؟

- ما معنى ذلك؟

- أعني خطبت توطئة للزواج.

- كلا.

- وهل تحبين ذلك؟

- أظن ذلك، لا أعلم.. ماذا تشبه الخطوبة؟

- تشبه؟ إنها لا تشبه شيئًا، يكفي أنْ تقولي لصبي أنك لن تُقبِّلي أحدًا غيره مطلقًا، مطلقًا، مطلقًا، ثم تقبلان بعضكما، هذا كل شيء.. إنّ في استطاعة أي شخص أنْ يفعل ذلك.

- يقبّل! ولماذا التقبيل؟

- حسنًا، ذلك لأن.. لأن - حسنًا، إنهم يفعلون ذلك دائمًا.

- كل إنسان؟

- نعم، كل إنسانٍ يحب إنسانًا آخر.. هل تذكرين ما كتبته فوق اللوح؟

- نعم، نعم.

- ماذا كان؟

- لن أقوله لك.

- إذن هل أقوله أنا لك؟

- نعم، نعم.. ولكن في وقت آخر.

- كلا، بل الآن.

- كلا، ليس الآن.. غدًا.

- أوه، الآن.. الآن.. أرجوكِ يا بيكي.. سأهمس بها.. سأهمس بها بصوت خافت جدًّا.

فبدا التردد على بيكي، واعتبر توم سكوتها دليلًا على القبول. فهمس بالكلمة في صوتٍ رقيقٍ جدًّا بعد أنْ قرَّب شفتيه إلى أذنيها ثم أضاف:

- والآن اهمسي في أذني بالكلمة نفسها.

فتمنعت لحظة ثم قالت: أدر رأسك بحيث لا تستطيع أنْ ترى وجهي، وعندئذ سأنطق بها، ولكن إياك أنْ تخبر أحدًا بذلك، أليس كذلك يا توم؟ إنك لن تفعل.

- كلا، بالطبع لن أقول لأحد.. والآن هيا يا بيكي..

وأدار وجهه بعيدًا، فمالت فوقه بوجل حتى لفحت أنفاسها خصلات شعره، وهمست:

- أحب.. أحبك.

ثم وثبت واقفة وراحت تعدو حول المقاعد والأدراج وتوم يلاحقها، وأخيرًا لاذت بأحد أركان الغرفة وقد غطت وجهها بميدعتها «المريلة» البيضاء الصغيرة، فأحاط توم عنقها بذراعيه وقال بضراعة:

- لقد انتهى كل شيء الآن يا بيكي ولم يبقَ غير القبلة فلا تخافي منها فإنها ليست شيئًا مذكورًا! أرجوكِ يا بيكي..

وراح يجذب المريلة وذراعيها. وبعد قليل بدأت تستسلم، فسقط ذراعاها إلى جانبيها وبدا وجهها شديد التوهج من فرط ما ناضلت، وقبَّل توم شفتيها الحمراوين وقال:

- أما وقد انتهى كل شيء الآن يا بيكي فيجب عليكِ أنْ تعلمي أنه مِن الآن لا يجوز لك أنْ تحبي أحدًا غيري، وألا تتزوجي أحدًا غيري، مطلقًا.. وإلى الأبد، فهل ستفعلين؟

- نعم، لن أحب أحدًا غيرك يا توم.. ولن أتزوج أحدًا غيرك.. وأنت أيضًا لن تتزوج أي فتاة غيري.

- بالتأكيد، بالطبع.. فإنّ هذا هو واجبي الآن، وعليك منذ الآن أنْ تسيري معي عند حضورك إلى المدرسة وانصرافك منها -بشرط ألا يرانا أحد- وعليك أيضًا أنْ تختاريني شريكًا، وعليَّ أنْ أختارك شريكة. تلك هي طباع كل مخطوبين!

- هذا شيء جميل جدًّا، إنني لم أسمع به من قبل.

- أوه! إنّ حياتنا ستصبح شديدة المرح والبهجة منذ الآن، إنني و«آمي لورنس»...

واتسعت حدقتا الفتاة في تلك اللحظة فأدرك توم إنه ارتكب خطأً فاحشًا فأمسك لسانه، ولكن بعد فوات الأوان.

- أوه يا توم؟ إذن فأنا لست أول من خطبتها؟

وانفجرت باكية.. فقال توم: لا تبكي يا بيكي إنني لم أَعُد أهتم بها إطلاقًا.

- بل تهتم بها.. أنت تعرف أنك تهتم بها.

وحاول توم أنْ يحيط عنقها بذراعيه، ولكنها دفعته بعيدًا عنها وأدارت وجهها إلى الجدار، ثم استمرت في نشيجها، وحاول توم مرة أخرى أنْ يسترضيها وهو يخاطبها بكلمات لطيفة، ولكنها نفرت منه ثانية؛ وعندئذ ثارت كبرياؤه فمشي مبتعدًا وخرج من الغرفة، ولكنه وقف في الخارج وقد تملكه القلق والضيق، وبين الحين والحين كان يتطلع إلى الباب آملًا أنْ تشعر الفتاة بالندم وتأتي إليه، ولكنها لم تفعل، وعندئذ بدأ يشعر بأنه أخطأ، ونشبت في أعماقه معركة حامية بين الكبرياء والعقل، ولم يلبث العقل أنْ تغلب فعاد أدراجه إلى الغرفة، فوجدها لا تزال واقفة حيث تركها في ركن الغرفة، وهي تبكي ووجهها إلى الجدار، وتمزق قلب توم وتقدم منها ووقف أمامها دُون أنْ يدري كيف يعالج الموقف وأخيرًا قال بتردد:

- بيكي، إنني لا أهتم بأي شخص غيرك.

فلم تجب.. واستمرت في بكائها.

فقال بضراعة: بيكي.. بيكي.. ألا تقولين شيئًا؟

واستمرت في البكاء.

وأخرج توم أثمن شيء معه، وكان عبارة عن مقبض باب من النحاس اللامع وقدمه لها وهو يقول:

- أرجوكِ يا بيكي خذي هذه الهدية.

فأخذتها منه وألقتها على الأرض. وفي التو انطلق توم خارجًا من الغرفة، ثم من المدرسة، وارتقى التل ومضى مبتعدًا، ولم يَعُد إلى المدرسة في ذلك اليوم.. أما بيكي فبدأت ترتاب في الأمر.. وأسرعت إلى الباب تنظر، لكنها لم تجد لتوم أثرًا، فركضت إلى الملعب ولكنها لم تجده هناك فنادته:

- توم، تعالَ.. توم!

وأصاخت السمع ولكنها لم تسمع أي إجابة. ولم تجد رفاقًا غير الصمت والوحدة، فجلست واستأنفت البكاء وهي تلوم نفسها.. وبعد قليل بدأت أفواج التلميذات والتلاميذ تصل إلى المدرسة، فاضطرت إلى إخفاء أحزانها، وتهدئة قلبها المحطم. والمضي في الدراسة بعقل شارد ونفس متألمة. وبغير أنْ تجد مِن بين أترابها مَن تستطيع أنْ تركن إليها لتبثها أحزانها وأشجانها.

***

الفصل الثامن

القرصان الشجاع

راح توم يسلك هذا الطريق وذاك إلى أنْ ابتعد عن الشارع الذي يجتازه التلاميذ عند عودتهم إلى المدرسة، ثم هدأ من سرعته، وبعد نصف ساعة كان يختفي وراء قصر «دوجلاس» المشيد فوق رابية «كارديف هيل» حيث احتجبت المدرسة عن أنظاره، ودخل غابة كثيفة ومضى يمشي على غير هدى حتى بلغ قلبها، فجلس فوق الحشائش تحت أغصان شجرة بلوط ضخمة.. كان الكون ساكنًا تمامًا، إذ يبدو أنّ شدة قيظ ذلك النهار جعلت الطيور تعزف عن التغريد... بينما كان صوت مطرقة أحد قاطعي الخشب يرتفع بين حين وآخر من بُعدٍ، ويبدو أنّ هذا الصوت أيضًا كان يزيد من شدة وطأة السكون وإحساس توم بالوحدة.. كان الصبي غارقًا في الحزن، ولهذا كانت إحساساته متلائمة تمامًا مع الجو الراكد الذي يحيط به.. وطالت جلسته، وطال معها تفكيره العميق.. ولقد خيّل إليه أنّ الحياة ليست إلا سلسلة متصلة من المتاعب مهما بدت باسمة في بعض الأحايين، وأحس بأنه يحسد أولئك الذين ماتوا، فقد دار بخلده إنّ الموت راحة أبدية لا تتخللها متاعب ولا أحزان.. حيث يرقد الإنسان وقد أُغْلِقَت عيناه إلى الأبد، وهكذا يتخلص الإنسان نهائيًا من المتاعب والأحزان.. وخطر له أنه كان يفضل أنْ يموت لو أنّ سجله في مدرسة الأحد كان نظيفًا، ولكنه لم يكُن كذلك، ثم تذكر بيكي فراح يتساءل: ماذا فعلت بها.. ماذا يغضبها؟ لا شيء! لقد أراد لها كل الخير. ولكنها عاملته ككلبٍ.. ولا شك أنها ستشعر بالأسف في أحد الأيام - وربما حدث ذلك بعد فوات الأوان، لكن يا الله.. ليته يستطيع أنْ يموت ولو لفترة قصيرة!

ولكن القلب الغض لا يمكن أنْ يستسلم لليأس وقتًا طويلًا، فسرعان ما بدأ توم ينساب ثانية في خضم الحياة العادية.. وأخذ يتساءل: ماذا يحدث إذا أدار لها ظهره الآن واختفى بطريقة غامضة؟ ماذا يحدث لو أنه رحل -رحل إلى بلاد غير معروفة عبر البحار- بغير أنْ يعود مرة أخرى إلى هذا البلد! ماذا سيكون شعورها عندئذ! وعاودته فكرة العمل كبهلوان، ولكنها ملأته حنقًا وغيظًا، لأن الضحك والمرح أمران لا يتلاءمان مطلقًا مع شخص يستشعر الكآبة التي يخلفها وراءه حب جريح! كلا، سيصبح جنديًّا، ويعود بعد سنوات طويلة وهو منهك القوى من فرط المعارك التي خاضها.. كلا أيضًا، إنه من الخير له أنْ ينضم إلى الهنود الحُمر ويصطاد «سيد قشطة»، ثم يمضي في طريق الحرب بين سلاسل الجبال والسهول الشاسعة بالشرق الأقصى، فإذا انقضت فترة طويلة من الزمن أصبح زعيمًا كبيرًا، يتزين بالريش، ويطلي وجهه وبدنه بطلاء غريب. ثم تمضي الأيام، ويعود ذات صباح إلى مدرسة الأحد ليطلق صيحة الحرب المألوفة، فيتأمله رفاقه القدامى بحسد.. لكن لا، إنّ ذلك ليس كل ما يطمع فيه، ولربما كان من الأفضل له أنْ يصبح قرصانًا! نعم، قرصان! لقد أصبح مستقبله واضحًا الآن، سيصبح اسمه ملء الأسماع في الدنيا كلها،
فإذا ذُكِرَ ارتعد الناس خوفًا! ولسوف يكتسح البحار العاتية في سفينته الطويلة المنخفضة «روح العاصفة» وعلمه المخيف يرفرف فوق مقدمها! فإذا ما بلغ أوج شهرته، عاد فجأة إلى القرية القديمة، ومضى إلى كنيستها، وقد لفحت أشعة الشمس وجهه، وبدا في زيه الفريد من القطيفة السوداء إنسانًا ترتعد فرائص الناس من رؤيته! حينها سيشير الجميع إليه باحترام ويتهامسون قائلين: «ها هو توم سوير» القرصان! إنه المنتقم الأسود الذي يثير الفزع في قلوب القراصنة الإسبان!

وهز الصبي رأسه دلالة على أنه قد فر من تقرير مصيره.. وقرر أنْ يهرب من المنزل ليحقق هذا الحلم الرائع.. وقرر أنْ يبادر بتنفيذ هذا القرار في صباح اليوم التالي. ومِن ثَمَّ فقد أصبح لزامًا عليه أنْ يتهيأ لذلك منذ الآن. فمشي من فوره إلى كتلة خشب قريبة، وبدأ يحفر أسفل أحد طرفيها بالمدية التي أهدتها «ماري» له وسرعان ما ارتطم سن المدية بقطعة خشب، فأدخل يده في الفجوة وراح يردد التعويذة التالية:

- تعالَ يا مَن لست هنا! وليبقَ هنا ما هو موجود من قبل!

ثم أزال الوحل، فكشف عن لوح متفتت من شجرة صنوبر؛ فرفعه من مكانه، فإذ بأسفله مخبأ كان الصبي يحتفظ فيه بكنوزه الخاصة، وبداخل المخبأ رأى توم كرة صغيرة من الرخام. فتملكته دهشة شديدة، وحك رأسه بيده، وقد بدت عليه الحيرة وقال:

- حسنًا. إنّ ذلك أمر يحار الإنسان في تعليله.

ودفع قطعة الرخام بعيدًا عنه باحتقار، وراح يفكر.. ولا عجب، فقد فشلت بدعته، تلك البدعة التي كان هو وزملاؤه يعتقدون اعتقادًا جازمًا إنها لا يمكن أنْ تفشل في أي وقت من الأوقات. كانوا يؤمنون بأنك إذا دفنت قطعة من الرخام وأنت تردد تعويذة معينة، وتركتها في مكانها أسبوعين ثم عدت فنبشت المخبأ وأنت تردد التعويذة التي رددها هو منذ قليل، فإنك تجد جميع قطع الرخام التي فقدتها في مناسبات أخرى، وقد تجمعت في هذا المخبأ مهما تباعدت المسافة

بينهما! ولكن ها هو الإيمان ينهار من أساسه، فكثيرًا ما سمع بنجاح هذه البدعة، ولكنه لم يسمع أنها أخفقت مرة واحدة، ولم يخطر بباله أنه سبق له أنْ جربها مرات عديدة وأنه كان في كل مرة يفشل في العثور على المكان الذي أخفى فيه كنوزه! وراح يفكر في الأمر فترة من الوقت، وأخيرًا قرر أنه من المحقق أنّ ساحرة مجهولة تدخلت في الأمر وأفسدت التعويذة. وظن أنه يستطيع أنْ يستوثق من صحة هذا الاستنتاج، لذلك راح يبحث حوله حتى عثر على منطقة رملية صغيرة بها منخفض على شكل نفق، فانبطح على وجهه، ووضع فمه قريبًا من المنخفض وصاح:

- «دودلباج»، «دودلباج»، أخبرني بما أريد أنْ أعرفه! «دودلباج»، «دودلباج» أخبرني بما أريد أنْ أعرفه!

واهتز الرمل، وبرزت من داخله حشرة سوداء صغيرة أخذت تهتز لحظات، ثم تملكها الفزع فغاصت في الرمل ثانية واختفت عن عيني توم.

قال توم لنفسه: إنّ الشيطان لم يرد على ندائي. لا ريب أنّ ساحرة أفسدت كل شيء، كنت واثقًا من ذلك.

كان توم يعلم أنه من العبث أنْ يحاول منازلة الساحرات، ومِن ثَمَّ فقد استسلم يائسًا.. ولكن خطر له أنْ يستعيد كرة الرخام الصغيرة التي ألقاها بعيدًا، فبدأ يبحث عنها بصبر، ولكنه لم يستطع العثور عليها، فعاد أدراجه إلى مخبأه، واتخذ الموقف نفسه الذي كان عليه حين قذف بقطعة الرخام، ثم أخرج قطعة أخرى من جيبه، ورماها في الاتجاه نفسه، وهو يقول:

- اذهبي وابحثي عن أختك!

وراقب قطعة الرخام وهي تسقط، ثم مضى إلى مكانها، وراح يتطلع هنا وهناك، ولكنه لم يعثر لها على أثر، فكرر المحاولة مرتين. ونجحت المحاولة الأخيرة، فقد عثر على قطعتي الرخام متقاربتين.

وفي تلك اللحظة سمع توم صوت نفير يأتي من بعيد، كان من ذلك النوع الذي يلعب به الأطفال، وفي التو خلع سترته وسرواله، وحوّل «حمالته» إلى حزام، ثم تقدم من بعض الحشائش الملاصقة لكتلة الخشب، فأزاحها من مكانها، وكشف عن سهم وقوس، وسيف من خشب وبوق من صفيح. وفي لحظة التقطهم كلهم، وانطلق يركض حافي القدمين، كانت أطراف قميصه تتطاير في الهواء. وأخيرًا توقف عن الركض أسفل شجرة ضخمة، وأمسك بنفيره ونفخ فيه ليجيب على النداء الذي سمعه. بعدها أخذ يسير على أطراف أصابعه وقد بدا عليه التحفز وهو يتطلع إلى مصدر الصوت هناك.. ثم قال كأنما يحذِّر زميلًا وهميًّا:

- قف أيها الرجل المرح! ابقَ في الخفاء حتى أطلق نفيري!

وفي هذه اللحظة ظهر «جو هاربر» وهو يرتدي زيًّا شبيهًا بذلك الذي يرتديه توم ويتسلح بأسلحة مماثلة.. فصاح توم:

- قف! مَن ذلك الذي يجرؤ على القدوم إلى «غابة شيروود» بغير إذني!

- إنه «چاي أوف چويسبورن» ولا حاجة به للحصول على جواز للمرور من أي إنسان.. مَن أنت؟!

فقاطعه توم قائلًا: كيف تجرؤ على مخاطبتي بهذه الطريقة؟

كانا يتكلمان حسبما «قرآه في الكتاب».

- مَن أنت حتى تجرؤ على مخاطبتي بهذه الطريقة؟

- أنا؟ أنا «روبن هود» كما ستعرف بعد لحظات.

- إذن فأنت طريد القانون الشهير؟ قف حيث أنت... إنني أتحداك!

واستل الاثنان سيفيهما الخشبيين، وألقيا ببقية أمتعتهما على الأرض، ثم اتخذا وضعية الاستعداد للمبارزة.

وسرعان ما اشتبكا في قتال جندي حذر، واندفعا يتبارزان بقوة حتى لهثت أنفاسهما، وانْسَال العرق فوق جبهتيهما. وبعد قليل صاح توم:

- استسلم لي! استسلم.. لماذا لا تركع على ركبتيك؟

- لن أفعل! لماذا لا تركع أنت؟ إنك لست ندًّا لي..

- أحقًا؟ ولكني لا أستطيع الاستسلام لك الآن ذلك يغاير ما جاء في الكتاب.. فالكتاب يقول: «وبطعنة واحدة قتل چاي أوف چويسبورن التعس»، فعليك أنْ تستدير لي حتى أغمد حسامي في ظهرك.

ولم يكُن ثمَّة مفر من النزول على حكم ما جاء في الكتاب، فاستدار چو، وتلقى الطعنة الوهمية ثم سقط على الأرض.

وقال چو وهو ينهض واقفًا: والآن يجدر بك أنْ تدعني أقتلك! أظن أنّ ذلك هو ما يقتضيه العدل.

- ولكني لا أستطيع أنْ أفعل ذلك، لأنه لا يتفق مع ما جاء بالكتاب.

- مهما يكُن.. من النذالة ألا تدعني أنتقد عليك!

- أصغ إليَّ يا چو.. يمكنك أنْ تلعب دور «فريار تاك» أو «ماش» ابن صاحب الطاحون، وأنْ تشتبك معي في مبارزة، أنْ ألعب أنا دور عمدة «نوتنجهام» وتلعب أنت دور «روبن هود» فترة قصيرة، فبهذا وحده تستطيع أنْ تقتلني.. هكذا قالت الكتب!

وقَبِل چو هذا الحل، وراح الصبيان يتبارزان، وبعدئذ عاد توم يتقمص شخصية روبن هود الذي تركته الراهبة الخائنة يفقد قواه بسبب الدم الذي نزف من جرحه! وأخيرًا، قام چو بدور جماعة من الخارجين على القانون، جذبوا روبن وقدموا له قوسه وسهمه وهم ينتحبون.. وأمسك توم بالقوس والسهم في إعياء وقال: «يجب أنْ تدفنوا روبن هود التعس في المكان الذي يسقط فيه السهم تحت الشجرة الخضراء»، ثم أطلق السهم، وسقط فوق ظهره ثم أسلم الروح! وبعد لحظات، انبعث واقفًا وقد بدا عليه المرح الشديد.

وارتدى الصبيان ثيابهما، وحملا أدواتهما، وانطلقا في سبيلهما وهما يأسفان لأنه لم يَعُد يوجد في هذا العصر خارجون على القانون، ويتساءلان عما فعلته المدينة العصرية لتستعيض به عن فقدهم! وقالا إنهما يتمنيان لو أمكنهما أنْ يصبحا طريدي قانون ولو لمدة عام واحد في «غابة شيروود»، وإنهما يفضلان ذلك على أنْ يصبحا رئيسي الولايات المتحدة إلى الأبد!

***

الفصل التاسع

مأساة في المقابر

أمرت العمة بولي توم وسيدني بأنْ يأويا إلى فراشهما في الساعة التاسعة والنصف من تلك الليلة، وبعد أنْ أدى الصبيان صلاتهما، صعدا إلى الفراش وسرعان ما راح سيدني في سبات عميق. أما توم فقد ظل مستيقظًا وقد تملكه الضجر الشديد.. وأخذ الوقت يمضي بتثاقل شديد حتى خيّل للصبي إنّ النهار يوشك أنْ يطلع على الأحياء، ولكنه ما لبث أنْ سمع الساعة تدق العاشرة! فتملكه اليأس.. كان في استطاعته أنْ يتقلب ويتململ حسبما كانت تقتضي حالة أعصابه المتوترة، ولكنه خشيَ أنْ يوقظ سيدني إنْ فعل ذلك. ومِن ثَمَّ فقد لاذ بالهدوء وراح يحملق في الظلام.. كان كل شيء ساكنًا بشكل يثير الأعصاب. وبعد قليل سمع توم ضوضاء خافتة وأصوات مبهمة اقشعر لها جسده؛ كما بدد السكون نعيق بومة بعيدة، فانتفض توم، وأدرك أنّ شخصًا ما مِن سكان القرية سيموت قريبًا! فازداد فزعًا. وبعد قليل بدأ النعاس يستولى عليه رغمًا عنه. ودقت الساعة الحادية عشرة، ولكنه لم يسمعها، وبعد قليل ارتفع من الخارج صوت أشبه بمواء القطط، ثم فُتِحَت نافذة الجيران، وأخذ الجار ينهر القطة، ثم ألقى بزجاجة في اتجاه المواء، فارتطمت بسياج منزل العمة بولي وتحطمت وعندئذ تنبه توم. وبعد دقيقة واحدة ارتدى ثيابه، وتسلل من النافذة، وأطلق مواءً مشابهًا، ثم تسلق السياج وهبط إلى الأرض فوجد «هاكلبري فين» في انتظاره وهو يحمل قطته الميتة في يده! ومشيَ الصبيان وسرعان ما ابتلعهما الظلام.. وبعد نصف ساعة كانا قد وصلا إلى السياج المتهدم الذي يحيط بمقابر المدينة!

كانت المقابر «جبّانة» من الطراز الغربي العتيق، أُنشئَت فوق تل يبعد ميلًا ونصف ميل عن القرية، ولها سياج عريض مالت بعض أجزائه إلى الداخل وبعضها الآخر إلى الخارج، ولكن لم يكُن به جزء واحد مستقيم وكانت الأعشاب والحشائش تملأ كل مكان بالجبّانة. أما المقابر نفسها فقد كانت أبنية متداعية طمس الزمان ما سُجِّل على شواهدها من أسماء الموتى.

وكانت نسمة خفيفة من الريح تهب في تلك اللحظة فتحركت أغصان الأشجار مُحدِثة صوتًا غامضًا جعل توم يخشى أنْ يكون هذا الصوت صوت أرواح الموتى تحتج على انتهاكهما حرمتها.. وتحدث الصبيان أحدهما مع الآخر همسًا لأن جدية الوقت والمكان كانت تستلزم ذلك. كما أنّ الهدوء المقبض يثير أعصابهما وبعد قليل استطاعا أنْ يعثرا على كومة التراب التي كدست حديثًا فاحتجبا وراء ثلاث شجرات ضخمة على مبعدة أقدام قليلة من القبر.

وانتظرا صامتين فترة خيّل إليهما أنها دهر طويل، ثم مزق السكون نعيق بومة قريبة فانتفض الصبيان، وبدأت الوساوس تساور توم وأيقن أنّ الموقف يستلزم الكلام، ومِن ثَمَّ قال هامسًا:

- هاك.. هل تظن أنّ الموتى لا يرتاحون إلى وجودنا هنا؟

فهمس هاكلبري بدوره: لست أعلم ولكني أعتقد أنهم لا يرتاحون إلى وجودنا.

- وأنا أيضًا أوافقك على هذا الرأي.

وساد الصمت مرة أخرى بين الصبيين.. وبعد قليل همس توم:

- أخبرني يا هاك.. هل تظن «هوس ويليامز» الميت يسمعنا نتحدث؟

- بالتأكيد، على الأقل إنّ روحه تسمعنا.

فقال توم بعد صمت قصير:

- بودي لو أنني قلت «مستر ويليامز»، ولكنني لم أقصد إهانته، فإنّ كل شخص يدعوه «هوس».

- إنّ الإنسان لا يدقق كثيرًا عندما يتحدث عن الأموات يا توم، واكتفى توم بهذا الرد، ولاذ الصبيان بالصمت فترة أخرى، ولكن توم لم يلبث أنْ قبض على ذراع زميله بعنف وهمس:

- صه.

فهتف هاكلبري وهو يتشبث بذراع زميله وقد أخذ قلباهما يطرقان بعنف:

- ما هذا يا توم؟

- صه، لقد تكرر ثانية ألم تسمعه؟

- إنني...

- ها هو، أصغ إليه.. ألا تسمعه؟

- يا إلهي يا توم، إنهم قادمون! إنهم قادمون بكل تأكيد.. ماذا نفعل؟

- لا أعلم.. هل تظن أنهم سيروننا؟

- بالطبع يا توم إنّ في استطاعتهم أنْ يبصروا في الظلام كالقطط ليتنا لم نحضر.

- أوه.. لا تخف، فأكبر ظني أنهم لن يزعجونا، لأننا لا نأتي أمرًا إذا... الزم الهدوء الكامل، فقد لا يلاحظوننا على الإطلاق.

- سأحاول يا توم.. ولكن، يا إلهي.. إنني أنتفض بشدة..

- أصغ.

وأطرق الصبيان برأسيهما معًا وحبسا أنفاسهما فسمعا همهمة أصوات آتية من الجانب الآخر من المقابر وعندئذ همس توم:

- انظر، هل ترى؟ ما هذا؟

- أواه يا توم، إنه لشيطان مريع..

رأى الصبيان أشباحًا مقبلة في الظلام، وكان أحدهما يحمل مصباحًا عتيقًا يتأرجح في أثناء سيره.

وهمس هاكلبري في أُذن توم: مِن المحقق إنها الشياطين.. إنهم ثلاثة لقد هلكنا يا توم هل تستطيع الصلاة؟

- سأحاول، لكن لا تخف هكذا، فإنها لن تؤذينا و...

- صه!

- ما هذا يا هاك؟

- إنهم بشر.. على الأقل واحد منهم آدمي.. إنني أسمع صوت «ماف بوتر» الكهل بين أصواتهم.

- أحقًا؟ هل أنت واثق من ذلك؟

- أراهن على أنّ هذا صوته. لا تتحرك.. إنّ «بوتر» ضعيف البصر ولن يستطيع رؤيتنا، ثم إنه مخمور كالعادة.. يا له من كهل عربيد!

- حسنًا، سألتزم بالهدوء.. آه، ها هم قادمون، إنهم يسيرون ببطء، ولكنهم يسرعون الآن.. ثم ها هم يبطئون مرة أخرى ويعودون إلى الإسراع من جديد.. يا إلهي! إنني أعرف واحدًا منهم يا هاك.. إنه «إنچان چو».

- هذا صحيح، إنه السفاح الشرير.. ليتهم كانوا شياطين.. لأشد ما أعجب ما الذي جاء بهم إلى هنا؟

وكف الصبيان عن كل همس، فقد وصل الرجال الثلاثة إلى القبر.. ووقفوا على مبعدة ثلاثة أقدام من مخبأ الصبيين.

وقال الصوت الثالث، وكان صاحبه هو الذي يحمل المصباح، ولم يلبث الصبيان أنْ عرفا فيه «الدكتور روبنسون» الشاب.

- ها هو قبره!

كان «بوتر» و«إنچان» يجرّان عربة يد خشبية بها حبل ومجرفتان، فوضعا حملهما على الأرض وراحا ينبشان القبر. ووضع الطبيب المصباح عند رأس القبر، وجلس وظهره إلى إحدى الأشجار التي اختبأ الصبيان خلفها بحيث لم تكُن المسافة التي تفصلهما عنه تزيد على أشبار قليلة.

وقال الطبيب في صوت خافت: أسرعا يا رجلين! فقد يظهر القمر في أي لحظة.

وأومأ الرجلان برأسيهما، ومضيا في الحفر، ومضت فترة لم يكُن يسمع فيها غير صوت المِجرفين وهما يحملان الطين والحصى ويلقيان به بعيدًا مُحدثين همهمة بغيضة، وأخيرًا ارتطم أحد المجرافين بالتابوت محدثًا صوتًا مخيفًا! وبعد دقيقة أخرج الرجلان التابوت ووضعاه فوق الأرض، ثم رفعا الغطاء، وأخرجا جثة الميت، وألقيا بها على الأرض في خشونة.. وفي تلك اللحظة برز القمر وراء السُحب فسقطت أشعته على الوجه الجامد.. وأسرع الرجلان يعدان عربة، ووضعا الجثة

فوقها وغطياها بغطاء من الصوف، ثم ثبتاها في مكانها بالحبل وأخذ «بوتر» مدية من جيبه قطع بها طرف الحبل، ثم قال:

- أما وقد انتهينا من كل شيء يا دكتور، فعليك أنّ تعطينا خمسة دولاراتٍ أخرى وإلا فستبقى الجثة هنا. وقال إنجان هذا صحيح!

فقال الدكتور: ما هذا؟ لقد طلبتما أجركما مقدمًا فدفعته لكما.

فقال إنجان چو: نعم. وفعلت أكثر من ذلك!

وتقدم إنجان من الطبيب الذي كان قد انبعث واقفًا في تلك الأثناء وأردف:

- منذ خمسة أعوام طردتني من مطبخ أبيك عندما جئت ذات ليلة أطلب شيئًا أطعم به، وقلت إنني لم آتِ لغرض شريف، وعندما أقسمت أنني سأنتقم منك، ألقى أبوك بي في السجن بتهمة التشرد، فهل تظن إني نسيت؟ إنّ دم إنجان لا يزال يجري في عروقي.. وها أنت الآن في قبضتي، ويجب أنْ تصفي حسابك معي.. هل فهمت؟!

وراح إنجان يهدد الطبيب ملوحًا بقبضة يده في وجهه، وفي التو سدد الطبيب لكمة ساحقة إلى فك إنجان ألقته على الأرض، فألقى بوتر بمديته فوق الأرض وصاح:

- كفى يا هذا.. لا تضرب زميلي!

وفي اللحظة التالية انقض بوتر على الطبيب والتحم الاثنان في معركة حامية، وفي سرعة خاطفة وثب إنجان واقفًا على قدميه، وقد تمثل الشر في عينيه والتقط مدية بوتر، ثم بدأ يزحف كالهرة المتنمرة وهو يدور حول المتقاتلين مترقبًا الفرصة التي تمكنه من إغماد المدية في قلب الطبيب. وفي تلك اللحظة استطاع الطبيب أنْ يتخلص من قبضة بوتر، وأسرع فحمل الدعامة الرئيسية في قبر «ويليامز» ثم أهوى بها بوتر فسقط الرجل على الأرض! عند ذلك رأى إنجان فرصته سانحة فأغمد المدية حتى مقبضها في صدر الشاب.. فترنح هذا وسقط فوق بوتر مغرقًا إياه في الدم. وفي اللحظة التالية حجبت السُحب القمر. وكان الصبيان ركبهما الفزع الشديد، فاندفعا يركضان بجنون بعيدًا عن ذلك المنظر المريع.

وعندما برز القمر من خلف السحب مرة أخرى، كان إنجان چو يقف فوق الجريحين وهو يفكر.. وأخذ الطبيب يهذي بعض الوقت، ثم لم يلبث أنْ شهق شهقة قوية، وفاضت روحه، بينما وقف إنجان يقول لقد صفيت حسابي معك.. عليك اللعنة!

ثم سرق ما كان القتيل يحمل من مال، وبعدئذ وضع المدية في يد بوتر المفتوحة وجلس فوق التابوت المفتوح وهو يفكر تفكيرًا عميقًا.. ومضت ثلاث دقائق، فأربع، ثم خمس، وعندئذ بدأ بوتر يتململ ويتأوه. وأطبقت يده على المدية فرفعها وتطلع إليها ثم تركها تسقط وهو يرتعش.

واستوى بوتر جالسًا وهو يدفع جثة الطبيب بعيدًا عنه، وحدق فيها، ثم فيما حوله وهو يحس بدوار شديد.. وسرعان ما التقت عيناه بعيني چو.

قال: يا إلهي! كيف حدث ذلك يا چو؟

فأجاب چو بغير أنْ يتحرك: إنه عمل قذر.. لماذا فعلت ذلك؟

- أنا! إنني لم أرتكب هذه الجريمة!

- أصغِ إليَّ.. إنّ مثل هذا القول لن يجد مَن يصدقه.

فانتفض بوتر وامتقع لون وجهه.. ثم قال:

- كنت أظن أنني لست مخمورًا، إنني لم أقرب الخمر هذه الليلة، ولكن يبدو أنّ رأسي ما زال متأثرًا بالخمر بشكل أسوأ مما كان عليه عندما جئنا إلى هنا.. الحق أنني مضطرب أشد الاضطراب، وليس في استطاعتي أنْ أجمع شتات أفكاري وأتذكر ما حدث. أخبرني يا چو وكُن صادقًا، هل ارتكبت أنا هذه الجريمة؟ چو إنني لم أقصد ذلك إطلاقًا، أقسم على ذلك بشرفي أنني لم أقصد قتله يا چو.. أخبرني كيف حدث ذلك؟ يا إلهي! إنه شيء فظيع إنه ما زال شابًا في مقتبل العمر!

فقال إنچان: إنّ ما حدث هو أنكما تعاركتما والتقط هو قطعة من شاهد القبر لطمك بها فسقطت على الأرض، ولكنك بادرت بالوقوف وأنت تترنح وتتمايل، ثم التقطت المدية وأغمدتها في صدره في الوقت الذي كان هو يسدد فيه إليك لطمة أخرى؛ فسقطت على الأرض كقطعة من الصخر، حتى لقد حسبتك ميتًا، لأنك ظللت فاقد الوعي وقتًا طويلًا.

- أواه.. إنني لم أكُن أعلم ماذا كنت أفعل.. كم أود أنْ أموت الآن لقد كان ذلك نتيجة إفراطي في شرب الخمر، وما استولى عليَّ من هياج فيما أظن، فإنني لم أستعمل سلاحًا من قبل يا چو.. صحيح إنني اشتبكت في معارك كثيرة ولكني لم أستعمل أسلحة على الإطلاق. إنّ الناس جميعًا يعرفون ذلك يا چو فلا تشِ بي! قُل إنك لن تشي بي يا صديقي العزيز.. إنني طالما أحببتك ودافعت عنك.. ألا تذكر ذلك؟ إنك لن تشي بي أليس كذلك يا چو؟

وجثا الرجل التعس عند قدمي القاتل، وضم يديه في ضراعة، وقال چو:

- لقد كنتَ دائمًا عادلًا معي يا «ماف بوتر»، ولهذا فلن أتنكر لك، وأظن أنّ هذا هو أنبل ما يمكن أنْ يبديه إنسان من إخلاص؟!

- أواه يا چو.. إنك ملاك.. سأباركك من أجل ذلك ما حييت.

وانفجر بوتر باكيًا فقال چو:

- كفى، فليس لدينا من الوقت ما نضيعه في هذا السخف.. اسلك أنت ذلك الطريق، وسأسلك أنا هذا الطريق.. هيا تحرك، واحذر أنْ تترك أي أثر خلفك!

وتحرك بوتر مبتعدًا بخطى سريعة لم تلبث أنْ انقلبت إلى عدو.. أما القاتل فظل ثابتًا في مكانه ثم غمغم:

- لقد نسيَ الأحمق المدية، وأعتقد أنه لن يتذكرها إلا بعد أنْ يبتعد عن هنا كثيرًا.. وما أظنه سيجرؤ على العودة في طلبها.. يا له من جبان!

وبعد دقيقتين أو ثلاث دقائق لم يَعُد هناك مَن يتطلع إلى القتيل والجثة المغطاة والقبر المفتوح غير القمر.. وساد الصمت الرهيب مرة أخرى!

***

الفصل العاشر

النبوءة المخيفة لكلب يعوي

استمر الصبيان يركضان هاربين نحو القرية وقد عقد الرعب لسانيهما.. وكانا لا يكفان عن التطلع من فوق كتفيهما بين حين وآخر، وكأنما كانا يخشيان أنْ يتبعهما أحد، وكان يخيّل لهما أنّ كل جذع شجرة يصادفهما رجل وعدو، وكلما قابلا واحدًا منها شهقا بقوة، حتى إذا اقتربا من بعض الأكواخ المشيّدة على مقربة من القرية وسمعا نباح كلاب الحراسة يرتفع؛ ضاعفا من سرعتهما.

وقال توم لاهثًا: لو أننا استطعنا أنْ نصل إلى المدينة القديمة فحسب. وقتها يمكننا أنْ نخفف من سرعتنا، إنني لا أستطيع احتمال هذا الموقف المخيف أكثر من ذلك.

ولم يجب هاكلبري الذي كان يلهث بقوة. وركز الصبيان على الهدف الذي يسعيان إليه، وظلا يتقدمان منه تدريجًا، حتى استطاعا أخيرًا أنْ يبلغا المدينة جنبًا إلى جنب، واندفعا داخلين عبر بابها ثم تهالكا في الظل وقد أضناهما الإعياء.. وأخذت دقات قلبهما تبطئ شيئًا فشيئًا إلى أنْ صارت طبيعية.. وعندئذ همس توم:

- ماذا ستكون نتيجة ذلك هاكلبري؟

- إذا مات الدكتور روبنسون.. فأعتقد أنّ چو سَيُشْنَق!

- ومَن الذي يعرف أنّ چو القاتل؟

- إنني أعرف إنه القاتل يا توم!

فكر توم قليلًا.. ثم سأل: ومَن الذي سيشي به؟ نحن؟

- نحن؟ ماذا تقول؟ لنفترض أنّ شيئًا ما حدث ولم يُشْنَق «إنچان چو» أليس مِن المحتمل أنْ يقتلنا نحن بعد ذلك مثلما قتل الدكتور روبنسون؟

- هذا هو ما أفكر فيه أنا أيضًا يا هاك.

- إذن فلندع مهمة الوشاية «لماف بوتر» إذا بلغت به الحماقة هذا القدر.. إنه يكون عادة مخمورًا ولن يستطيع السيطرة على لسانه.

وسكت توم.. ومضى يفكر. وأخيرًا همس:

- إنّ «ماف بوتر» لا يعرف شيئًا عن حقيقة تلك الجريمة يا هاك، فكيف يشي بإنچان؟

- وما السبب في أنه لا يعرف؟

- لأنه فقد الوعي قبل أنْ يقتل إنچان الدكتور، هل تظن أنّ بوتر كان يستطيع أنْ يرى شيئًا؟ هل تظن أنه عرف شيئًا؟

- يا إلهي.. هذا صحيح يا توم!

- ثم.. مِن الجائز أنْ يكون ذلك الشرير إنچان قد قتل بوتر أيضًا!

- كلا.. هذا غير محتمل يا توم، لقد كان چو يدرك أنّ بوتر مخمور، كما كان يعلم تمامًا أنّ بوتر لا يعرف حقيقة ما حدث، لذلك يخيّل لي أنّ چو أبقى على حياته ولم يفتك به.

وساد الصمت قليلًا مرة أخرى.. ثم قال توم:

- هاك.. هل أنت واثق من إنك تستطيع أنْ تلوذ بالصمت؟

- بل يجب أنْ نصمت صمت القبور يا توم.. إنّ ذلك الشيطان إنچان لن يتورع عن الفتك بنا إذا عرف أننا كنا في مسرح الجريمة.. أو إذا وشينا به. الآن ينبغي يا توم أنْ يقسم أحدنا للآخر على أنْ نصمت.

- إني أوافقك على هذا الرأي لأنه خير ما يمكن عمله في الوقت الحاضر. هل يمسك كل منا بيد الآخر ونقسم!

- أوه! لا، هذا القسم لا يجدي لأنه قسم عادي، وكثيرًا ما يمكن الحنث به، إنما يجب أنْ يُكتَب القسم في مثل هذه الحالة وأنْ يُسجَل بالدم!

ونفر توم من الفكرة لأنها بدت له سوداء، قاتمة، مظلمة، كئيبة، ولكنه -رغم ذلك- لم يجد مفرًا من تنفيذها، فالتقط لوحًا خشبيًّا نظيفًا كان مُلقى على مقربة، كما التقط قطعة حديدية مدببة كانت قريبة منه، وانتظر ريثما طلع القمر وراح يسجل القسم بصعوبة فوق اللوح وهو يؤكد كل كلمة بقرقعة يحدثها بلسانه!

وكان هاكلبري يراقب توم بإعجاب لما كان يبديه من سهولة في الكتابة وقدرة على التعبير!

وانتزع هاكلبري دبوسًا من ياقة سترته، وهمّ بأنْ يغرسه في لحمه، ولكن توم منعه من ذلك قائلًا:

- لا تفعل.. لا تفعل ذلك، لأن الدبوس مصنوع من النحاس وقد يكون مسممًا.

- مسمم؟

- نعم، ومِن الجائز أنْ ينتقل جزء من السم إلى جسمك.

وأخذ توم يحل الخيط الملفوف حول إحدى إبرتيه، وغرس كل من الصبيين سن الإبرة في طرف إبهامه، وضغطه حتى سالت منه قطرة من الدم. واستطاع توم أنْ يرسم الحروف الأولى من اسمه فوق لوح الخشب مستخدمًا طرف إبهامه كقلم، ثم أطلع هاكلبري على الطريقة التي يرسم بها حرفي الهاء والفاء، وبذلك سُجِلَ قسم الصبيين، ودفنا اللوح قريبًا من الجدار بعد أنْ غمغما ببعض التعاويذ بأنْ يمسكا لسانيهما عن الإشارة أو للمأساة التي شاهداها في المقابر.

وفي تلك اللحظة تسلل شبح من فجوة في الجدار المقابل من البناء المتهدم، ولكن الصبيين لم يرياه.

همس هاكلبري: هل يُلْزِمنا هذا القسم بألا نذكر شيئًا عن هذا الحادث مدى الحياة؟

- بالتأكيد، فمهما يحدث يجب أنْ نلزم الصمت التام وإلا سقطنا ميتين، ألا تعرف ذلك؟

- هذا حق؟

ثم راح الصبيان يتهامسان فترة قصيرة من الوقت، وفي تلك اللحظة أخذ كلب ينبح نباحًا عاليًا متواصلًا، وكان هذا الكلب على مبعدة عشرة أقدام من الصبيين، فأسرع الصبيان يتشبثان أحدهما بالآخر وقد تملكهما الفزع.

وسأل هاكلبري بصوت أجش: أينا هو المقصود بهذا النباح؟

- لست أدري، أسرع واختلس النظر من الفجوة.

- لا أستطيع، إنني خائف.. افعل أنت ذلك يا توم.

- لا أستطيع، لا أستطيع يا هاك!

- أرجوك، أرجوك يا توم.. إنني أسمع الصوت مرة أخرى.

- أواه، يا إلهي! شكرًا لله إنني أعرف صوته.. إنه الكلب بول هاربيسون!

- هذا حسن يا توم، الواقع إنني شعرت بفزع شديد، فقد خشيت أنْ يكون كلبًا ضالًا.

ونبح الكلب مرة أخرى.. وغاص قلبا الصبيين من جديد!

وهمس هاكلبري: رباه! إنه ليس بول هاربيسون.. أليس كذلك يا توم!

وتملك الفزع توم.. ولكنه ألصق عينه بالفجوة، وقال بصوت يشبه الهمس:

- أواه يا هاك، إنه كلب ضال.

- أسرع يا توم، أسرع.. مَن الذي يقصده هذا الكلب؟

- لا ريب في أنه يقصدنا معًا.

- إذن فقد هلكنا يا توم، إنني أعرف ماذا سيكون مصيري، فقد كنت دائمًا ولدًا شريرًا.

وغمغم توم بفزع: إنّ هذا نتيجة العبث والأعمال الشريرة، كان في استطاعتي أنْ أكون ولدًا طيبًا مثل سيدني، لو أنني حاولت ذلك، ولكني لم أفعل بالطبع بَيد أنني أقسم أنْ أكون ولدًا طيبًا أواظب على حضور مدرسة الأحد، وأواظب على الصلاة إذا قدرت لي النجاة من هذا المأزق.

وأردف توم سريعًا: انظر يا هاك، انظر.. لقد أولانا ظهره.

وتطلع هاك، وقد أفعم قلبه سرورًا ثم هتف:

- انظر، إنّ ظهره اتجاهنا فعلًا.. هل كان كذلك من قبل؟

- نعم، ولكني بحماقتي لم أفكر في ذلك، إنه الكلب بول بغير شك.. لكن من الذي يعينه؟

وكف الكلب عن النباح، وأرهف توم أُذنيه ثم همس: صه، ما هذا؟

- يخيّل إليَّ إنه شخير إنسان يا توم.

- هذا صحيح.. لكن أين هو هذا الإنسان يا هاك؟

- أعتقد أنه في الجانب الآخر من البناء، أو هكذا يبدو لي، على كل حال لقد اعتاد أبي أنْ ينام هناك في بعض الأحيان، ولكني لا أعتقد أنه يجيء إلى هنا إطلاقًا الآن.

ومرة أخرى طغت روح المغامرة على الصبيين.

- هل توافق على متابعتي إذا تقدمتك يا هاك؟

- لست مرتاحًا إلى ذلك يا توم، فإنني أخشى أنْ يكون النائم هو إنچان چو!

وتردد توم لحظة.. ولكن الإغراء لم يلبث أنْ سيطر عليه ثانية، واتفق الصبيان على القيام بالمحاولة على أنْ يطلقا الريح لساقيهما إذا توقف الشخير، وبدأ سيرهما على أطراف أصابع أقدامهما، أحدهما في المقدمة، والآخر في أعقابه، وعندما أصبحا على مبعدة خمس خطوات من الرجل النائم، وطأ توم عصا كانت في طريقه دُون أنْ يفطن إليها فتحطمت مُحدِثة صوتًا حادًا؛ وتأوه النائم وتململ قليلًا، ثم حول وجهه فسقطت عليه أشعة القمر، لقد كان «ماف بوتر»! وكاد قلبا الصبيين يتوقفان وتملكهما الارتباك عندما تحرك الرجل، ولكن مخاوفهما تبددت واستمرا في تقدمهما حتى خرجا من الفجوة التي في الجدار، وبعد أنْ قطعا مسافة لا بأس بها توقفا ليتبادلا كلمة وداع، وعندئذ انطلق الكلب ينبح بشدة مرة أخرى فتحول الصبيان نحو مصدر الصوت، ورأيا الكلب الغريب يقف على مبعدة أقدام قليلة من الرجل النائم وهو يواجهه وقد رفع أنفه نحو السماء!

وصاح الاثنان في وقت واحد: يا إلهي! إنه هو!

وأردف هاكلبري: أخبرني يا توم.. سمعتهم يقولون إنّ كلبًا غريبًا نبح عند منزل چوني ميلر نحو منتصف الليل منذ أسبوعين تقريبًا، ولكن أحدًا في منزله لم يَمُت حتى الآن.

- أعرف ذلك.. ولكن على فرض أنّ أحدًا لم يَمُت، ألم تُصَب «جراسي ميلر» بحروق مؤلمة يوم السبت التالي؟

- نعم بَيد أنها لم تَمُت.. وما هو أكثر من ذلك.. إنّ حالتها في تحسن مستمر.

- حسنًا، فلننتظر لنرى ما قد يحدث لها إنها هالكة لا محالة.. مثلما سيهلك ماف بوتر. هذا ما يقوله الزنوج عن مغزى نباح الكلاب الغريبة، وهم يعرفون كل شيء عن مثل هذه الأمور يا هاك!

وافترق الصبيان وهما مستغرقان في التفكير العميق، وعندما تسلل توم من نافذة غرفة نومه كان الليل قد أوشك على الانتهاء، فأخذ يخلع ثيابه بحذر شديد، ثم استغرق في النوم وهو يهنئ نفسه لأن أحدًا لم يعلم بأمر مغامرته. ولكنه لم يفطن إلى أنّ سيدني الذي كان يشخر بهدوء كان في الواقع مستيقظًا منذ أكثر من ساعة.

وعندما استيقظ توم من نومه كان سيدني قد فرغ من ارتداء ثيابه وانصرف. وتلفت توم حوله فإذا ضوء يسطع قويًّا فتملكته الدهشة الشديدة، وراح يتساءل لماذا لم تناده عمته وتنهره كعادتها حتى ينهض من الفراش؟ وازدادت حيرته، فنهض من فراشه على عجل وبعد خمس دقائق كان قد ارتدى ثيابه وهبط إلى الطابق الأرضي وهو يزال يشعر بالنعاس. وكانت الأسرة لا تزال تجلس حول المائدة وإنْ كانت قد فرغت من تناول طعام الإفطار. ولم يُوجه أي توبيخ أو تقريع لتوم، وإنما لاحظ الصبي أنّ الجميع قد أشاحوا بوجوههم عنه، وإذ لاذ الجميع بالصمت؛ غاص قلبه بين جنبيه وجلس فوق مقعده المألوف، وحاول أنْ يتظاهر بالمرح، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح، فإنّ أحدًا من الحاضرين لم يبتسم أو يستجب لدعاباته، وإنما ظلوا جميعًا صامتين.

وبعد أنْ فرغ توم من تناول طعام الإفطار، انتحت عمته به جانبًا، فتهلل الصبي وتمنى لو أنها ضربته وقضت بذلك على التوتر الشديد الذي كان يعاني منه أشد العناء، ولكنها لم تفعل.. وإنما انخرطت في البكاء وسألته كيف جرؤ على ترك المنزل فجأة محطمًا بذلك قلبها العجوز، وأخيرًا قالت له إنها ستدعه وشأنه، يسلك السبيل الذي يروقه حتى لو أودى بحياته رغم ما في ذلك من مرارة قد تحطم قلبها، فتموت من فرط الحسرة والحزن على ذلك الصبي الذي يئست من إصلاحه. وكان ذلك القول أشد وقعًا على نفس الصبي من ضرب السياط، فازداد ألمه وعذابه وانفجر باكيًا، وراح يناشدها الصفح والغفران ويعدها بأنْ يسلك الطريق السوي. وعندئذ صرفته عمته وهو يشعر بأنها لم تصفح تمامًا لضعف ثقتها به.

ولم يستشعر توم أي رغبة في الثأر من سيدني هذه المرة، ومِن ثَمَّ لم يكُن هناك ما يحمل سيدني على التسلل من الباب الخلفي خوفًا من توم. ومضى توم إلى المدرسة بخطوات بطيئة وقلب مثقل، وسرّ أنّ المدرس ضربه هو و«چو هاربر» لأنهما لعبا الهوكي في اليوم السابق، ولم يشعر بألم الضرب فقد كان عقله منصرفًا تمامًا إلى أحزانه وأشجانه، ثم جلس في مكانه واعتمد بمرفقيه على المنضدة، واعتمد ذقنه براحتيه، وحملق في الجدار بنظرة جامدة شأن أي رجل بلغ عذابه أقصى مداه. وكان مرفقاه يضغطان على مادة صلبة، وبعد وقت طويل عدل جلسته ببطء وحزن، ثم التقط ذلك الشيء الصلب وهو يتنهد، كان هذا الشيء ملفوفًا في ورقة وفتح توم الورقة، ثم تنهد تنهيدة عميقة، وتحطم قلبه، فقد وجد بداخل الورقة المقبض النحاسي الذي أعطاه بالأمس لبيكي.

وكانت هذه ضربة قاضية على آمال توم!

***

الفصل الحادي عشر

توم يؤنبه ضميره

ظهر اليوم التالي، استولى الفزع على سكان القرية حينما بلغهم النبأ المؤلم فجأة، ولم يكُن البرق قد اخْتُرِعَ بعد، ولكن القصة سرت في القرية كما تسري النار في الهشيم، فكانت تنتقل من رجل إلى آخر، ومِن جماعة إلى أخرى، ومِن منزل إلى آخر في لحظاتٍ حتى عرف كل شخص في القرية تلك القصة المؤلمة. واضطر ناظر المدرسة إلى منح تلاميذه عطلة بعد ظهر ذلك اليوم، ولو أنه لم يفعل ذلك لحسبت القرية كلها سلوكه غريبًا!

قال الرواة: إنّ مدية ضخمة وُجِدَت على مقربة من جثة القتيل. وإنّ شخصًا قال: إنّ هذه المدية ملك «ماف بوتر»، وقيل أيضًا إنّ مواطنًا كان عائدًا إلى منزله في ساعة متأخرة من ليلة ارتكاب الجريمة رأى بوتر يغتسل في رافد النهر، وكان ذلك في الساعة الثانية صباحًا، وإنّ بوتر بادر بالاختفاء حينما رأى ذلك المواطن. ولقد أثارت هذه الظروف وبخاصة الاغتسال الريبة في أمر بوتر، لأنه لم يَعْتَد الاغتسال في النهر في مثل ذلك الوقت المتأخر جدًّا من الليل. وقال الرواة أيضًا: إنّ العمدة ورجاله ينقبون في جميع أرجاء القرية باحثين عن هذا القاتل، ومعروف أنّ الجمهور يحرص على تصفية الأدلة وإصدار حكمه في مثل هذه المناسبات، ولكن العمدة ورجاله لم يستطيعوا العثور على أثرٍ لبوتر. ومِن ثَمَّ فقد أرسل الفرسان في كل مكان للبحث عنه. ومضى الرواة يقولون: إنّ العمدة يؤكد أنه سيقبض على بوتر قبل حلول الليل.

وانطلق سكان القرية جميعًا إلى المقابر.. وسرى قليلًا عن توم فانضم إلى الموكب لا لشيء إلا لأنه لم يستطع أنْ يتغلب على الإغراء الذي سيطر عليه ودفعه إلى ذلك. وعندما وصل إلى المكان المشئوم راح يتسلل بجسمه الصغير بين المتفرجين، إلى أنْ وقعت عيناه على المنظر البغيض، خيّل إليه أنّ دهرًا قد مضى منذ أنْ جاء إلى هذا المكان. وأحس بشخص يقرصه في ذراعه فتلفت ليرى مَن يكون هذا الشخص، والتقت عيناه بعيني هاكلبري، وبعد لحظة كان كل منهما ينظر في اتجاه آخر وهما يتساءلان عمّا إذا كان قد رآهما أحد وهما ينظران إلى أحدهما الآخر، وفهم المعنى الذي انطوت عليه نظراتهما. ولكن جميع الموجودين كانوا منهمكين في الحديث وفي تأمل المنظر الرهيب الماثل أمامهم!

كانوا يقولون: مسكين هذا الشاب! مسكين هذا الشاب! يجب أنْ يكون في ذلك درس للصوص المقابر! سيُشْنَق ماف بوتر جزاء له على ارتكاب هذه الجريمة إذا قبضوا عليه.

وقال الواعظ: هذا حكم الله.. لا شك أنّ له يدًا في هذه المأساة!

وانتفض توم من قمة رأسه إلى أخمص قدميه في تلك اللحظة، فقد وقعت عيناه على وجه «إنچان چو»، وفي تلك اللحظة بدأت الجموع تلوح وتناضل وارتفعت أصوات تقول:

- إنه هو، إنه هو.. ها هو قادم!

وانطلقت أصوات أخرى كثيرة تتساءل: مَن هو.. مَن هو؟

- ماف بوتر.

فقال قائل: ها هو قد توقف.. انظروا.. لقد استدار ليهرب.. لا تدعوه يهرب!

وقال الأشخاص الذين كانوا يعتلون أغصان الأشجار فوق رأس توم: إنّ بوتر لم يكُن يحاول الفرار، وإنما كان يبدو فقط مترددًا مضطربًا.

فقال أحد الواقفين: يا للوقح! لقد أراد أنْ يلقي نظرة هادئة على ما جنته يداه، ولا شك في أنه لم يكُن يتوقع أنْ يجد أحدًا هنا.

وأفسح الجمهور الطريق للعمدة الذي أقبل في تلك اللحظة وهو يقود بوتر من ذراعه. وكان وجه الرجل التعس شاحبًا جدًّا، وقد تجسم الرعب في عينيه، وعندما وقف أمام جثة القتيل هز رأسه بعنف، ثم غطى وجهه بيديه وانخرط في البكاء، وقال بصوت أجش:

- إنني لم أرتكب هذه الجريمة أيها الأصدقاء، أقسم لكم بشرفي إنني لم أرتكبها.

فصاح أحد الواقفين: ومَن الذي اتهمك بارتكابها؟

وخيّل للجميع أنّ هذه الرمية أصابت مقتلًا، فقد رفع بوتر وجهه وتلفت حوله، وقد بدا عليه يأس قاتل...

ووقع بصره على إنچان چو، فصاح: أواه يا إنچان.. لقد وعدتني بإنك لن...

فقاطعه العمدة متسائلًا: وهو يدفع المدية أمام عينيه.. هل هذه المدية ملكك؟

كاد بوتر يسقط على الأرض.. ولكن أحد المتجمهرين ساعده على النهوض، ثم قال بوتر:

- إنّ هاتفًا قال لي: إنني إذا لم أَعُد...

وانتفض، ثم لوح بيده في إشارة يائسة وقال: أخبرهم يا چو.. أخبرهم.. فلم تَعُد هناك فائدة من الصمت.

وجمد هاكلبري وتوم في مكانهما.. وراحا يصغيان إلى إنچان وهو يقص أكذوبته الكبرى بثبات عجيب.. وكان الصبيان يعتقدان أنّ السماء الصافية ستبرق في تلك اللحظة احتجاجًا على الكذب الممقوت، أو تنقض صاعقة فوق رأس الكاذب، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث. وعندما فرغ إنچان من سرد قصته، وبقيَ واقفًا في مكانه دُون أنْ يمسه سوء. طغت على الصبيين رغبة في الحنث بقسمهما وإنقاذ حياة السجين البريء، ولكن الرغبة لم تلبث أنْ تبددت حينما أدرك الصبيان أنّ هذا الشرير إنچان باع نفسه للشيطان، وأنه من الأفضل ألا يتدخلا في شيء أصبح ألعوبة في يد قوة الشر هذه.

سأل أحد النظارة: لماذا لم تهرب؟ لماذا سعيت إلى هنا؟

فتأوه بوتر وقال: لم أستطع الفرار، لم أستطع.. لم أستطع الفرار.. لأن قوة خفية قاهرة كانت تدفعني للمجيء إلى هنا؟

واستأنف البكاء بحرقة.

وبعد بضع دقائق عاد إنچان چو يسرد قصته هذه بصوت هادئ في أول جلسة للتحقيق، ولما لم يبرق البرق، آمن الصبيان أنّ چو باع نفسه للشيطان حقًا!

وقرر الصبيان فيما بينهما أنْ يراقبا چو ليلًا عندما تحين لهما الفرصة لعلهما يستطيعان أنْ يريا لمحة من مولاه المخيف؛ الشيطان!

وساهم إنچان چو في رفع جثة القتيل ووضعها فوق عربة توطئة لنقلها. وتهامس الحاضرون بأنّ الجرح القاتل لم ينزف دمًا كثيرًا، فظن الصبيان أنّ هذه الملاحظة العابرة ستحول الريبة إلى الاتجاه الصحيح، ولكن خاب ظنهما؛ إذ لم يلبث أكثر من قروي أنْ قال معقبًا:

- لقد سدد بوتر الطعنة للطبيب على مبعدة ثلاثة أقدام فقط، ولذلك لم ينزف الجرح دمًا غزيرًا.

وبدأ توم يستشعر عذاب الضمير في أثناء نومه طوال أسبوع كامل بعد الحادث، وبينما كانت الأسرة تتناول طعام الإفطار ذات صباح قال سيدني:

- إنك تكثر من التقلب في الفراش يا توم، وتنطق بكلمات كثيرة لم أستطع معها أنْ أنام نصف الوقت الذي اعتدت نومه! وأحس توم إنّ قلبه قد تحجر بين جنبيه واصفر لونه.

وقالت العمة بولي بلهجة جدية: هذه علامة سيئة.. ما الذي يثقل ضميرك يا توم؟

- لا شيء.. لا شيء يا عمتي.

ولكن يده ارتعشت، حتى لقد انسكب منه قدح القهوة، فقال سيدني: إنك تكثر من ترديد عبارات مخيفة. فقد سمعتك تقول في الليلة الماضية إنه دم.. إنه دم.. ولقد كررت هذا القول مرة بعد الأخرى.. كما قلت: «لا تعذبني هكذا.. سأقول كل شيء». فما الذي عساك تقوله يا توم؟

وغامت الدنيا أمام عيني توم، ولم يدرِ ما قد يحدث له، ولكن حظه الحسن لم يخذله في هذا الوقت الرهيب، إذ لم يلبث وجه العمة بولي أنْ انفرجت أساريره وقالت مُنقذة إيّاه دُون قصد:

- آه! إنها تلك الجريمة البشعة، إنني أحلم بها كل ليلة تقريبًا، وفي بعض الأحيان أحلم بأنني مرتكبها!

فقالت ماري: إنها كانت تعاني الإحساس نفسه، وبدا كأن سيدني قد اقتنع بهذا القول. وانتهز توم أول فرصة عرضت له للتسلل من الغرفة. وبعدئذ زعم أنّ أسنانه تؤلمه. وظل أسبوعًا كاملًا يطبق فكيه على بعضهما بربط منديل حول رأسه، ولكنه لم يكُن يعلم أنّ سيدني كان يرفع الرباط من مكانه ليلًا، ويرتكز فوق مرفقيه وهو يقرب أُذنه من شفتي توم

ليستمع إلى ما يقوله في نومه، ثم يعيد الرباط إلى مكانه بعد ذلك. ومع مضي الأيام. بدأ اضطراب توم النفسي ينحسر شيئًا فشيئًا، فتظاهر بأنّ أسنانه شُفيَت وبذلك تخلص من الرباط. أما سيدني فقد لاذ بالصمت المطبق، فلم يُحدِّث أحدًا عما إذا كان قد فهم شيئًا من الكلمات المتقطعة التي كان يسمعها من توم في هذيانه.

وتغير توم تغيرًا كبيرًا، فبعد أنْ كان يتزعم حلقات يعقدها الصبية الصغار للتحقيق في حوادث قتل القطط، أصبح يضيق ذرعًا بهذه الحلقات. ولاحظ سيدني أنّ توم لم يطالب في هذه الجلسات بأداء دور المحقق مع أنه اعتاد أنْ يفعل ذلك في جميع الجلسات السابقة، كما لاحظ أنّ توم لم يَقُم أيضًا بدور الشاهد، وهو أمر غريب.. كذلك لم يَخْفَ على سيدني أنّ توم كان يبدي فتورًا ظاهرًا حيال هذه الجلسات، محاولًا تجنب الاشتراك فيها كلما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ورغم ما كان يساور سيدني من دهشة إزاء سلوك توم فإنه لاذ بالصمت، ومع ذلك فإنّ توم لم يلبث أنْ تخلص من ضيقه بهذه الجلسات.. وعاد إلى حالته الطبيعية بعد أنْ تضاءل تأنيب ضميره له.

وكان توم يذهب كل يوم أو اثنين خلال تلك الفترة العصيبة، إلى سجن القرية حيث يُهرِّب كل ما يستطيع أنْ يُهرِّبه «مما يجلب الراحة» إلى السجين البريء، فقد كان السجن عبارة عن غرفة عتيقة مشيّدة عند طرف القرية، ولم يكُن هناك مَن يحرسها لأنها لم تكُن تُستخدَم إلا نادرًا. ولقد ساعدت هذه المساعدات البسيطة على تهدئة ضمير توم!

***

الفصل الثاني عشر

القطة والدواء الذي يقتل الألم

لم يكُن توم قد أفاق بعد من هول الجريمة المروعة التي وقعت على مرأى ومسمع منه، عندما حلت به كارثة جديدة… فقد اختفت بيكي ولم تَعُد تذهب إلى المدرسة! وظل توم يناضل كبرياءه أيامًا قليلة وهو يحاول أنْ ينسى كل ذكرى للفتاة، ولكن جميع محاولاته باءت بالفشل. وسرعان ما بدأ يتسكع حول منزل أبيها، فكان يقضي ساعات طويلة من الليل وهو يتمنى أنْ يرى فتاة قلبه، غير أنّ جميع آماله تبددت.. فأحس بتعاسة أليمة.. وقال لنفسه: إنها لا ريب مريضة.. فماذا عساه يفعل لو اختطفها الموت؟ وأذهلته الفكرة ولم يَعُد يهتم بالحرب ولا بالقرصنة كما فقدت الحياة بهجتها في عينيه، ولم يبقَ فيها غير الكآبة والانقباض.

وانصرف عن نفيره وأدوات قتاله، ولم يَعُد يشعر بالميل إلى العبث الذي كان مولعًا به من قبل.. واهتمت عمته بالأمر. وبدأت تجرب جميع ضروب العلاج معه، فقد كانت من أولئك الأشخاص الذين يؤمنون أعمق الإيمان بفائدة العقاقير الجاهزة، وجميع الوصفات المستحدثة للتمتع بالصحة واستعادتها، وكانت تجرب هذه الأشياء باستمرار، فكلما ظهر عقار جديد من هذا النوع كانت تنتابها حمى تجربته، لا في نفسها لأنها لم تَشْكُ يومًا من المرض وإنما في أي شخص يقع في براثنها. وكانت العمة بولي مشتركة في مجلات الصحة الدورية ونشرات أدعياء الطب؛ إذ كانت تعتقد اعتقادًا جازمًا بجدوى ما اشتملت عليه هذه النشرات من سخافات عن أحدث وسائل التهوية، وكيف يأوي المرء إلى فراشه، وكيف يستيقظ، ماذا يأكل، وماذا يشرب، وما مقدار الرياضة البدنية التي يجب أنْ يحصل عليها، والحالة العقلية التي ينبغي أنْ يكون عليها، ونوع الملابس التي يرتديها. كل ذلك كان مقدسًا في نظرها، ولكنها لم تكُن تلاحظ مطلقًا أنّ ما تحمله لها هذه النشرات اليوم يناقض ما حملته إليها منذ شهر مضى، كانت سيدة بسيطة طيبة القلب، ولهذا كانت فريسة سهلة لذلك الغش والتضليل!

وكان العلاج بالماء قد ظهر في ذلك الحين، فرأت العمة بولي فيما طرأ على توم من هزال وكآبة فرصة سانحة لتطبيق هذا العلاج، فكانت تصحبه كل صباح إلى حظيرة بقرتها حيث تسكب عليه كثيرًا من الماء البارد، ثم تجفف جسده بمنشفة خشنة كالمبرد، وتعود به إلى المنزل بعد ذلك، ثم تلفه في غطاء مبلل بالماء وتلفه بالأغطية الصوفية إلى أنْ تتطهر روحه.

ورغم كل ذلك ازداد حزن الصبي، واشتد اصفرار وجهه، وتدهورت صحته، فأضافت العمة بولي إلى ذلك العلاج الحمامات الساخنة وغيرها من مختلف أنواع التطبيب، ولكن الصبي ظل على كآبته وشروده. وعندئذ عززت العلاج بالماء بوجبات من الشوفان واللصقات، كما أخذت تقدم له مقادير كبيرة من العقاقير التي تشفي كل مرض!

ولم يَعُد توم يبالي بهذه الألوان المختلفة من التعذيب، ولكن عمته بدأت تضيق ذرعًا بحالته، وصممت على القضاء على ما يبديه من عدم مبالاة بأي ثمن.. وفي هذه الأثناء سمعت العمة بولي عن الدواء «الذي يقتل الألم» لأول مرة، فطلبت كمية منه، وما كادت تحصل عليه وتتذوقه حتى أحست ببرد الراحة يدب في قلبها.. لقد كان شبيهًا بنار في شكل سائل. وفي الحال قررت العدول عن العلاج المائي وجميع أنواع العلاج الأخرى إيمانًا بمفعول الدواء الجديد. وقدمت لتوم ملعقة منه وراحت تراقبه بمنتهى القلق لترى النتيجة، وسرعان ما اختفت مخاوفها وسرى الهدوء إلى نفسها، فقد انحسر عدم المبالاة عن الصبي مباشرة وأبدى اهتمامه أكثر مما كان يبديه لو أنها أشعلت نارًا تحته.

وأدرك توم أنّ الوقت قد حان للخروج من عزلته.. صحيح إنّ هذا اللون من الحياة قد يكون ملائمًا لحالة الجمود التي يعانيها، ولكن الموقف يستدعي إعادة النظر في ذلك اللون من الحياة! ومِن ثَمَّ راح يستعرض مختلف الخطط التي تحقق له الخروج من هذه العزلة.. وسرعان ما تذكر الدواء «قاتل الألم» وأدرك أنه وجد فيه ضالته المنشودة، فأخذ يطلب تناوله بكثرة.. حتى تضايقت عمته من إلحاحه، فأعطته الزجاجة ليتناول منها ما يشاء وقتما يشاء كيلا يزعجها بالطلب ولو كان سيدني هو الذي طلب الحصول على الزجاجة لأعطتها له وهي مطمئنة، ولكن نظرًا لأن توم هو الذي استولى عليها فقد دأبت على مراقبتها باهتمام، ولم تلبث أنْ تبينت أنّ محتويات الزجاجة تنقص باستمرار، ولكن لم يخطر ببالها أنّ الصبي كان يسد شقًا في أرض الغرفة بهذا الدواء ولا يتناوله!

وذات يوم كان توم يتهيأ لسكب الجرعة في الشق عندما أقبلت قطة عمته الصفراء وهي تقر وتتأمل الملعقة باهتمام كأنما تتوسل إلى الصبي أنْ يذيقها الدواء.

قال توم: لا تطلبي تذوقه إلا إذا كنتِ بحاجة إليه.

وأتت القطة بحركة من رأسها تدل على رغبتها في تذوق الدواء.

قال توم: يحسن بكِ أنْ تتأكدي من حاجتك إليه.

ومرة ثانية هزت القطة رأسها.

- ما دُمتِ تصرين على تذوقه فسأجعلك تتذوقينه؛ إذ ليس هناك ما يمنع من ذلك، لكن إذا لم يعجبك مذاقه فلا تلومي إلا نفسك.

وملأ توم الملعقة وقربها من فم القطة.. ففتحت القطة فمها وسكب توم محتويات الملعقة فيه، وفي التو وثبت القطة ياردتين في الهواء، ثم أطلقت مواءً شديدًا، وأخذت تثب في جميع أرجاء الغرفة وهي ترتطم بقطع الأثاث وتُسْقِط أواني الزهور وتثير الفوضى في كل ركن، وبعدئذ وقفت قائمتيها وراحت تدور حول نفسها كأنما استخفها الطرب أو تملكها الجنون، فانطلقت في كل مكان مثيرة الفوضى حيثما حلت. وفي تلك اللحظة دخلت العمة بولي الغرفة، فوجدت القطة تؤدي بعض حركاتها البهلوانية العجيبة وكأنما أرادت القطة أنْ تنهي عرضها في تلك اللحظة؛ فقذفت بنفسها من النافذة جاذبة معها ما تبقى من أواني الزهور وهي في طريقها إلى الفضاء! فجمدت السيدة العجوز في مكانها وقد استولت عليها دهشة شديدة، وراحت تتطلع إلى القطة، بينما ظل توم يضحك حتى استلقى على قفاه فوق الأرض.

قالت العمة بولي:

- توم ماذا بحق السماء يؤلم القطة؟

فقال توم لاهثًا:

- لست أدري يا عمتاه.

- إنني لم أرها على هذه الحال في يوم من الأيام يا توم فماذا جعلها تتصرف هكذا؟

فأجاب توم بلهجة رزينة: أؤكد لكِ إنني لا أعلم يا عمتي! ما أعرفه هو أنّ القطط تحب التمثيل عندما يستخفها الطرب.

- أحقًا؟

- نعم، هذا ما أعتقده.

- تعتقده؟

- نعم يا سيدتي.

ومالت العمة بولي فوق توم، فراح توم يراقبها باهتمام لا يخلو من القلق، ولكنه تبين ما ترمي إليه بعد فوات الأوان، فقد رأت طرف الملعقة بارزًا أسفل السرير، فالتقطتها وتأملتها، فانكمش توم وغض من بصره. وفي التو مدت يدها وأمسكت بأذنه وراحت تضغطها بقوة ثم قالت:

- والآن أخبرني يا سيدي، ما الذي جعلك تعالج هذا الحيوان الأبكم؟

- لقد فعلت ذلك لأن القطة لا عمة لها!

- ليست لها عمة! ولكن ما لذلك وإرغامها على تناول الدواء؟

- إنّ الأمرين متصلان أوثق اتصال. فلو أنّ لها عمة لما أعطتها هذا الدواء الذي يلهب الأحشاء!

وأحست العمة بولي بتقريع الضمير فجأة، فقد كانت عبارة الصبي أشبه بسوط ألهب ظهرها، فما يعتبر قسوة بالنسبة للقطة يمكن أيضًا أنْ يكون قسوة بالنسبة للصبي. ورق قلبها وشعرت بالأسف، وترقرقت الدموع في عينيها، ووضعت يدها على رأس توم وقالت له برفق:

- لقد أردت لك الخير يا توم.. ولا شك في أنّ هذا الخير قد تحقق.

فتأملها توم مليًا وقد التمعت عيناه ببريق الاهتمام وقال:

- إنني أعلم أنكِ تنشدين لي الخير يا عمتي.. وهذا أيضًا ما أردته أنا للقطة لقد شفاها الدواء، فمنذ أنْ قفزت من

النافذة وأنا لا أراها تتسكع هنا.

- أوه.. افعل ما بدالك يا توم، فإني أشعر بأنك تسعى لإثارتي مرة أخرى. لكن أرجوك أنْ تحاول أنْ تصبح صبيًّا مطيعًا ولو مرة واحدة، وعندئذ لن تكون بحاجة إلى تناول مزيد من الدواء.

***

ذهب توم إلى المدرسة قبل الموعد المحدد، وقد لوحظ تكرار هذه الظاهرة العجيبة يوميًا منذ أنْ استأنف توم الذهاب إلى المدرسة. وطبقًا لما جرت عليه عادته مؤخرًا، فقد انفرد توم بنفسه على مقربة من باب الملعب بدلًا من أنْ يشترك مع زملائه في اللعب.. قال لهم إنه مريض، وكان منظره يدل على ذلك. وحاول أنْ يتطلع إلى كل مكان. ولكن الواقع إنه يكثر من التطلع إلى الطريق العام، وبعد قليل أقبل چيف تاتشر فتهلل وجه توم وحدق في الصبي قليلًا ثم لم يلبث أنْ أشاح بوجهه وقد تملكه الأسف وعندما وصل چيف استقبله توم وحاول أنْ يدير دفة الحديث نحو بيكي، ولكن چيف لم يذكر شيئًا يشفي غليل توم حتى لقد ضاق هذا به فانصرف عنه وراح يراقب ويراقب لعله يلمح بيكي، ولكن خاب فَأْله فانتابه اليأس، ودخل قاعة الدراسة وقد بدا عليه الملل. وفي تلك اللحظة السوداء رأى الفتاة تدخل من باب المدرسة؛ فدق قلبه بين ضلوعه، وفي اللحظة التالية كان يندفع إلى الخارج وهو يصيح ويضحك ويدفع الفتيات هنا وهناك، ويثب من فوق السياج معرضًا حياته للخطر، ويقوم بحركاته البهلوانية المعتادة وهو يتطلع خلسة إلى بيكي ليرى إنْ كانت قد لاحظته، ولكن يبدو أنها لم تنتبه لكل ما فعله.. لأنها لم تتطلع نحوه على الإطلاق. فراح يتساءل: هل من المعقول أنها لم تنتبه لوجوده؟ واقترب منها كثيرًا وهو يطلق صيحة الحرب، واختطف قبعة أحد التلاميذ وقذف بها نحو السقف، واندفع بين جماعة من الصبيان ففرقهم في كل اتجاه، وسقط بدوره على الأرض عند قدمي بيكي حتى كاد يسقطها أيضًا، ولكنها تحولت عنه وقد شمخت بأنفها في الهواء وسمعها تقول: يا إلهي! إنّ بعض الناس يظنون أنهم ظرفاء، ولهذا يلجأون دائمًا إلى حركات بهلوانية بغيضة ليبرهنوا على أنهم ظرفاء!

وأحس توم بخديه يلتهبان ونهض متثاقلًا، ثم تسلل مبتعدًا وكأن صاعقة قاتلة قد انقضت فوق رأسه!

***

الفصل الثالث عشر

قراصنة البحار يبحرون

حزم توم أمره! كان مكتئبًا يائسًا، قال لنفسه: إنه صبي منبوذ لا صديق له، وليس هناك مَن يحبه، وإنّ الناس قد يأسفون من أجله حينما يتبين لهم أنهم هم المسؤولون عما قرر أنْ يقدم عليه. فقد بذل قَصَارى جهده ليستقيم ولكنهم لم يمكنوه من ذلك، لأنهم يريدون التخلص منه، وما دام الأمر كذلك فليكن لهم ما يريدون وليلوموه -إنْ شاءوا- على النتائج؛ إذ ما الذي يمنعهم من لومه حينما يستحق الأمر لومًا؟ وأي حق لمن لا صديق له في الشكوى؟ نعم، إنهم هم الذين أرغموه على سلوك هذا السبيل الشائك في النهاية، ومِن ثَمَّ فقد تعين عليه أنْ يحيا حياة الجريمة!

وفي هذا الوقت، كان قد قطع شوطًا بعيدًا في طريق «ميدولين» وتناهى إلى سمعه صوت ناقوس المدرسة وهو يدق، وهنا طفرت الدموع من عينيه، فقد أيقن أنه لن يسمع هذا الصوت مرة أخرى -لقد كان ذلك أمرًا عسيرًا، ولكنه أُرْغَم عليه إرغامًا، وما دام الجميع يصرون على أنْ يقذفوا به إلى عالم الجريمة، فعلى رسلهم- ولكنه يعفو عنهم.

وازداد نحيبه، وفي تلك اللحظة، التقى برفيق روحه چو هاربر، وكانت نظرات الصبي چو تدل على أنه انتوى أمرًا، كان من الواضح وإنْ اختلف الصبيان من ناحية التكوين البدني؛ فإنهما يفكران في شيء واحد. وجفف توم عينيه بكمه، وبدأ يتمتم بكلمات متقطعة تشف عن تصميمه على الهرب من هذه الحياة الشاقة، والتخلص مما يلقاه من معاملة خشنة في المنزل، والانطلاق في العالم الفسيح بغير أنْ يفكر يومًا في العودة إلى هذه الحياة المثقلة بالقيود والأغلال. وختم حديثه بالإعراب عن أمله في ألا ينساه چو.

كانت دهشة توم شديدة حينما قال له چو إنّ هذا الذي وطن عزمه عليه، هو الأمر نفسه الذي صمم عليه بدوره، وإنه إنما جاء يبحث عنه ليخبره بهذا القرار، ضربته أمه بالسوط ضربًا مبرحًا، لأنه شرب قليلًا من القشدة «الكريمة» التي لم يسبق له أنْ تذوقها، والتي لم يكُن يعرف شيئًا عنها. وكان يؤمن بأنّ أمه غير راغبة فيه وترجو أنْ يذهب عنها، وما دامت هذه رغبتها فإنّ من خطل الرأي ألا تذعن لها، وأضاف چو إنه يرجو لأمه كل خير، يأمل ألا تأسف يومًا على أنها قذفت بابنها المسكين في معترك الحياة ليتعذب ويموت!

بينما كان الصبيان يسيران جنبًا إلى جنب وهما يتجاذبان أطراف هذا الحديث الحزين، تعاهد كل منهما على الوقوف بجانب الآخر وألا يفترقا أبدًا حتى يريحهما الموت من متاعبهما، ثم راحا يرسمان الخطط.. قال چو: إنه سيصبح ناسكًا يعيش على الفتات في كهف سحيق، ثم يموت من شدة البرد والحرمان والحزن، ولكنه ما كاد يصغي إلى خطة توم حتى سلم بأنّ لحياة الجريمة مزاياها، ووافق على أنْ يصبح قرصانًا!

على مسافة ثلاثة أميال وأسفل مدينة «سانت بطرسبرج»، وعند نقطة لا يزيد اتساع نهر المسيسبي فيها عن ميل، توجد جزيرة ضيقة طويلة مغطاة بالغابات لها حاجز ضحل عند رأسها. وتأمل الصبيان المكان بعيون فاحصة، ثم قررا أنْ تصبح جزيرة «چاكسون» ميدانًا للمغامرة، ولكن لم يخطر ببالهما في تلك اللحظة أنْ يختارا ضحايا قرصنتهما.. وبعدئذ مضيا للبحث عن هاكلبري فين، وما كادا يعرضان عليه ما قرراه حتى انضم إليهما بلا تردد أو إبطاء لأن جميع سُبل الحياة كانت عنده سواء.. وبعد قليل تفرق ثلاثتهم على أنْ يتقابلوا في منتصف الليل بمكان منعزل على شاطئ النهر، وكان هذا المكان يبعد نحو ميلين عن القرية، على أنْ يحضر كل منهم أدواته، وما يستطيع أنْ يسرقه من المواد الغذائية الموجودة في منزل أسرته، ولا عجب في ذلك، ألم يقرروا الخروج على القانون؟ وقبل أنْ يحين المساء كان ثلاثتهم قد نشروا في طول القرية وعرضها إنّ المدينة ستسمع شيئًا مثيرًا في القريب العاجل، ولكنهم حرصوا على مطالبة من أفضوا إليهم بهذا النبأ المثير بالتزام الصمت وترقب الأحداث!

ونحو منتصف الليل، وصل توم ومعه «فخذة خنزير مسلوقة» وأشياء أخرى تافهة، ووقف فوق منطقة مرتفعة تشرف على مكان اللقاء، وكانت السماء مرصعة بالنجوم في تلك الليلة، كما كان السكون شاملًا أما النهر العظيم فكان يبدو كمحيط هادئ في تلك اللحظة. وأصاخ توم السمع لحظة، ولكنه لم يسمع شيئًا يعكر صفو السكون.. وعندئذ أطلق صفيرًا معينًا، وفي التو سمع صفيرًا مماثلًا صادرًا من أسفل الربوة التي كان يقف فوقها، وصفَّر توم مرتين.. فأُجِيبَ على هذه الإشارة بمثلها، وبعدئذ قال صوتًا بحذر:

- مَن هناك؟

- توم سوير المنتقم الأسود، ومَن أنتما؟

- هاك فين المشهور باسم «رد هاندد»، وچو هاربر المشهور باسم «فزع البحار»، كان توم هو الذي أطلق عليهما هذين الاسمين المستمدين من الكتب التي طالعها وأحبها قال: هذا حسن. ما هي كلمة السر؟

ونطق الصبيان بعين الكلمة المخيفة في وقت واحد بلهجة جوفاء قالا: الدم!

وعندئذ قذف لهما توم ما جلبه معه، ثم وثب في إثر ما ألقاه، فتمزقت ثيابه وتسلخ جلده، ولكنه لم يبالِ وانضم إلى زميليه في ذلك الطريق السهل الذي يمتد بطول الشاطئ أسفل المرتفع الذي وثب منه.

كان فزع البحار قد أحضر معه كتلة ضخمة من لحم الخنزير المملح، أما فين رد هاندد فقد سرق مقلاة، وكمية من التبغ، وعددًا قليلًا من سيقان أشجار الحبوب ليتخذ منها غلايين، ولكن زميليه القرصانين لم يكُن فيهما أحد يدخن أو يمضغ التبغ، فأصبح استهلاك هذا التبغ مقصورًا عليه.. وقال المنتقم الأسود: لا جدوى من البدء بالمغامرة بغير إشعال نار.. وكانت فكرته حكيمة لأن الثقاب لم تكُن معروفة في تلك الأيام كما هي الحال الآن، ولقد رأوا نارًا مشتعلة فوق عائمة على مبعدة مئة ياردة.. فقرروا الحصول على جانب منها، وجعلوا من ذلك مغامرتهم الأولى، وأخذوا يقتربون من العائمة المثبتة إلى الشاطئ بحذر وهم يهمسون بكلمة: صه! بين حين وآخر، ثم لم يلبثوا أنْ توقفوا عن السير، وقد وضع كل منهم إصبعه فوق شفتيه محذرًا زميليه، وهو يحرك يده في اتجاه مقبض خنجر وهمي ويصدر أوامره إلى زميليه بصوت هامس.. فقال توم: إذا تحرك العدو؛ أغمدا خنجريكما في صدره إلى نصليهما لأن الأموات لا يتكلمون. ولما كانوا يعلمون يقينًا أنّ أصحاب العائمة ذهبوا إلى القرية لشراء مؤونتهم أو لقضاء بعض الوقت، فقد عمدوا على الفور إلى الاستيلاء على العائمة.. وأطلقوها في النهر تحت قيادة توم، بينما تولى چو أمر المجداف الأمامي، وهاك أمر المجداف الخلفي ووقف توم في المنتصف وعقد ذراعيه فوق صدره، ثم بدأ يصدر أوامره إلى زميليه بصوت هامس.

وتجاوزت العائمة منتصف النهر، ووجه الصبيان مقدمها ناحية اليمين، ثم ألقيا مجدافيهما جانبًا، ولما كان المد منخفضًا في تلك الليلة فإنّ سرعة التيار لم تكُن تزيد على ميلين أو ثلاثة، ومضت ثلاثة أرباع الساعة بغير أنْ ينطق أحدهم بكلمة. وكانت العائمة تمر في تلك الأثناء بالمدينة البعيدة التي نام أهلها بسلام بغير أنْ يفطنوا إلى ذلك الحدث الضخم الذي كان يجري في تلك اللحظة. ووقف المنتقم الأسود ثابتًا في مكانه، وقد عقد ذراعيه فوق صدره، وهو يلقي نظرة أخيرة على مسرح مباهجه السابقة وآلامه الأخيرة، ويتمنى لو أنها تستطيع أنْ تراه في تلك اللحظة، وهو يركب البحر العاتي، ويواجه الخطر والموت بقلب لا يهاب، في طريقه إلى مصرعه وعلى شفتيه ابتسامة. كذلك كان القرصانان الآخران يلقيان بدورهما نظرة أخيرة على القرية. وظلت العائمة منطلقة في سبيلها.. وتصادف أنْ دفعها التيار خارج نطاق الجزيرة، ولكن الصبيان اكتشفوا الخطر في الوقت الملائم.. واستطاعوا أنْ يتجنبوه ويوجهوا العائمة إلى نقطة آمنة عند رأس الجزيرة، ولما شدوها إلى الشاطئ بدأوا يفحصون محتوياتها، فعثروا على شراع قديم حملوه معهم ونشروه فوق كهف بين الحشائش ليتخذوا منه مخبأ لطعامهم. أما هم فقرروا أنْ يناموا في العراء ما دام الجو معتدلًا، شأنهم في ذلك شأن القراصنة والخارجين على القانون!

وأوقدوا نارًا بجانب كتلة ضخمة من الخشب تبعد حوالي ثلاثين خطوة على حافة الغابة، وطهوا قطعة من لحم الخنزير في المقلاة، ثم تناولوا عشاءهم وهم ينعمون بأعظم قسط من السعادة.. اعتقادًا منهم أنهم تحرروا من كل قيد، واحتلوا الجزيرة العذراء غير المأهولة، والتي لا يفكر أحد من البشر في المجيء إليها. وتعاهد ثلاثتهم على ألا يعودوا إلى المدينة مطلقًا.

وحين فرغوا من تناول الطعام تمددوا فوق الحشائش، وهم يشعرون بالارتياح.

وقال توم: أليست هذه حياة مرحة؟

فقال چو: إنها لرائعة! ماذا يقولون لو استطاعوا رؤيتنا؟

- يقولون؟ لا شك في إنهم سيتلهفون على المجيء إلى هنا.. أليس كذلك يا هاك؟

فأجاب هاكلبري: أظن ذلك.. مهما يكُن مِن أمر فإنّ هذه الحياة تلائمني، فأنا لا أتوق إلى شيء أفضل من ذلك.. لأنني لم أحصل على كفايتي من الطعام في يوم من الأيام، ثم إنهم لن يستطيعوا المجيء إلى هنا لمطاردتي.

فقال توم: إنّ هذا هو لون الحياة الذي يعجبني ويعجبك، فإنك لا تضطر إلى النهوض من الفراش مبكرًا في الصباح، ولا تضطر إلى الذهاب للمدرسة، وإلى الاغتسال، وإلى كل تلك السخافات التي كنا نلام عليها.. أما چو فإنني حزين من أجله

لأنه عندما يصبح ناسكًا سيضطر إلى الإكثار من العبادة، وبذلك سيُحرَم من كثير من المتعة والمرح.

فقال چو: آه.. هذا صحيح ولكني لم أفكر كثيرًا في هذا الموضوع كما تعلم. وعلى كل حال، لقد أصبحت أفضِّل الآن أنْ أكون قرصانًا بعد أنْ جربت القرصنة.

فقال توم: إنّ الناس لا يهتمون بالدين كثيرًا في هذه الأيام مثلما كانوا يفعلون في سابق العصر والأوان. ثم إنّ مِن ضرورات حياة الناسك أنْ ينام فوق أصلب مكان يستطيع العثور عليه، وأنْ يضع قماش الجوالات والرماد فوق رأسه، وأنْ يقف في العراء في أثناء هطول المطر و....

فسأل هاك: ولماذا يضع قماش الأجولة والرماد فوق رأسه؟

- لست أدري.. ولكنهم مضطرون إلى أنْ يفعلوا ذلك، هذا هو ما يفعله الناسكون دائمًا، ومِن ثَمَّ فإنك ستُرغَم على أنْ تحذو حذوهم إذا أصبحت ناسكًا مثلهم!

فصاح هاك: هذا ما لا يمكن أنْ أقبله!

ولاذ الصبيان بالصمت، وراح هاكلبري يحشو غليونه بالتبغ، ثم أخذ قطعة من الفحم المشتعل، وأدناها من الغليون حتى أشعل التبغ، وراح ينفث الدخان زكي الرائحة في حلقات متتابعة وهو يشعر بأشد الارتياح. أما القرصانان الآخران فكانا يحسدانه على هذه الرذيلة المستحبة وهما يفكران في مزاولتها في المستقبل.

وأخيرًا سأل هاك: ما الذي ينبغي على القراصنة أنْ يفعلوه؟

فأجاب توم: أوه.. إنهم يقضون وقتهم عادة في العربدة، يستولون على السفن ويحرقونها، ويستولون على المال ويدفنونه في أماكن مخيفة في جزيرتهم حيث تسهر الأشباح والقوى الغامضة على ملاحظته، ويقتلون كل شخص في السفن و...

فقاطعه چو قائلًا: ولكنهم ينقلون النساء إلى الجزيرة لأنهم لا يقتلون النساء.

فقال توم: نعم.. إنهم لا يقتلونهن لأنهم نبلاء أشد ما يكون النبل لأن النساء يكن دائمًا جميلات أيضًا.

فأردف چو بحماس: ثم ألا يرتدون أفخر الثياب، ويتحلون بالذهب والفضة والماس؟

فسأل هاك مَن هم؟

- القراصنة.

فتطلع هاك إلى ثيابه باشمئزاز.. وقال بلهجة تشف عن الحزن والأسى: أكبر الظن إنني لا أرتدي ثيابًا تليق بقرصان، ولكني لا أملك غيرها.

فقال له الصبيان: إنه سيحصل على ثياب جميلة في المستقبل بعد أنْ يبدأوا مغامراتهم، وجعلوه يفهم أنّ أسماله البالية تصلح للبدء في المغامرات، رغم أنّ العادة جرت على أنْ يبدو القراصنة الأثرياء عملهم وقد ارتدوا أفخر ثيابهم.

وأخذ حديث الصبيان الثلاثة يخفت شيئًا فشيئًا بعد أنْ بدأ النوم يداعب جفونهم، وسقط الغليون من بين أصابع هاكلبري فين واستسلم للنوم، شأنه في ذلك شأن أي شخص نقي الضمير أضناه التعب. أما فزع البحار والمنتقم الأسود فقد لاقيا صعوبة أكثر في النوم.. فبعد أنْ أديا صلاتهما سرًا.. تمددا فوق الأعشاب، والواقع أنهما كانا يفكران في التخلي عن الصلاة تمامًا، ولكنهما خشيا الذهاب إلى مثل هذا المدى البعيد لئلا يؤدي ذلك انقضاض صاعقة مفاجئة من السماء.. وبعدئذ بدأ النعاس يتسرب إلى جفونهما.. ولكن دخيلًا أقحم نفسه عليهما في تلك اللحظة، ولم يرضَ هذا الدخيل بالخذلان.. وكان هذا الدخيل هو الضمير.. فقد بدأ الصبيان يكابدان خوفًا مبهمًا من أنْ يكونا قد ارتكبا إثمًا كبيرًا بفرارهما من أهلهما، ثم انتقل بهما التفكير بعد ذلك إلى اللحم الذي سرقاه.. وهنا بدأ عذابهما الفعلي.. حاولا أنْ يبررا فعلتهما بتذكير هذا الضمير بأنهما طالما سرقا الحلوى والتفاح عشرات المرات.. ولكن الضمير رفض أنْ يقتنع بمثل هذه المبررات الواهية، وفي النهاية خيّل إليهما ألا سبيل أمامهما للتخلص من الحقيقة الصامدة الصارخة ألا وهي إنّ الاستيلاء على الحلوى كان مجرد خطف، في حين إنّ الاستيلاء على اللحم وما يماثله من الأشياء الثمينة، إنّ هو إلا سرقة! وهو أمر ينهي الإنجيل عن إتيانه.. ومِن ثَمَّ فقد عاهد كل منهما الآخر على أنْ يبذلا كل ما في وسعهما من جهد لجعل القرصنة مهمة

شريفة لا تفسد السرقة جلالها.. وهنا هجع الضمير واستسلم القرصانان الناشئان للنوم العميق.

***

الفصل الرابع عشر

معسكر القراصنة السعيد

عندما استيقظ توم في صباح اليوم التالي، تملكه العجب.. تساءل: أين هو! ثم استوى جالسًا.. ومسح عينيه بيديه، وتلفت حوله، وسرعان ما تذكر كل شيء. كان ضوء الفجر لا يزال باهتًا، وكان هناك إحساس جميل بالهدوء والسلام في ذلك السكون المريح الذي شمل الغابة كلها، ولم يكُن يعكر هدوء الطبيعة العظيم شيء.. فلا صوت ورقة شجر تهتز، ولا أي جلبة، أو صخب من ذلك اللون الذي يسود المدن عندما يستيقظ الأحياء. أما الندى، فكان متجمعًا على شكل قطرات من الماء فوق أوراق الأشجار والحشائش، بينما تكونت طبقة من الرماد فوق النار التي كان ينبعث منها خيط رفيع من الدخان لا يلبث أنْ يبدده الهواء. وكان چو وهاك لا يزالان يغطان في نومهما.

وفي تلك اللحظة أطلق طائر بعيد نداءه المعتاد، وفي التو أجابه طائر آخر على ندائه، ثم لم يلبث توم أنْ سمع صوت طائر ينقر الخشب وشيئًا فشيئًا.. أخذ ضوء الشمس المبكرة يتغلب على ضوء الفجر الداكن، كما بدأت الأصوات تزداد وضوحًا، وذلك دبت الحياة في السكون، نفضت أعجوبة الطبيعة النوم عن نفسها، وبدأت تؤدي عملها كاشفة عن عظمتها للصبي الذي كان لا يزال مستغرقًا في التفكير. وأقبلت دودة صغيرة خضراء اللون تتلوى فوق ورقة شجرة مبللة بقطرات الندى، وهي ترفع ثلثي جسمها في الهواء من حين لآخر لتشم من حولها، ثم عادت فاستأنفت زحفها الحثيث، وعندما اقتربت الدودة من الصبي جمد هذا في جلسته كالصخر، وأخذت آماله تتألق وتخبو كلما تقدمت الحشرة منه، أو أبدت رغبة في الابتعاد عنه، وأخيرًا جاءت اللحظة الحرجة، إذ راحت الدودة تفكر وقد أنثنى جسمها في الهواء، ثم لم تلبث أنْ هبطت بإصرار فوق قدم الصبي توم.. وشعر الصبي بفيض من السعادة لأن الأساطير التي قرأها وسمعها كانت تقول: إنّ الديدان فَأْل حسن، وإنّ مَن تقترب منه دودة؛ لا بُد أنْ يحصل على ملابس جديدة، وخيّل إليه عندئذ أنّ هذه الملابس ستكون ولا شك ثياب قرصان فاخرة، وفي تلك اللحظة برز موكب مِن النمل مِن مكان مجهول، ومضى في عمله، وكانت نملة منها تكافح بقوة لتحمل عنكبوتًا ميتًا يزيد جرمه خمس مراتٍ على جرمها.. كانت تحمله بين ذراعيها وتتسلق به جذع شجرة. وتسلقت خنفسة غامقة اللون نصل عود طويل من الحشائش، فمال توم فوقها وقال لها: «أيتها الخنفسة.. أيتها الخنفسة امضي إلى منزلك لأن النار مشتعلة فيه وأطفالك وحدهم»، وانصاعت الخنفسة للنصيحة ومضت بعيدة عنه، ولم يُدهش ذلك الصبي لأنه كان يؤمن منذ زمن إنّ هذه الحشرة تصدق كل شيء يقال عن الحرائق.. وكثيرًا ما استغل الناس هذه البساطة فيها. وبعد ذلك بدأت الحشرات والهوام تخرج من مكانها وجحورها سعيًا وراء رزقها. وامتلأ الجو بزقزقة الطيور وتغريدها، وفي تلك اللحظة رفرف أبو زُريق بجناحه، ثم هبط بحركة خاطفة واستقر فوق غصن قريب من توم، وأدار وجهه ليتطلع إلى هؤلاء الغرباء باهتمامٍ شديدٍ. كما أقبل قرفدان ضخم سنجابي اللون أشبه بالثعلب، كان يجلس بين الحين والحين ليتأمل الفتيان ويحدق فيهم.. ويبدو أنّ هذه الطيور والحيوانات لم تكُن قد رأت إنسانًا من قبل في هذه الجزيرة الموحشة. ومِن ثَمَّ لم تكُن تدري أتخشى الناس أم تألفهم! وفي تلك الأثناء كانت الطبيعة قد استيقظت تمامًا ودبت فيها الحركة، وبدأت أشعة طويلة من الشمس تتسلل من خلال أوراق الأشجار الكثيفة فحطت الفراشات فوق الزهور وراحت ترفرف بأجنحتها في الهواء.

وأيقظ توم القرصانين الآخرين، ثم انطلق ثلاثتهم مبتعدين وهم يهللون، وبعد دقيقة أو اثنتين بدأوا ينزعون ثيابهم وهم يطاردون أحدهم الآخر، كانوا يتعثرون في ركضهم حتى بلغوا الماء الضحل فوق الحاجز الرملي الأبيض.. لم يكُن أحد منهم يشعر بالحنين إلى القرية الصغيرة النائمة بعيدًا وراء ذلك الفراغ المائي الكبير. ولاحظ الفتيان أنّ العائمة قد اختفت فرجحوا أنّ تيارًا قويًّا أو مدًّا بسيطًا حملها بعيدًا، وسرهم ذلك لأن اختفاءها كان بمثابة تحطيم القنطرة التي تصلهم بالمدينة.

وعادوا إلى معسكرهم وهم أشد ما يكونون نشاطًا ومرحًا وجوعًا، وسرعان ما أشعلوا نارًا.. وعثر هاك على نبع ماء بارد صافٍ قريب، واستخدم الصبية أوراق شجرة البلوط كأكوابٍ يحصلون بها على الماء العذب.. ولقد جعلتهم عذوبة الماء وجمال الطبيعة من حولهم لا يشعرون برغبة في احتساء القهوة. وبينما كان چو يُعد شرائح اللحم لوجبة الإفطار، طلب هاك وتوم منه أنْ يتريث قليلًا، ثم التقطا سنارتيهما وتقدما نحو زاوية في النهر غمرا فيها

خيط السنانير.. وفي التو حصلا على نصيبهما من السمك وفرح الصبيان بصيدهم الثمين الذي هبط عليهم من السماء.

وما إنْ فرغوا من تناول طعام الإفطار حتى تمدد توم وچو في الظل، بينما انصرف هاك إلى التدخين.. وبعدئذ انطلقوا

لاستكشاف الغابة فراحوا يطأون كتل الخشب المتعفنة، ويتعثرون في الحشائش المتشابكة وهم يضحكون ويمرحون.

وعثروا على أشياء كثيرة أثارت بهجتهم ولكنها لم تُثِرْ دهشتهم.. فقد اكتشفوا مثلًا أنّ طول الجزيرة قرابة ثلاثة أميال، وعرضها قرابة ربع ميل، وأنّ القناة الضيقة التي تفصلها عن الساحل أشبه بحوض سباحة صغير.

وعندما بدأت الشمس تنحدر نحو المغيب، عادوا إلى معسكرهم وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث. بيد أنهم لم يلبثوا أنْ ضاقوا بالحديث فقللوا منه ثم لم يلبثوا أنْ كفوا عنه.. ذلك إنّ السكون، والهدوء والإحساس بالوحدة والوحشة ملأ نفوسهم بالقلق، وسرعان ما أحسوا بالحنين إلى الوطن، ولكنهم خجلوا جميعًا من إبداء ضعفهم، ولم يجد أحدهم من الجرأة ما يسمح له الحديث عن الحنين إلى الأهل والمدينة.

كان الفتيان قد بدأوا يسمعون صوتًا غريبًا مبهمًا صادرًا من بعيد فترة من الوقت مثلما يسمع الإنسان أحيانًا صوت الساعة فلا يلقي له بالًا، ولكن هذا الصوت الغامض لم يلبث أنْ أصبح من القوة والشدة بحيث لم يَعُد في استطاعتهم أنْ يتجاهلوه. وأجفل الصبية، وتطلع كل منهم إلى الآخر، ثم أصاخوا السمع.. كان الصمت شاملًا في تلك اللحظة، ثم لم يلبث أنْ مزقه صوت مدفع قوي أُطلِقَ في تلك اللحظة.

وصاح چو مبهوتًا: ما هذا؟

فأجاب توم هامسًا: هذا غريب.. ماذا يكون هذا الصوت؟

وقال هاكلبري بلهجة تدل على الاضطراب: إنه ليس رعدًا لأن الرعد...

فقاطعه توم قائلًا: صه! اسمعا وكفا عن الكلام.

وانتظروا بعض الوقت، وخيّل إليهم أنّ دهرًا قد انقضى قبل أنْ يمزق السكون صوت المدفع مرة أخرى.

قال توم: هلموا بنا نذهب لنعرف حقيقة الأمر.

ووثبوا واقفين وأسرعوا إلى الشاطئ المواجه للمدينة، وأزاحوا الأعشاب النامية فوق الشاطئ جانبًا وتطلعوا من بينها عبر الماء، فرأوا العائمة الصغيرة على مبعدة ميل تقريبًا من القرية وهي تتأرجح مع التيار.. وبدا كأن ظهرها العريض غاص بالناس، وكان هناك عدد كبير من القوارب على مقربة من العائمة، ولكن الفتيان لم يستطيعوا أنْ يتبينوا ما يفعله أولئك الأشخاص الذين احتشدوا فوق القوارب، وبعد لحظات انبعث من العائمة صوت مخيف أعقبته سحابة كثيفة من الدخان لم تلبث أنْ انتشر من الجو.. فصاح توم:

- لقد عرفت الحقيقة الآن.. إنّ شخصًا ما قد غرق!

فقال هاك: أصبت، فقد رأيتهم يفعلون ذلك عندما غرق «بيل تيرنر» في الصيف المنصرم، إنهم يطلقون مدفعًا فوق سطح الماء حتى يجعلوا الغريق يطفو فوق صفحته، كما أنهم يجلبون عددًا من أرغفة الخبز ويحشونها بالزئبق ويلقون بها في الماء فتطفو؛ إذ إنهم يعتقدون أنّ هذه الأرغفة تمضي إلى المنطقة التي غرق فيها الشخص وتثبت هناك!

فقال چو: لقد سمعت مثل هذا القول، ولكن ما الذي يجعل الخبز يفعل ذلك.

فقال توم: ليس الخبز هو الذي يفعل ذلك.. وإنما يرجع الفضل إلى ما يقوله الناس وهم يلقون بالخبز في الماء!

فقال هاك: ولكنهم لا يقولون شيئًا في هذه المناسبات.. فقد شهدت بعضها بنفسي.

فقال توم: هذا أمر عجيب، لعلهم يقولون تعاويذهم سرًا!

ووافق الصبيان الآخران على أنّ ما قاله توم معقول، لأن رغيف الخبز الجاهل الذي لا توجهه تعويذة، لا يمكن أنْ ينصرف بمثل هذا الذكاء عندما يعهد إليه بمثل هذه المهمة الخطيرة!

قال چو: يا للشيطان! ليتني كنت معهم!

فأردف هاك: وأنا أيضًا إنني على استعداد لأن أدفع الشيء الكثير مقابل معرفة شخصية الغريق.

استمر الفتيان في الإصغاء والمراقبة. وبعد قليل طرأت على توم فكرة فصاح:

لقد علمت مَن الغريق أيها الفتيان.. إنه نحن!

وفي التو، طغى عليهم شعور بالبطولة. ها هم قد حققوا نصرًا مؤزرًا.. فقد افتقدهم الجميع فحزنوا عليهم.. إنّ قلوب أهل القرية جزعة من أجلهم.. الدموع تنهمر بسببهم.. لا شك في أنّ مَن أساءوا إلى هؤلاء الفتيان المساكين، بدأوا يتعذبون بعد أنْ تذكروا كيف كانوا يعاملونهم بلا شفقة أو رحمة، ويأسفون على ما جنت أياديهم. وأحس الصبيان الثلاثة أنهم أصبحوا حديث أهل المدينة جميعًا فشعروا بالفخر، وأيقنوا أنّ القرصنة عمل رائع.

وعندما انتشر الظلام، عاد القراصنة إلى معسكرهم، وهم يشعرون بالزهو والغرور لما اتصفوا به من عظمة وما سببوه من متاعب! واصطادوا سمكًا طهوه وأطعموا به، ثم راحوا يتخيلون ما يقوله أهل المدينة عنهم، ولقد شعروا بارتياح شديد حينما أخذوا يرسمون صورًا للجزع العام الذي سببه اختفاؤهم لأهل القرية من وجهة نظرهم! ولكن عندما شملتهم ظلمة الليل كفوا عن الكلام، وظلوا يحدقون في النار، وقد شرد تفكيرهم! ولم يستطع چو وتوم أنْ يطردا عنهما شبح الحنين إلى الوطن، لم يلبث الحنين أنْ تحول إلى اضطراب وشقاء.. فانفلتت التنهدات من بين شفتيهما دُون أنْ يفطنا إليها.. وشيئًا فشيئًا بدأ چو يحوم في حديثه بحذر حول ما عسى أنْ يشعر به الآخرون عندما يرونهم عائدين إلى الوطن بعد مغامرتهم الباسلة.

وانكمش توم نافرًا من الفكرة.. وانضم هاك سريعًا إلى توم في معارضة الفكرة، فأسرع چو يوضح لهما موقفه ويؤكد لهما أنه لم يشعر إطلاقًا بالحنين إلى الوطن.. وهكذا قمع العصيان في مهده.

وعندما مضى بعض الليل، بدأ النعاس يداعب جفني هاك، ولم يلبث أنْ ارتفع غطيط الصبي. وسرعان ما حذا چو حذوه، أما توم فقد ظل ممددًا فوق بطنه، وقد اعتمد ذقنه بيديه، وراح يراقب زميليه باهتمام وأخيرًا نهض واقفًا بحذر، وأخذ يبحث بين الحشائش على -ضوء النار المشتعلة- حتى عثر على عدد من لفافات لب الشجر الرفيعة، ففحصها بعناية، ثم اختار منها اثنتين، خيّل له أنهما يلائمان الغرض الذي يسعى إليه.. وركع بجوار النار، واستعان بأداة حادة ليكتب شيئًا على كل من اللفافتين بعد أنْ نشرهما أمامه، ثم لف إحداهما ووضعها في جيب سترته، أما الأخرى فقد وضعها في قبعة چو بعد أن أبعدها قليلًا عن صاحبها.. كما وضع في القبعة بعض كنوزه المدرسية التي يعتز بها أشد الاعتزاز؛ كان من بين هذه الكنوز قطعة من الطباشير، وممحاة على شكل كرة، وثلاث سنانير، وبلية من الرخام، ثم سار فوق أصابع قدميه مبتعدًا بحذر بين الأشجار حتى تأكد من أنه أصبح بعيدًا عن نطاق السمع.. وعندئذ انطلق يركض في اتجاه الحاجز الرملي.

***

الفصل الخامس عشر

توم يزور المنزل خلسة

بعد دقائق قليلة، كان توم يخوض في ماء الحاجز الضحل في طريقه إلى الشاطئ «إلينوي»، وقبل أنْ يبلغ منتصف الحاجز أخذ التيار يعاكسه. ومِن ثَمَّ أخذ يسبح بثقة وقوة حتى قطع المئة الياردة التي تفصله عن الشاطئ المقابل، فلما بلغه وضع يده في جيب سترته فعثر على لفة لباب الشجر سليمة، وعندئذ خطا إلى الغابة وهو يتتبع الشاطئ والماء يتقاطر من ثيابه. وقبل أنْ تبلغ الساعة العاشرة بقليل خرج إلى منطقة مكشوفة مواجهة للقرية، فرأى عائمة بخارية رأسية في ظل الأشجار والساحل المرتفع.. كان كل شيء هادئًا تحت النجوم المتألقة، وزحف الصبي حتى بلغ الشاطئ هو يتطلع في كل اتجاه بحذر شديد، ثم تسلل إلى الماء وسبح قليلًا حتى وصل إلى العائمة فتسلقها.. وانكمش أسفل عوارضها وانتظر بصبر.

وبعد قليل دق ناقوس العائمة، وأصدر شخص أمرًا بالإبحار، وإنْ هي إلا دقيقة أو نحوها حتى تحركت العائمة وبدأت رحلتها، وشعر توم بسعادة غامرة لما حققه من نجاح.. لأنه كان يعلم أنّ هذه هي آخر رحلة للعائمة في تلك الليلة. وبعد قرابة ربع ساعة، توقفت العائمة عن الحركة، فتسلل توم من مكانه وهبط إلى الماء، ثم سبح إلى الشاطئ في الظلام، وخرج عند نقطة تبعد عن العائمة حوالي خمسين ياردة ليكون بمأمن من عيون الرقباء.

وانطلق في الطرقات غير المطروقة، وبعد دقائق ألفى نفسه أمام السياج الخلفي لمنزل عمته، فتسلقه وتقدم من البناء الملحق بالمنزل، وتطلع من نافذة غرفة الجلوس؛ فقد كان الضوء ينبعث منها، وعندئذ رأى العمة بولي وسيدني وماري وأم چو هاربر جالسين في الحجرة وهم يتحدثون، كانوا يجلسون بجوار الفراش، وكان الفراش يفصلهم عن الباب. ومِن ثَمَّ فقد تقدم توم من الباب، وبدأ يرفع مزلاجه برفق، ثم ضغط الباب بلطف، ففتح قليلًا، واستمر الصبي يدفع الباب بحذر، وينتفض كلما صدر عنه صرير حتى اطمأن إلى أنّ في إمكانه أنْ يسترق السمع!

قالت العمة بولي: ما الذي يجعل لهب الشموع يهتز هكذا؟

وأسرع توم بالدخول، واستطردت عمته تقول ما هذا؟ إنّ الباب مفتوح، نعم.. إنه مفتوح، لست أدري إلى متى ستحدث هذه الأشياء الغريبة.. هيا اذهب وأغلقه يا سيدني.

واختفى توم أسفل الفراش في الوقت المناسب. وقبع في مكانه بعض الوقت ريثما تهدأ أنفاسه، ثم زحف حتى كاد يلمس قدمي عمته.

قالت العمة بولي: كنت أقول إنه لم يكُن شريرًا، كان شقيًّا فقط.. نعم، كان طائشًا فحسب. إنه لم يكُن يقصد تحطيم قلبي، كما أنه كان أطيب الصبية قلبًا، ويجب علينا ألا نحمّله من المسؤولية أكثر مما ينبغي.

وبدأت العمة بولي تنتحب.. فقالت «مسز هاربر»:

- كذلك كان الأمر بالنسبة لابني چو، كان شقيًّا أبعد ما تكون الشقاوة، ولكنه لم يكُن أنانيًّا. وكان عطوفًا فليغفر لي الله ما عاملته به من قسوة، فقد ضربته بالسوط لأنه شرب القشدة «الكريمة»، وكنت قد نسيت أنْ أتخلص منها لأنها فسدت. لكني لن أراه مرة أخرى في هذا العالم.. لن.. لن.. مسكين هذا الصبي!

وبدأت «مسز هاربر» تبكي بحرقة، خيّل لتوم إنّ قلبها يوشك أنْ ينفجر.

فقال سيدني: أرجو أنْ يكون توم سعيدًا حيث هو الآن، ولكن كان ينبغي...

فقالت العمة بولي بلهجة جعلت توم يعتقد أنّ عمته تتطلع شذرًا إلى سيدني:

- سيدني! لا تنطق بكلمة واحدة ضد توم ما دام قد رحل عنا! إنّ عناية الله ترعاه.. ولا تزعج نفسك من أجله يا سيدني. أوه.. يا مسز هاربر، لست أدري كيف أنساه وأستسلم للقدر! لست أدري! لقد كان مصدر الراحة لقلبي رغم ما كان يبديه من عبث يعذبني.

ثم قالت والدة چو:

- «الرب أعطى.. الرب أخذ فليكن اسم الرب مباركًا»(1) لكن الموقف عصيب مؤلم.. أواه! إنه موقف شديد الإيلام! ففي يوم السبت الماضي فقط «فرقع» ابني چو كبسولة أمامي فلطمته بعنف؛ فسقط على الأرض.. إنني لم أكُن أعلم

أنني سأفقده عما قريب.. أواه! لو أنّ الأيام عادت القهقرى ثانية، لاحتويته بين أحضاني وباركته على ما فعل!

- نعم.. نعم.. نعم.. إني أقدر إحساسك حق قدره يا مسز هاربر، فعند ظهر أمس أمسك توم بالقطة وملأ جوفها بالدواء «قاتل الألم»، حتى خيّل إليّ أنّ القطة ستحطم المنزل تحطيمًا.. فليرحمني الله، فقد قرصت أُذن توم المسكين بعنف.. توم المسكين الميت.. ولكنه تخلص من جميع متاعبه الآن.. لقد كانت آخر كلماته سمعتها منه تأنيبًا.

ولم تحتمل أعصاب المرأة العجوز هذه الذكرى، فانخرطت في بكاء شديد.. أما توم فقد أحس في تلك اللحظة بالأسف من أجل نفسه أكثر من إحساسه به من أجل أي شخص آخر، وكان في استطاعته أنْ يسمع ماري وهي تنتحب وتنطق بكلمة تكشف عن عطفها عليه بين حين وآخر. وعندئذ بدأ يعتبر نفسه أنبل مما كان يظن في أي يوم من الأيام، ولقد طغى عليه التأثر لما أبدته عمته من حزن مفرط، حتى لقد كان يتمنى لو أنه اندفع خارجًا من تحت الفراش ليشبعها لثمًا وتقبيلًا، ولكنه دفع عن نفسه هذا الخاطر على الفور!

ومضى توم يصغي، فاستطاع أنْ يعلم من الحديث الذي دار بين السيدتين أنّ أهل القرية ظنوا بادئ الأمر أنّ الصبيين توم وچو ذهبا ليستحما في النهر فغرقا، ولكن ما أنْ اكتشف اختفاء العائمة، وما أنْ ذكر بعض الصبيان أنّ الصبيين المفقودين كانا قد قالا إنّ القرية ستسمع أنباء مُهمة عمَّا قريب.. حتى أدرك الجميع أنّ الصبيين هربا بالعائمة وأنهما لن يلبثا أنْ يظهرا في المدينة المجاورة عمَّا قريب.. ولكن العائمة وُجِدَت عند الظهر مرتطمة بشاطئ المسيسبي على مبعدة قرابة خمسة أو ستة أميال جنوب القرية... وعندئذ ضاع الأمل وأيقن الجميع أنّ الصبيين لا بُد قد غرقا وإلا فإنّ الجوع كان خليقًا بأنْ يحملهما على العودة إلى المنزل عند حلول الظلام.. وإنْ لم يكُن قبل ذلك وكان المعتقد أنّ البحث عن جثتيهما يُعْتَبر مجهودًا ضائعًا، لأنهما إذا كانا قد غرقا فلا بُد أنهما غرقا في قلب التيار.. كما أنهما كانا يجيدان السباحة، وبذلك كان بوسعهما أنْ يصلا سالمين إلى الشاطئ ما لم يجرفهما التيار، وإذا كان ذلك في ليلة الأربعاء، قدَّر سكان القرية أنه إذا ظل الصبيان غائبين حتى يوم الأحد.. فلن يكون ثمَّة أمل في العثور عليهما، ومن ثَمَّ تُقام لهما صلاة الموتى في صباح ذلك اليوم.

وانتفض توم..

ونهضت مسز هاربر متثاقلة، وتعانقت المرأتان وهما تنتحبان، ثم حاولت كل منهما أنْ تهدئ من روع الأخرى، وأخيرًا افترقتا.. ولقد كانت العمة بولي رقيقة بشكل لم يسبق له مثيل عندما حيّت سيدني وماري قبل ذهابها إلى مخدعها.. ولاحظ توم أنّ سيدني كان شامخًا بأنفه، بينما كانت ماري تبكي بحرقة.

وركعت العمة بولي على ركبتيها وراحت تصلي من أجل توم بحرارة، وكانت كلماتها تكشف عن حب عميق كما كان صوتها مؤثرًا حتى لقد انهمرت الدموع بشدة من عيني الصبي قبل أنْ تفرغ عمته من صلاتها.

واضطر توم إلى التزام السكون فترة طويلة بعد أنْ صعدت عمته إلى فراشها لأنها كانت لا تفتأ تتنهد بقوة، وتتقلب من جنب إلى آخر، وتنطق بكلمات مفعمة باللوعة والحزن، ولكن النوم لم يلبث أنْ غلبها على أمرها فاستسلمت له.. وعندئذ تسلل الصبي من مخبأه ونهض ببطء حتى وقف بجوار الفراش، وظلل الشمعدان بيده، وراح يتأمل عمته، وقد أفعم قلبه بالعطف عليها، ثم أخرج اللفافة المكتوبة من جيبه ووضعها بجوار الشمعدان.. ولكن خاطرًا طرأ على باله جعله يتريث طويلًا، ثم أسرع فأعاد اللفافة إلى جيبه على عجل.. وتهلل وجهه في تلك اللحظة فقد استقر رأيه على أمرٍ.. وفي اللحظة التالية انحنى وقبل شفتي عمته النائمة بحذر.. وبعدئذ تسلل من الباب بهدوء وأغلقه خلفه بالمزلاج.

وعاد أدراجه إلى مرسى العائمة، وإذ لم يجد بها أحدًا، صعد إلى سطحها بشجاعة.. لأنه كان يعلم أنّ حارسها الهرم اعتاد أنْ ينتهز كل فرصة تسنح له للاستمتاع بإغفاءة طويلة يود لو أنها استمرت إلى الأبد! وفك السلسلة التي تشد العائمة إلى الشاطئ، وبعد لحظات كان يجدف بحذر مبتعدًا بالعائمة عن القرية.. فلما أصبحت المسافة بينه وبين القرية ميلًا بدأ يعمل بكل نشاط حتى استطاع أنْ يصل إلى البر الثاني بسهولة، فقد كان مثل هذا العمل مألوفًا لديه، وأحس برغبة ملحة تدعوه إلى الاستيلاء على العائمة.. وراح يجادل نفسه قائلًا إنه يمكن اعتبارها سفينة، ومِن ثَمَّ فإنها تكون غنيمة مشروعة للقرصان، ولكنه كان يعلم أنْ أصحابها لن يلبثوا أنْ يقلبوا الأرض بحثًا عنها، وقد يؤدي ذلك إلى افتضاح أمره وأمر زميليه، ومِن ثَمَّ فقد هبط منها إلى الشاطئ وتركها وشأنها، ثم سار مسرعًا نحو الغابة.

وجلس فترة طويلة ريثما يستريح، وبذل مجهودًا جبارًا حتى يظل مستيقظًا، وبعدئذ بدأ رحلته إلى المعسكر، وكان الليل

قد أوشك على الانتهاء. وعندما وصل إلى الحاجز كان النهار قد طلع.. فاستراح ثانية حتى ارتفعت الشمس في كبد السماء، ثم عبر النهر سباحة، وبعد قليل وقف على أبواب المعسكر وثيابه تقطر ماء.

وسمع چو يقول: كلا يا هاك.. إنّ توم صبي شريف سيعود ثانية إنه لن يهرب، لأنه يعلم أنّ الفرار عمل شائن بالنسبة للقرصان، وتوم شديد الكبرياء من هذه الناحية، لا أشك في أنه ذهب ليأتي لنا بشيء ما.. ترى ما هذا الشيء؟

- على أي حال، أعتقد أنّ هذه الأمتعة أصبحت ملكًا لنا.. أليس كذلك؟

- تقريبًا ولكن ليس بصفة نهائية، فإنّ الرسالة تقول إنّ هذه الأشياء تصبح ملكًا لنا إذا لم يَعُد في موعد تناول الإفطار.

وصاح توم وهو يبرز من خلف إحدى الأشجار، ويتقدم بعظمة وخيلاء نحو المعسكر:

- ولقد أوفيت بوعدي.

وتناول الفتيان طعامًا شهيًّا مكونًا من السمك واللحم المقدد، وراح توم يقص على زميليه أنباء مغامرته بكثير من التنميق، وعندما انتهت قصته كانوا جميعًا يشعرون بأنهم أبطال. وبعدئذ اختفى توم في ركن ظليل لينام حتى الظهر، أما القرصانان الآخران فقد استعدا لصيد السمك والاستكشاف.

***

منقولة عن آية وردت في الإنجيل استخدمها المؤلف بنصها.

الفصل السادس عشر

الصبية يدخنون

بعد أنْ تناولوا طعام الغداء، انطلقوا يبحثون عن بيض السلحفاة البحرية، واستخدم الصبيان الثلاثة العصا في البحث عن هذا البيض المدفون في الرمل، وحين عثروا على بقعة لينة جثوا فوق ركبهم وحفروا بأيديهم، وكانوا يخرجون بين الحين والحين عددًا يتراوح بين خمسين وستين بيضة من حفرة واحدة، وكان كل هذا البيض أشبه بكرات صغيرة بيضاء أصغر حجمًا من الجوز الإنجليزي. وفي تلك الليلة، تناول الفتيان عشاء شهيًّا مكونًا من البيض المقلي.. كما تناولوا وجبة إفطار رائعة منه أيضًا في صباح يوم الجمعة.

وبعد أنْ فرغوا من تناول طعام الإفطار، انطلقوا يتصايحون ويتواثبون فوق الحاجز الرملي، يطارد أحدهم الآخر في دوائر واسعة وهم يخلعون ثيابهم في أثناء عدوهم حتى أصبحوا عرايا، واستمروا في هذه المطاردة وهم يخوضون في الماء الضحل، ثم في قلب التيار القوي الذي لم يلبث أنْ أفقدهم توازنهم فكانوا يسقطون على وجوههم في الماء؛ فيزدادون مرحًا وصخبًا وكانوا يتجمعون معًا من آن لآخر، فيقذف كل منهم وجه صاحبيه بالماء، ويحاول كل منهم أنْ يخل بتوازن زميليه، فيسقطون جميعًا في الماء وقد تشابكت سيقانهم وأياديهم البيضاء، ثم يصعدون إلى سطح الماء وهم يضحكون ويشهقون في وقت واحد.

وحينما كان الإعياء يستولى عليهم.. كانوا يخرجون من الماء ويركضون على الشاطئ، ثم يتمددون فوق الرمل الجاف الدافئ، ويغطون أجسامهم بطبقة من هذا الرمل، وبعد قليل من الراحة كانوا يستأنفون السباحة والعبث مرة أخرى.. وأخيرًا خطر لهم أنّ جلدهم العاري أشبه كثيرًا بجلود البهلوانات فرسموا حلقة فوق الرمل جعلوا منها سيركًا.. وانطلقوا يؤدون أدوار البهلوانات!

وبعدها انصرفوا إلى لعب البلي، وظلوا يتلهون بذلك إلى أنْ ضاقوا به. ثم ذهب چو وهاك للاستحمام مرة أخرى.. أما توم فقد رفض لأن طلسمًا «حجابًا» كان يعتز به ويؤمن بأنه يقيه شر الخطر قد فُقِدَ منه وهو يخلع سرواله، ولم يجرؤ على السباحة بعدئذ إلا بعد أنْ عثر عليه. وراح الأولاد الثلاثة يتسكعون هنا وهناك منفردين، وإذا أصبح كل منهم بعيدًا عن الآخر راح كل منهم يتطلع بشوق وحنين عبر النهر العريض إلى حيث توجد القرية الهادئة. وألفى توم نفسه يكتب اسم بيكي بإصبع قدمه فوق الرمل، ولكنه أسرع فمحاه، وثار على نفسه لما بدا منه من ضعف، ولكنه كتب الاسم مرة أخرى، فما كان في وسعه أنْ يقاوم القوة الخفية التي كانت تدفعه إلى ذلك، ومحا الاسم ثانية وإذا أراد أنْ يتخلص من هذا الإغراء نادى زميليه وانضم إليهما.

ولكن روح چو المعنوية كانت قد انهارت تمامًا، كان يشعر بحنين جارف إلى الوطن حتى أنه لم يَعُد يحتمل ما كان يعانيه من شقاء وتعاسة، وترقرقت الدموع في عينيه. وكان هاكلبري مغمومًا أيضًا، أما توم فكان مثقل القلب بدوره، ولكنه بذل قَصَارى جهده كيلا يفضح نفسه، كان يكتم سرًا، ولكنه لم يكُن على استعداد للإفضاء به في تلك اللحظة، وقرر أنْ يحتفظ به إلى أنْ يشق زميلاه عصا الطاعة ويتمردا.. وعندئذ قد يفضي به إليهما.

قال متظاهرًا بالمرح: أراهن أنه كان بهذه الجزيرة قراصنة.. ومِن ثَمَّ يحسن بنا أنْ نقوم بجولات استكشافية أخرى.. لا شك في أنّ هؤلاء القراصنة دفنوا كنوزهم في مكان ما بهذه الجزيرة.. ترى ماذا سيكون شعوركما عندما تعثران على صندوق عتيق مملوء بالذهب والفضة؟

ولكن ذلك لم يَثِرْ في الصبيين إلا قدرًا ضئيلًا من الحماس لم يلبث أنْ اختفى.. كما أنّ أحدًا منهما لم يجب على سؤال توم، وحاول توم أنْ يثير حماس الصبيين بشتى الوسائل، ولكنه أخفق.. فقد راح چو يعبث بالرمل بعصاه القصيرة وقد بدت على وجهه علامات الاكتئاب الشديد.. وأخيرًا قال چو:

كفى مغامرة ولنَعُد إلى المنزل، فإنّ.. فإنّ العزلة هنا لا تطاق.

فقال توم: أوه.. كلا يا چو.. ستتحسن حالتك ألا تفكر في صيد السمك هنا؟

- لست أعبأ بصيد السمك، إنني أريد العودة إلى المنزل.

- لكنك لن تجد مكانًا يصلح للسباحة كهذا المكان.

- إنني لا أهتم كثيرًا بالسباحة.. وما كنت لأمارسها لولا أنني أُرغَمت على ذلك.. ومهما يكُن الأمر، فإنني مصمم على

العودة إلى المنزل.

- كفى هذيانًا أيها الطفل! أكبر الظن إنك تريد أنْ ترى أمك!

- نعم أريد أنْ أرى أمي، إنك لا تشعر بقوة الحنين إلى الأم.. لأنك لا أم لك!

وشمخ چو بأنفه قليلًا، فقال توم ساخرًا:

- حسنًا.. فلندع الطفل الباكي يرجع إلى أمه أليس كذلك يا هاك.. مسكين هذا الطفل، إنه يريد أنْ يرى أمه! ليكُن ما يريد.. إنك تحب هذا المكان يا هاك أليس كذلك؟ سنبقى إذن.. ألا توافقني؟

فقال هاك بلهجة يشوبها التردد: نعم.. نعم.

وقال چو وهو ينبعث واقفًا: لن أخاطبك يا توم ما حييت.. إنني ذاهب.

وابتعد عن زميليه وشرع يرتدي ثيابه.

فقال توم: لست آبه لذلك! إنّ أحدًا لا يريد منك أنْ تخاطبه.. عُد إلى القرية لكي يسخر الجميع منك. يا لك من قرصان جريء شجاع! أما هاك وأنا فلسنا طفلين باكيين.. دعه يذهب إذا أراد يا هاك.. فأكبر ظني أننا نستطيع أنْ نمضي في حياتنا هنا من دُونه.

ورغم ذلك كان توم يشعر بالقلق، وقد أفزعه أنْ يرى چو يمضي في ارتداء ثيابه بغير اكتراث.. وزاد قلقه حينما لاحظ أنّ هاك يتأمل استعداد چو للرحيل بحسد، لائذًا بصمت لا يبشر بالخير.. وأخيرًا وبغير كلمة وداع، بدأ چو سيره نحو شاطئ «إلينوي»، فغاص قلب توم بين جنبيه، وتطلع إلى هاك، ولم يستطع هاك احتمال نظرته فغض من بصره، ثم قال:

- أنا أيضًا أريد أنْ أمضي، كانت الوحدة هنا لا تطاق منذ بادئ الأمر؛ وأحسب أننا لن نطيقها بعد اليوم.. دعنا نذهب أيضًا يا توم، كلا.. لن أذهب يمكنكما أنْ تذهبا إنْ شئتما أما أنا فلن أغادر هذا المكان.

- توم، يحسن بي أنْ أمضي.

- حسنًا.. اذهب، مَن الذي يمنعك؟

وبدأ هاك يلتقط ثيابه المبعثرة وقال:

- لكم أتمنى أنْ تأتي معنا يا توم.. وعلى أي حال سننتظرك عند الشاطئ.

فقال توم: يمكنني أنْ أقول لك إنكما ستنتظران طويلًا.

وابتعد هاك آسفًا.. وبقيَ توم يتبعه بنظره، وقد طغت عليه رغبة جارفة في التخلي عن كبريائه والانضمام إلى زميليه.. وكان يأمل أنْ يتوقف الصبيان عن سيرهما، ولكنهما مضيا لا يلويان على شيء. وفجأة خيّل لتوم أنّ وحشة المكان وهدوءه أصبحا لا يطاقان.. ولكنه ناضل كبرياءه نضالًا جبارًا، وأخيرًا انطلق في إثر صديقيه وهو يصيح:

- انتظرا.. انتظرا! فإني أريد أنْ أقول لكما شيئًا!

وتوقف الصبيان عن السير، وتحولا إليه، وعندما لحق بهما، بدأ يكشف لهما عن السر، فأصغيا إليه بهدوء.. حتى إذا ما فطنا إلى الهدف الذي كان يرمي.. راحا يطلقان صيحات الحرب، ويصفقان في مرح قائلين إنّ الفكرة رائعة، ثم أضافا أنه لو كان قد حدثهما بحقيقة الأمر منذ البداية لما فكرا في الرحيل. وفي الحق أنّ توم لم يفصح لهما بالسر الحقيقي خوفًا من أن يجعلهما هذا السر يبقيان معه طويلًا، ومِن ثَمَّ حرص على إبقائه طي الكتمان ليستعمله كوسيلة إغراء نهائية.

وعاد الصبيان أدراجهما إلى معسكرهما، وقد استبد بهما الفرح واستأنفا رياضتهما، وراحوا جميعًا يتجاذبون أطراف الحديث في خطة توم الرائعة، ويبدون إعجابهم بما انطوت عليه من عبقرية. وبعد أنْ تناولوا عشاء مكونًا من البيض والسمك، قال توم إنه يريد أنْ يتعلم التدخين وأعجبت الفكرة چو فقال إنه يرغب أيضًا في تجربة التدخين.. وفي التو أعدَّ هاك لهما غليونين حشاهما بالتبغ.. ولم يكُن الصبيان قد مارسا التدخين من قبل، فتمددا على الأرض وارتكزا على مرفقيهما وراحا يدخنان، وكان للدخان طعم غير مستساغ.. ومِن ثَمَّ فقد زمَّا شفتيهما قليلًا ولكن توم قال:

- إنّ التدخين أمر سهل جدًا لو أنني كنت أعرف أنّ ذلك هو كل ما في الأمر لتعلمته منذ أمد طويلٍ.

وقال چو: وأنا كذلك.. إنه عمل بسيط جدًّا.

فقال توم: كثيرًا ما تأملت المدخنين، وتمنيت أنْ أكون مثلهم، ولكن لم يخطر ببالي مطلقًا إنني أستطيع مجاراتهم.

فقال چو: ذلك هو شأني أيضًا أليس كذلك يا هاك؟ ألم أقُل لك ذلك من قبل؟

فقال هاك: نعم.. لقد قلت لي ذلك مرارًا وتكرارًا.

فقال توم: أنا أيضًا قلته لك مئات من المرات.. وقلته لك مرة ونحن عند المجزر.. ألا تذكر ذلك يا هاك؟ لقد كان «بوب تانر» و«چوني ميلر» و«چيف تاتشر» موجودين عندما قلت ذلك.. هل تذكر ذلك يا هاك؟

فأجاب هاك: نعم.. هذا صحيح، لقد كان ذلك في اليوم اللاحق لليوم الذي فقدت فيه المدية البيضاء.. كلا، بل كان ذلك في اليوم السابق له.

فقال توم: ها هو يذكر المناسبة.

وقال چو: أعتقد أنّ في استطاعتي أنْ أدخن الغليون طوال النهار.. فإنني لا أشعر بأي دوار.

فقال توم: ولا أنا أيضًا.. إنني أستطيع أنْ أمضي في التدخين طوال اليوم، ولكني أراهن على أنّ چيف تاتشر لا يستطيع ذلك.

- چيف تاتشر! لا شك في أنه سيسقط إعياء إذا حاول التدخين. دعه يجرب وسيرى.

- نعم سيرى.. وكذلك چوني ميلر، كم أود أنْ أرى چوني ميلر يدخن الغليون.

فقال چو: إنني أراهن على أنّ چوني ميلر لا يستطيع أنْ يدخن الغليون.. إنّ نفسًا واحدًا كفيل بأنْ يطرحه أرضًا!

- بالطبع يا چو، بودي لو استطاع الصِبْية أنْ يشاهدوا ما تفعل الآن.

- وأنا أيضًا بودي ذلك.

وهنا تدخل هاكلبري في الحديث قائلًا:

- هل أدلكم على طريقة تجعلكم أبطالًا في نظر هؤلاء الصبية؟

عندما نعود إلى الوطن، سأسألك أمامهم هل معك غليون يا چو؟ إنني أريد أنْ أدخن. فتقول بلهجة تظهر كما لو أن الأمر تافهًا جدًّا.. تقول: «نعم.. إنّ معي غليوني القديم وغليونًا آخر.. ولكن التبغ الذي معي ليس جيدًا»، فأقول: «أوه! حسنًا.. يكفي أنْ يكون قويًّا بدرجة كافية»، وعندئذ تُخرِج الغليونين ويشعل كل منا غليونًا، ثم نراقب النظارة!

- يا إلهي! سيكون ذلك متعة مدهشة.. بودي لو حدث ذلك الآن.

وقال توم:

- وأنا أيضًا أود ذلك.. ثم ألا تظن أنهم سيتمنون لو أنهم كانوا معنا عندما نقول لهم إننا تعلمنا التدخين حينما كنا نلعب دور القراصنة؟

- أراهن على أنهم سيتمنون ذلك.

وعلى هذا النحو سار الحديث، ولم يلبث أنْ فتر بعد قليل، ثم تقطع وطالت فترات الصمت.. وكثر بصاق الصبيين توم وچو، وأصبحت جميع مسام خديهما أشبه بينبوع ماء متدفق، ولم يستطيعا السيطرة على اللعاب الغزير الذي بدأ ينْسَال من أسفل لسانيهما ويجرى في حلقيهما.. واصفر وجهاهما، وبدت عليهما علامات الضيق والتعاسة، ولم يلبث غليون چو أنْ سقط من بين أصابعه التي فقدت إحساسها العصبي، وأعقبه غليون توم.. وما لبث چو أنْ قال بإعياء:

- لقد فقدت مديتي وأظن أنه يحسن بي أنْ أذهب للبحث عنها.

فقال توم: بشفتين مرتعشتين وفي كلمات متقطعة:

- سأعاونك في البحث عنها.. امضِ أنت في هذا الطريق، وسأمضي أنا في ذاك.. أما أنت يا هاك فابق حيث أنت.

وهكذا لزم هاك مكانه.. ومضت ساعة ولم يَعُد الصبيان، وعندما أحس هاكلبري بشدة وطأة الوحدة، مضى يبحث عن

زميليه.. ووجدهما في مكانين متباعدين في الغابة، وكان كل منهما مصفر الوجه وهما مستغرقان في نوم عميق.

ولم يكثر الصبيان من الحديث في تلك الليلة، وكانت نظراتهما تدل على الضيق.. وعندما أعد هاك غليونه بعد العشاء، وشرع يَعِد لهما غليونيهما.. رفضا ذلك قائلين إنّ حالتهما الصحية ليست على ما يرام، وأضافا أنهما يعتقدان أنّ شيئًا ما في الطعام الذي تناولاه لم يلائم معدتيهما.

واستيقظ جو في منتصف الليل، ونادى زميليه، كان الجو شديد الركود، مقبضًا ينذر بالشر، وتجمع الصِبْية معًا واقتربوا من النار، رغم أنّ الجو كان حارًا يكتم الأنفاس.. وجلسوا جامدين وهم يصيخون السمع ويترقبون.. واستمر الصمت الكئيب. وفيما وراء نطاق النار المشتعلة كان الظلام دامسًا، وفجأة، ومض ضوء أنار الغابة كلها، ثم اختفى.. وبعد لحظة، ومض الضوء مرة أخرى، وكان أقوى قليلًا في هذه المرة.. وأعقبته ومضة ثالثة، وعلى إثر ذلك سمع الفتيان صوتًا أشبه بتأوه ضعيف يتردد بين أغصان الأشجار.. وأحسوا كأن أنفاسًا عابرة تلفح وجوههم، فانتفضوا جزعًا.. فقد توهموا أنّ روحًا خفية مرت بهم، ثم سادت فترة من الصمت. ولكن لم تلبث ومضات الضوء أنْ تتابعت وحولت الليل إلى نهار، فصاروا يميزون أعواد الحشائش التي حولهم بوضوح، أما الفتيان أنفسهم فقد اصفرت وجوههم. وفي اللحظة التالية اهتزت الأرض إثر هزيم رعد شديد أخذ يتحرك بطول السماء وعرضها ليتلاشى على البعد السحيق.. وهبت ريح باردة محملة بالبرد الصغير الذي غطى أوراق الأشجار.. وتناثر فوق النار المشتعلة.. ثم ومض البرق بشدة وأعقبه صوت انفجار مخيف جعل الفتيان يعتقدون أنّ الأشجار ستقتلع من جذورها وتسقط فوق رؤوسهم؛ فتشبث كل منهم بالآخر بقوة وفزع، ثم أظلمت الدنيا مرة أخرى وبدأت قطرات كبيرة من المطر تتساقط فوق الأشجار.

صاح توم: هلما بنا إلى المعسكر سريعًا.

ووثبوا مبتعدين وهم يتعثرون في الحشائش المتشابكة، ودوى هزيم الرعد بعنف بالغ مرة أخرى، فجعل كل شيء فوق الأرض يترنح ويتأرجح. واشتدت قوة الريح وومض البرق متتابعًا متلاحقًا، وتحول المطر إلى سيل جارف.. وراح الفتيان ينادون أحدهم الآخر، ولكن هزيم الرعد وشدة تساقط المطر أغرقت أصواتهم تمامًا. لكنهم في النهاية استطاعوا أنْ يلوذوا بالمعسكر وهم ينتفضون من شدة البرد ومن الفزع، بينما كانت ثيابهم تقطر ماء، إلا أنّ تجمعهم معًا جعل الطمأنينة تسري في قلوبهم. وتعذر عليهم أنْ يسمع أحدهم الآخر، لأن الشراع العتيق كان يرفرف بقوة مُحدِثًا ضوضاء عالية. واشتدت العاصفة عنفًا، وسرعان ما انفصل الشراع من مكانه وطار مع العاصفة، فأمسك الفتيان كل منهم بيدي زميله، وركضوا هاربين، فأصيبوا بجروح وخدوش كثيرة وهم يتعثرون إلى أنْ استطاعوا الوصول إلى شجرة بلوط ضخمة عند شاطئ النهر فاحتموا بها.. وكانت العاصفة قد بلغت ذروتها في

تلك الأثناء. وظل وميض البرق يضيء السماء، بينما ثار ماء النهر وهدر، وراح رذاذه يتطاير إلى مسافات بعيدة.. ولاحظ الفتيان أنّ أشجارًا كثيرة لم تحتمل وطأة العاصفة فاستسلمت وانهارت من جذورها ساقطة على الأشجار الصغيرة. وازداد قصف الرعد عنفًا حتى صم الآذان.. وتآزرت جميع عناصر الطبيعة الغاضبة كأنما تريد أنْ تحشد قواها لتمزق الجزيرة، وتحرقها، وتغرقها، وتصم أذني كل كائن حي على ظهرها.. كانت ليلة مروعة للفتيان الصغار الذين لا مأوى لهم.

وأخيرًا، خفت وطأة العاصفة.. وأخذت قوى الطبيعة الغاضبة تنكمش رويدًا رويدًا، وبدأ السلام والهدوء يعودان إلى الجزيرة مرة أخرى. وعاد الفتيان إلى معسكرهم وهم ينتفضون من فرط الخوف، ولكنهم لم يلبثوا أنْ حمدوا الله حين تبين لهم إنّ الشجرة الضخمة التي ينامون تحتها قد سقطت في أثناء غيابهم!

كان كل شيء في المعسكر غارقًا في الماء، وضايقهم انطفاء النار، لأنهم كانوا يرتعدون من شدة البرد والبلل، ولكنهم سرعان ما سرى عنهم، عندما اكتشفوا أنّ هناك نارًا خافتة ما زالت مشتعلة تحت كتلة الخشب الهائلة، التي كانوا قد أوقدوا نارهم بجوارها، وفي التو، شمروا عن سواعدهم، ومضوا يجمعون بعض قطع الخشب والأغصان الجافة.. وبدأوا يحيون النار حتى اشتد لهيبها، فملأ الفرح قلوبهم وراحوا يستدفئون ويجففون ثيابهم المبللة، كما جففوا ما لديهم من اللحم المسلوق، وتناولوا طعام العشاء وهم جالسون حول النار. وظلوا في يقظة إلى أنْ طلع النهار لأنهم لم يعثروا على مكان جاف يستطيعون النوم فيه!

وعندما أشرقت الشمس، أحس الفتيان بالنعاس يداعب أجفانهم فمضوا إلى الحاجز الرملي وتمددوا فوقه ثم استسلموا للنوم. ولكنهم لم يلبثوا أنْ أفاقوا بعد فترة من الوقت، وبدأوا يعدون طعام إفطارهم باكتئاب، وبعد أنْ فرغوا من تناول

الطعام أحسوا بتصلب في مفاصلهم، كما عاودهم الحنين إلى الوطن مرة أخرى! ولم تخفَ علامات الحنين إلى الوطن على توم رغم أنه حاول إشاعة الابتهاج في قلبي القرصانين بقدر استطاعته. وإذ وجد زميليه راغبين عن البقاء في الجزيرة، ذكرهما بالسر الدفين؛ واستطاع بذلك أنْ يثير اهتمامهما، ثم لم يلبث أنْ لجأ إلى حيلة أخرى للاستئثار تمامًا باهتمامها.. قال لهما إنه يحسن بهم أنْ يتخلا عن القرصنة ويلعبوا دور الهنود الحُمر على سبيل التغيير.. وراقت الفكرة للصبيين الآخرين. وتجرد الجميع من ثيابهم، وخططوا أجسامهم بالطين حتى أصبحوا أشبه بالحمير الوحشية، ثم انطلقوا عبر الغابات ليهاجموا المستعمرات الإنجليزية! فقد كانوا جميعًا يلعبون دور رؤساء القبائل!

وفيما بعد، انقسموا إلى ثلاث قبائل متعادية، راحوا ينقضون على بعضهم من مكانهم، وهم يطلقون صيحات الحرب المدوية.

وهكذا مضى اليوم في مرح وسعادة واجتمعوا في المعسكر عندما حان موعد تناول طعام العشاء، وقد قرصهم الجوع، ولكنهم كانوا سعداء.

- وهنا صادفتهم مشكلة، فإنّ الهنود المتعادين لا يتناولون الطعام معًا إلا بعد أنْ يعقدون صلحًا، وكان ذلك مستحيلًا ما لم يدخنوا غليونًا رمزًا للسلام، ولم تكُن وسيلة أخرى للتغلب على هذه العقبة، ومِن ثَمَّ فقد تمنى اثنان من الهنود في تلك اللحظة لو أنهما ظلا قرصانين، إلا أنهما لم يستطيعا الإفلات من هذا القيد، وبعد لحظات أشعل الغليون وراحوا يتبادلونه وهم يتظاهرون بالمرح.

ولقد سرهم أنْ لعبوا دور الهنود الحُمر، وذلك بعد أنْ تبين لهم أنّ تأثير التدخين لم يرغمهم هذه المرة على الذهاب للبحث عن المدية المفقودة! أو بعبارة أخرى لأن التدخين لم يسبب لهم في هذه المرة غثيانًا خطيرًا كما حدث في المرة السابقة، ولكنهم -رغم ذلك- تحفظوا في التدخين بعد العشاء فقضوا أمسية رائعة.

***

الفصل السابع عشر

القراصنة يشهدون جنازة أنفسهم

لم يكُن أحد من أهل القرية الصغيرة يشعر بأي مرح أو ارتياح بعد ظهر يوم السبت التالي.. لقد اتشحت أسرتا هاربر والعمة بولي بالسواد، وشملهما حزن عميق، بينما انهمرت الدموع بغزارة من عيون جميع أفراد أسرتيهما.. أما القرية نفسها فقد عمّها سكون غير عادي. وراح القرويون يزاولون أعمالهم العادية وهم ذاهلون ومقلون في الكلام، ومكثرون من الآهات.. وبدت عطلة يوم الأحد عبئًا ثقيلًا على عاتق الأطفال لم يشعروا بأي بهجة من ألعابهم الرياضية، ومِن ثَمَّ انصرفوا عنها.

وبعد الظهر، وجدت «بيكي تاتشر» نفسها تتجول في ساحة المدرسة المهجورة، وقد استولى عليها حزن رهيب.. ولكنها لم تجد شيئًا يخفف من لوعتها، فراحت تناجي نفسها قائلة:

- أواه! ليتني أستطيع أنْ أستعيد المقبض النحاسي ثانية! إنني لا أملك الآن شيئًا يذكرني به «توم»!

وخنقتها العبرات، ثم سرعان ما توقفت عن السير وقالت تناجي نفسها:

- حدث ذلك هنا! أواه.. لو أمكن أنْ يعود ذلك اليوم لما قلت له كلمة واحدة تغضبه حتى لو أعطيت العالم كله! ولكنه ذهب الآن.. ولن أراه ثانية.

وتمزق قلبها عندما ساورها هذا الخاطر.. فابتعدت عن المكان والدموع تنهال من عينيها وتنحدر فوق خديها، وفي تلك اللحظة أقبلت جماعة من الفتيان والفتيات، كانوا زملاء توم وچو في اللعب. ووقفوا يتأملون سياج الملعب ويتكلمون بأصوات خافتة قائلين إنّ توم كان يفعل «كذا وكيت»، عندما رأوه لآخر مرة، وكيف أنّ چو قال هذا أو ذاك.. وراح كل متكلم يشير بالدقة إلى المكان الذي كان الصبيان يقفان عنده في ذلك الوقت.. أو يضيف شيئًا مثل: وأما أنا فكنت أقف هنا كما أقف الآن.. وأما هو فكان واقفًا حيث تقف أنت.. لقد كنت قريبًا منه جدًّا.. هكذا -ولقد ابتسم لي بهذه الطريقة- وعندئذ تملكني إحساس غريب إحساس مقبض، لكني لم أدرك معناه بالطبع بيد أنني أستطيع أنْ أفهم هذا المعنى الآن!

وهنا احتدم الجدل بين بعض الفتيان، وكان مداره مَن كان آخر مَن رأى الصبيين الغائبين على قيد الحياة؟ وأصرّ كثيرون على أنْ يكون الانفراد بهذا الشرف من نصيبهم.. وقدموا الأدلة على ذلك. وعندما بت في النهاية فيمن كانوا آخر مَن رأوهما فعلًا، تبادلوا معهما آخر كلمات، راح الباقون يتطلعون إليهم بحسد أما الذين ظفرا بهذا الشرف فقد اعتبروا أنفسهم أشخاصًا على قدر عظيم من الأهمية!

وكان بين الجماعة صبي مسكين لم يجد شيئًا عظيمًا يستطيع أنْ يفخر به، فقال وكأنه يشعر بالفخر من جراء الذكرى:

- مسكين توم لقد ضربني ذات يوم ضربًا مبرحًا لا أزال أذكره!

ولكنه أخفق في انتزاع إعجاب زملائه، لأن أغلبهم كان يستطيع أنْ يقول مثلما قال، ومِن ثَمَّ فقد قلل من قيمة المجد الذي كان الصبي يهفو إلى الفوز به. وبعدئذ بدأت الجماعة تتسكع هنا وهناك وهي تستعيد ذكريات البطلين المفقودين بلهجة حزينة.

وعندما انتهت فترة نشاط مدرسة الأحد في صباح اليوم التالي، بدأ ناقوس الكنيسة يدق دقاته الحزينة بدلًا من دقاته العادية، وكان يومًا صامتًا حزينًا، وبدا كأن دقات الناقوس الحزينة تتلاءم تمامًا مع ذلك الجو الرهيب الذي ساد القرية.. وبدأ القرويون يتجمعون، وهم يتلكأون لحظات في الممشى ليتبادلوا بعض الكلمات الهامسة تعقيبًا على تلك المأساة الأليمة، ولكنهم ما يكادوا يدخلون إلى قاعة الصلاة حتى يلوذوا بالصمت.. فلا يسمع غير حفيف أثواب النساء وهن يأخذن مقاعدهن في القاعة، ولم يكُن أحد من الحاضرين يتذكر مناسبة سابقة امتلأت قاعة الكنيسة على النحو الذي امتلأت به في ذلك اليوم. وأخيرًا أقبلت العمة بولي يتبعها سيدني وماري، ثم أسرة هاربر، وجميعهم يتشحون بالسواد. وفي التو وقف المصلون جميعًا كما وقف الواعظ الكهل.. وظل واقفًا إلى أنْ جلس أفراد الأسرتين المنكوبتين في الصف الأول من المقاعد. وعاد الصمت ساد القاعة مرة أخرى، ولم يكُن يعكره إلا صوت البكاء المكتوم.. وفي تلك اللحظة نهض الواعظ وبسط يديه أمامه، وبدأ يصلي ثم رتل الشمامسة ترتيلة حزينة أعقبها قول الواعظ: «أنا البعث والحياة».

وفي أثناء الصلاة، راح الكهنة يرسمون صورًا لشمائل الصبيين المفقودين، والأمل العظيم الذي يرتجي منهما. وكانت

الصور واضحة رائعة، إلى درجة جعلت الحاضرين يشعرون بأشد الألم كلما تذكروا أنهم كانوا يصرون على ملاحظة أخطاء الصبيين دُون حسناتهما. وذكر الواعظ كثيرًا من المناسبات المؤثرة في حياة الراحلين، فكشف بذلك عن طبيعتهما الحلوة الكريمة، وكلما أفاض الواعظ في حديثه المؤثر ازداد المصلون ألمًا.. وعجزوا عن حبس دموعهم فانفجروا جميعًا باكين، ولم يستطع الواعظ نفسه أنْ يتمالك رباطة جأشه، فانخرط في البكاء وهو واقف فوق المنبر. وانبعثت ضوضاء خفيفة من ممر الكنيسة، ولكن أحدًا لم ينتبه إليها، وبعد لحظة فُتِح الباب فرفع الواعظ عينيه المبللتين بالدموع فوق منديله، وفي التو جمد مكانه متسمرًا.. وبدأت العيون تتبع نظرة الواعظ على الفور، وسرعان ما نهض المصلون جميعًا وراحوا يحدقون، بينما دخل الفتيان الثلاثة «الأموات» وأخذوا يتقدمون في ممشى الكنيسة.

كان توم يسير في المقدمة يتبعه چو ثم هاك، وكان الأخير يسير منكمشًا ذليلًا يتعثر في ثيابه المهلهلة! وكانوا قد اختبأوا في ممر الكنيسة غير المطروق ليصغوا إلى الصلاة التي أقيمت على أرواحهم!

وألقت العمة بولي وماري وآل هاربر بأنفسهم فوق طفليهما اللذين بُعثا من الموت وغمروهما بالقبلات، كما ارتفعت أصواتهم بالشكر لله.. أما هاك المسكين فقد وقف وحيدًا قلقًا لا يعرف ماذا يفعل أو أين يختبئ ليتجنب نظرات الاستنكار التي تسدد إليه.. هم هاك بالتراجع.. لكن توم أمسك به من ذراعه وقال:

- إنّ ذلك ليس عدلًا يا عمتي بولي.. يجب أنْ يكون هنا مَن يفرح بعودة هاك.

فقالت العمة بولي: نعم.. إنني جد سعيدة برؤية هذا المخلوق المسكين يتيم الأم!

وأشبعته تقبيلًا حتى لقد شعر الصبي التعس بالاضطراب أكثر من ذي قبل.

وفجأة صاح الواعظ بأعلى صوته:

- مبارك اسم الرب الذي يمنحنا جميع البركات، أنشدوا.. وأنشدوا من أعماق قلوبكم.

وأنشد الحاضرون بصوت متهلل، بينما راح توم سوير القرصان يتطلع حوله ناظرًا إلى الفتيان الذين كانوا يتطلعون إليه بحسد، جعله يشعر بأنّ تلك اللحظة هي أسعد لحظات حياته.

بينما كان المصلون ينصرفون من الكنيسة قالوا إنهم على استعداد لأن يصبحوا موضع السخرية مرة أخرى لكي يسمعوا هذا الإنشاد ثانية!

وفاز توم بقدر كبير من القُبَل في ذلك اليوم -وكان ذلك متوقعًا من العمة بولي وهي في حالتها النفسية تلك- يزيد على ما فاز به منها في عام كامل، ولكنه لم يكُن يدري هل كانت تلك القُبَل للتعبير عن الشكر لله أم حبًا لشخصه.

***

الفصل الثامن عشر

توم يذيع سرّ حلمه

كان ذلك هو سر توم العظيم، خطة العودة إلى «الوطن» مع زميليه القرصانين وحضور صلاة الجنازة! وكان الفتيان الثلاثة قد عبروا النهر فوق كتلة ضخمة من الخشب عند الغسق يوم السبت، وهبطوا إلى الشاطئ على مبعدة خمسة أو ستة أميال جنوب القرية، وناموا في الغابة عند حافة المدينة حتى طلع الفجر، ثم سلكوا الطرقات والأزقة الخلفية حتى وصلوا إلى ممر الكنيسة الجانبي، فاستأنفوا نومهم فيه بين المقاعد المحطمة.

بينما كانت الأسرة تتناول طعام الإفطار في يوم الاثنين، أضفت العمة بولي وماري من حبهما الشيء الكثير على توم، وكانتا تلبيان جميع رغباته، ولقد أفاض الجميع في الحديث، وقالت العمة بولي في خبث ومرح:

- حسنًا.. لست أعتقد أنها كانت دعابة لطيفة يا توم أنْ تجعلوا الجميع هنا يتعذبون أسبوعًا كاملًا، بينما تقضون أنتم وقتًا طيبًا، ولكن مما يُؤسَف له حقًا إنّ قلبك الغليظ سمح لك بأنْ تجعلني أتعذب على هذا النحو المؤلم، فما دُمتم قد استطعتم العودة فوق كتلة من الخشب لتشاهدوا جنازتكم، فقد كان في استطاعتك أنْ تأتي وتلمح لي بطريقة ما أنك لست ميتًا وأنك هارب فقط.

فقالت ماري: نعم.. كان في استطاعتك أنْ تفعل ذلك يا توم، وأكبر ظني أنه كان ينبغي عليك أنْ تفعل ذلك لو أنّ الأمر خطر ببالك، وتهلل وجه العمة بولي وسألت بلهفة: هل كنت تفعل يا توم؟ أخبرني هل كنت تفعل ذلك لو أنه خطر ببالك؟

- إنني.. إنني.. لست أدري.. لقد كان ذلك خليقًا بأنْ يفسد كل شيء.

فقالت العمة بولي بصوت يدل على الألم مما جعل الصبي يضطرب:

- توم.. كنت آمل أنْ تحبني أكثر من ذلك.. ولا شك في أنك كنت تدخل برد الراحة على قلبي لأنك عنيت بالتفكير في الأمر حتى ولو لم تنفذه!

فقالت ماري مناشدة: كفى بالله عليكِ يا عمتي، إنه طيش توم كما تعلمين.. فهو دائمًا مندفع هكذا حتى ليتعذر عليه أنْ يفكر في أي شيء.

هذا أمر يُؤسَف له.. لو كان سيدني في مكانه لفكر في هذا الأمر، وجاء وفعل ذلك أيضًا.. توم، سيأتي اليوم الذي تتطلع فيه إلى الوراء -ولكن بعد فوات الأوان- وتتمنى لو أنك بذلت لي اهتمامًا أكثر، ما كان ليكلفك إلا القليل!

فقال توم: أنتِ تعرفين ولا ريب أنني لا أهتم بأمرك يا عمتي.

- كان خليقًا بهذه المعرفة أنْ تصبح أتم لو أنك سلكت سلوكًا لائقًا.

فقال توم بلهجة النادم: بودي لو أنني فكرت في الأمر، ولكني كنت أحلم بك على كل حال، وأظن أنّ ذلك أمر له أهميته.. أليس كذلك؟

- ليس لهذا أهمية كبرى، فإنّ القطة تفعل ذلك، ولكنه خير من لا شيء على كل حال.. لكن ماذا حلمت؟

- حلمت ليلة الأربعاء الماضي أنكِ كنتِ جالسة بجوار الفراش، وسيدني بجانب الصندوق الخشبي، بينما كانت ماري تجلس بجواره.

- حسنًا.. لقد كنا فعلًا نجلس كذلك.. فهذه جلستنا المعتادة دائمًا، ولكني مسرورة لأنك تذكرتنا في الحلم.

- وحلمت أيضًا أنّ أم چو هاربر كانت معكم.

- يا إلهي! لقد كانت هنا.. هل حلمت بأكثر من ذلك؟

- أوه.. كثيرًا، ولكن التفاصيل أوشكت أنْ تنمحي الآن.

- حاول أنْ تتذكر.. ألا تستطيع؟

- وقد خيّل إليَّ أنّ الريح.. أنّ الريح كانت تعبث...

- فكر أكثر يا توم.. لقد عبثت الريح بشيء.. هيا تكلم.. فضغط الصبي جبهته بيده كأنما ليتذكر.. وأخيرًا قال:

- آه.. لقد تذكرت، كانت تعبث بلهب العمة

- يا للسماوات! استمر يا توم.. استمر.

- ويخيّل إليَّ أنك قلتِ إنّ الباب...

- استمر يا توم.

- دعيني أفكر لحظة.. لحظة واحدة.. آه، نعم.. قلتِ أنكِ تعتقدين أنّ الباب مفتوح.

- لقد قلت ذلك بكل تأكيد! أليس كذلك يا ماري؟ استمر...

- وبعدئذ.. وبعدئذ.. حسنًا، لست متأكدًا.. ولكن يخيّل إليَّ أنكِ طلبت من سيدني أنْ يذهب و... و...

- استمر.. استمر.. ماذا طلبت منه أنْ يفعل توم؟ ماذا؟

- طلبتِ إليه أنْ يغلق الباب.

- يا للسماوات! إنني لم أسمع عن مثل هذه المعجزة طوال حياتي! ألا تقولوا إنّ الأحلام مجرد خزعبلات.. سأفضي إلى مسز هاربر بكل ذلك قبل أنْ تنقضي ساعة واحدة.. فإنني أريد أنْ أعلم كيف يمكنها أنْ تفسر ذلك ببدعها السخيفة. استمر يا توم.

- آه.. لقد تذكرت الآن كل شيء بوضوح. بعد ذلك قلتِ إنني لم أكُن شريرًا ولكني كنت شقيًّا وطائشًا فقط، وإنه لا ينبغي أنْ يحمّلني الناس من المسؤولية فوق طاقتي.

- هكذا قُلت فعلًا.. يا للسماء! استمر يا توم.

- ثم بدأتِ تبكين.

- نعم هذا صحيح.. ولم تكُن تلك هي المرة الأولى التي بكيت فيها.. ثم ماذا؟

- ثم انخرطت مسز هاربر في البكاء أيضًا وقالت إنّ جو كان مثلي، وإنها كانت تتمنى لو أنها لم تضربه بالسوط لأنه شرب القشدة «الكريمة» الفاسدة.

- توم، لقد كانت الروح تتقمصك! لقد كنت تتنبأ نعم هذا ما كنت تفعله! امض في حديثك.

- عندئذ قال سيدني.. قال سيدني...

فقاطعه سيدني قائلًا: لا أظن أنني قلت شيئًا.

فقالت ماري: بل تكلمت يا سيدني.

وصاحت عمتهما: اصمتا ودعا توم يتكلم، ماذا قال سيدني يا توم؟

- قال.. أظن أنه يأمل أنْ أكون سعيدًا حيث كنت، ولكن كان ينبغي..

- هل تسمعان؟ إنّ هذه هي عين الكلمات التي نطق بها!

- ولكنك نهرته.. طلبتِ إليه أنْ يصمت.

- هكذا فعلت! لا شك أنّ ملاكًا كان هناك.. لقد كان هناك ملاك فعلًا!

فأردف توم: وقالت مسز هاربر إنّ جو أفزعها حين فرقع كبسولة أمامها، وذكرتِ أنتِ قصة القطة والدواء الذي يقتل الألم.

- هذا صحيح على طول الخط.

- ثم تحدثتم بعد ذلك عن البحث عنا في النهر، وعن إقامة الجنازة في يوم السبت، وبعدئذ تعانقتما أنتِ ومسز هاربر.. وبكيتما ثم انصرفت هي.

- هذا ما حدث بالضبط! إنك ما كنت لتستطيع أنْ تصف ما حدث بمثل هذه الدقة لو أنك كنت موجودًا معنا يا توم!

ثم ماذا بعد ذلك؟ استمر.

- وبعدئذ خيّل إليَّ إنك صليتِ من أجلي، وكان في استطاعتي أنْ أراكِ، وأنْ أسمع كل كلمة تنطقين بها، ولقد أسفت من أجلكِ، حتى لقد أخرجت لفافة من لب الشجرة وكتبت لك رسالة عليها قلت فيها: «إننا لم نَمُت ولكننا اختفينا لنزاول القرصنة»، ووضعت هذه الرسالة بجانب الشمعدان فوق المنضدة، وتطلعت إليك وأنتِ نائمة، فأخذتني الشفقة عليكِ وأظن أنني ملت عليكِ وقبلت شفتيك.

- أحقًا يا توم؟ هل فعلت ذلك؟ إنني أغفر لك كل ما بدر منك من أجل ذلك. ثم ضمت الصبي إلى صدرها بعنف جعله يشعر بأنه أكثر الأشرار إثمًا في العالم.

فتمتم سيدني بصوت مسموع: كان ذلك عملًا رحيمًا رغم أنه حدث في الحلم.

- فصاحت عمته: صه يا سيدني إنّ الجسم يأتي في الحلم ما قد يفعله في اليقظة. خذ هذه التفاحة الكبيرة التي احتفظت لك بها لأقدمها لك يوم يعثرون عليك يا توم.. والآن، اذهب إلى المدرسة.. إنني عاجزة عن شكر الله الرحمن الرحيم، أبينا جميعًا، لأنك عدت إليَّ، ولو إني لا أستحق عفوه ورضاه.. اذهبوا جميعًا إلى المدرسة فقد أضعتم مني وقتًا طويلًا.

وانصرف الصغار إلى المدرسة، بينما مضت العمة العجوز لزيارة مسز هاربر والإفضاء إليها بحلم توم العجيب.

وهكذا أصبح توم بطلًا عظيمًا الآن، لم يَعُد يعبث ويصخب كما كان يفعل من قبل ليجتذب الأنظار، وإنما راح يمشي مختالًا مثلما يفعل القرصان الذي يشعر بأنّ عيون الجماهير تلاحقه، ولقد كانت العيون تلاحقه فعلًا، ومِن ثَمَّ أنْ يتجاهل نظرات الجميع وتعليقاتهم في أثناء مروره بهم، وإنْ كانت هذه النظرات والتعليقات قد أصبحت عنده بمثابة الطعام والشراب. وكان يسير في أعقابه جمع من الفتيان الذين يصغرونه سنًا، وهم يشعرون بالزهو كلما رآهم زملاؤهم معه بغير أنْ يضيق بهم! هكذا أصبح توم مثل قارع الطبول الذي يسير على رأس الموكب، أو الفيل الذي يقود عرضًا للوحوش الغريبة على خشبة مسرح! أما الصبيان الذين كانوا يبلغون من الأعمار مثلما يبلغ.. فقد تظاهروا بأنهم لم يعلموا بغيبته إطلاقًا.. ولكن الغيرة كانت تنهش قلوبهم! ولا شك في أنهم كانوا على استعداد لأن يدفعوا أي ثمن مقابل أنْ تكون لهم بشرته السمراء التي لفحتها الشمس، وتلك النظرات اللامعة التي تدل على الشقاوة، ولكن توم ما كان ليتنازل عن إحداهما مهما كان الثمن!

وفي المدرسة لقيَ توم وجو تقديرًا عظيمًا من زملائهما، وأصبحا موضع الإعجاب والتقدير. وبدأ الصبيان يسردان مغامراتهما على السامعين المتعطشين، ولكنها كانت مجرد بداية فقط؛ إذ لم يكُن من المتوقع أنْ تكون للقصة نهاية.. فقد كان البطلان يتمتعان بخيال خصب يستطيع أنْ يجد دائمًا المادة المشوقة! وأخيرًا أخرج الصبيان غليونيهما وراحا ينفثان الدخان من فميهما، فاستطاعا بذلك أنْ يبلغا قمة المجد في أعين الزملاء الصغار!

ورأى توم أنه من الخير أنْ يهمل شأن بيكي تاتشر في ذلك الوقت.. مكتفيًا بالمجد الذي بلغه بعد عودته المظفرة، لقد أصبح توم بطلًا لامعًا؛ ولعلها تريد الآن أنْ تعيد العلاقة التي كانت بينهما -ولم تلبث أنْ انقطعت- إلى ما كانت عليه من قبل! حسنًا.. دعها تحاول، فلسوف تدرك أنّ في استطاعته أنْ يصطنع من الدلال ما يصطنعه بعض الكبار. وبعد قليل وصلت بيكي، فتظاهر توم بأنه لم يرها، ومشيَ مبتعدًا إلى حيث انضم إلى جماعة من الفتيان والفتيات، وبدأ يتكلم.. وسرعان ما لاحظ أنّ الفتاة كانت تخطو بمرح جيئة وذهابًا، وقد تورد وجهها، والتمعت عيناها وهي تتظاهر بأنها منهمكة في مطاردة زملائها وزميلاتها، وتضحك بطريقة تشبه الصراخ كلما استطاعت أنْ تمسك واحد أو واحدة منهم، ولكن توم لاحظ أنّ بيكي تتعمد ألا تمسك بزملائها وزميلاتها إلا على مقربة منه، وإنها لا تفتأ تختلس النظر إليه. كلما فعلت ذلك فأرضى مسلكها غروره الشرير، وبدلًا من أنْ يجعله ذلك يسعى إلى إصلاح ما بينهما، تمادى في غيه وكبريائه، وازداد إمعانًا في تجاهل وجودها، وسرعان ما تخلت الفتاة عن حركاتها المسرحية، وأخذت تسير بخطى وئيدة على مقربة منه وهي تتنهد مرة أو اثنتين، وتتطلع خلسة إلى حيث وقف توم.. وما لبثت أنْ لاحظت أنّ توم كان يؤثر آمي لورنس بحديثه، فأحست بألم عميق، وانتابها القلق في الحال، وحاولت أنْ تبتعد ولكن ساقيها خذلتاها وحملتاها نحو الجماعة التي كان توم يتصدرها، ثم قالت لفتاة كانت تقف بجوار توم بلهجة مرحة مفتعلة:

- أهذا أنتِ يا ماري أوستن! يا لك من فتاة شريرة.. لماذا لم تأتِ إلى مدرسة الأحد؟

- لقد أتيت.. ألم تريني؟

- كلا.. ولكن هل أتيتِ حقًا؟ أين كنتِ تجلسين؟

- كنت في فصل الآنسة بيترز الذي اعتدت أنْ أذهب إليه، ولقد رأيتك هناك.

- أحقًا؟ من العجيب أنني لم أركِ، فقد كنت أريد أنْ أتحدث إليكِ عن الرحلة التي سنقوم بها.

- أوه! هذا بديع، لكن مَن الذي سيعدها؟

- والدتي.

- مدهش! أرجو أنْ تسمح لي بالحضور.

- نعم.. فقد أعدت هذه الرحلة من أجلي، ومِن ثَمَّ فإنها ستسمح بحضور كل مَن أريد حضوره.. وأنا أريد حضورك.

- أشكرك على جميل شعورك.. متى ستتم هذه الرحلة؟

- قريبًا.. ربما في العطلة.

- لا شك في أنها ستكون نزهة رائعة.. هل ستدعين جميع الفتيان والفتيات؟

- نعم، كل مَن تربطني به رابطة الصداقة أو يريد أنْ يصبح صديقي!

وتطلعت خلسة إلى توم، لكنه استمر في حديثه مع آمي لورنس عن العاصفة العاتية التي هبت على الجزيرة.. وكيف أنها اقتلعت الشجرة الضخمة من جذورها بينما كان يقف على مبعدة ثلاثة أقدام منها.

وسألت جراسي ميلر: آه.. هل آتي أنا أيضًا؟

- نعم.

وقالت سالي روجرز: وأنا؟

- نعم.

وسألت سوزي هاربر: وأنا أيضًا؟ وجو؟

- نعم.

واستمر الصخب بين تصفيق الجميع وتهليلهم حتى لقد طالب الجميع بدعوتهم إلى هذه النزهة فيما عدا توم وآمي لورنس.

وفي تلك اللحظة، استدار توم وهو يتكلم ومضى مبتعدًا ومعه آمي، فارتعشت شفتا بيكي واغرورقت عيناها بالدموع، ولكنها بادرت بإخفاء هذه الانفعالات وهي تتظاهر بالمرح ومضت تثرثر، ولكن النزهة فقدت كل جاذبيتها في تلك اللحظة. وانتهزت بيكي أول فرصة سنحت لها، وانسحبت بعيدًا إلى حيث احتجبت عن العيون، وانفجرت تبكي بحرقة.. وحينما تمالكت روعها راحت تفكر في كبريائها الجريحة حتى دق الناقوس، فنهضت وقد ارتسمت في عينيها نظرة أشبه بنظرة شخص حزم أمره على الانتقام من شخص آخر أساء إليه.

وفي المؤخرة ظل توم يغازل آمي لورنس، وقد بدا عليه الارتياح الشديد، وراح يتنقل معها من مكان إلى آخر باحثًا عن بيكي ليمعن في إغاظتها، أخيرًا رآها.. ولكنه لم يلبث أنْ أحس بعقارب الغيرة تلدغه، فقد كانت تجلس فوق مقعد خلف بناء المدرسة وبجوارها «ألفريد تمبل»، وهما منصرفان إلى مشاهدة كتاب مصور، وكانا مستغرقين في مشاهدة الصور، قد تقارب رأساهما وكأنهما يعيشان في عالم آخر، وبدأ توم يلوم نفسه لأنه أضاع الفرصة التي عرضتها بيكي عليه للصلح.

أخذ يؤنب نفسه على جهالته وحماقته، وقد أحس بالرغبة في البكاء من فرط الغيظ. أما آمي فقد مضت تحدثه بمرح وهما يسيران جنبًا إلى جنب.. لأن قلبها كان يرقص طربًا، ولكن لسان توم فقد قدرته على الحركة كأنما أصابه شلل مفاجئ، ولم يسمع الصبي ما كانت آمي تقوله. وظل توم يتجول مع آمي وهو يحرص أشد الحرص على أنْ يكثر من الذهاب إلى حيث جلست بيكي مع ألفريد.. وكان كلما وقعت عيناه عليهما في جلستهما الهادئة؛ يحس بأنّ رأسه توشك أنْ تنفجر، ولقد زاده ضيقًا ما كان يبدو على بيكي من علامات الاستخفاف بأمره وكأنها كانت تريد أنْ توحي إليه أنها لم تَعُد تدرك

أنه لا يزال حيًّا يُرزَق ويدب على ظهر الأرض.. ولكن الواقع كان غير ذلك، فقد كانت بيكي تراه كما كانت تعلم أنها ربحت المعركة، وقد سرها أنْ تراه يتعذب ويتألم مثلما تعذبت وتألمت!

وضاق توم بثرثرة آمي، فاعتذر بأنّ لديه أعمالًا مُهمة عاجلة، وبأنّ الوقت يمضي سريعًا، ولكن الفتاة تجاهلت اعتذاره فقال توم لنفسه: «لعنة الله عليها.. ألا أستطيع التخلص منها؟»، ثم قال لها: إنه مضطر إلى الانصراف لأن هذه الأعمال لا تحتمل الإرجاء. فقالت بلا كياسة: إنها ستنتظره عندما تنتهي الدراسة، وعندئذ أسرع بالابتعاد عنها وهو يستشعر أشد الكراهية لها.

وعض توم شفتيه وهو يقول لنفسه: ألم تجد غير هذا الصبي؟ لو أنها صادقت أحدًا غير هذا الصبي الذي يعتبر نفسه أكثر فتيان المدينة أناقة وأرستقراطية، لما أبهتُ له! أوه! حسنًا، لقد ضربتك

يوم أنْ وفدت على هذه المدينة يا سيدي ولسوف أضربك ثانية، انتظر حتى أظفر بك! سأتحرش بك و...

وظل توم نهبًا لعواطفه الثائرة وهو يتهدد الصبي، ويأتي بحركات من يديه ورجليه كما لو كان يضرب صبيًّا أمامه ويقول: انتظر.. انتظر.. إنك تصرخ كثيرًا، أليس كذلك؟ خذ من ذلك عبرة ودرسًا!

وعند الظهر، عجل توم بالذهاب إلى المنزل ولم يستطع ضميره أنْ يحتمل مزيدًا من سعادة آمي وثرثرتها، بينما الغيرة تنهش قلبه. أما بيكي فقد استأنفت مشاهدة الكتاب المصور مع ألفريد، ولكنها كانت -كلما مرت الدقائق متثاقلة غير منبئة بعودة توم- تشعر بتضاؤل نشوة انتصارها، وسرعان ما فقدت الرغبة في مشاهدة الصور. ولقد أصاخت السمع مرتين أو ثلاثًا عندما تناهى إلى أذنيها صوت وقع أقدام مقبلة، ولكنه كان أملًا زائفًا لأن توم لم يأتِ.. وأخيرًا بدأت تحس بالتعاسة، وتمنت لو أنها لم تتمادَ في انتقامها إلى هذا الحد. وعندما أدرك ألفريد التعس أنه يوشك أنْ يفقد الفتاة، راح يحاول إثارة اهتمامها، فكان لا يفتأ يصيح بين الحين والحين.. أوه! ها هي صورة رائعة انظري إلى هذه، ولكنها فقدت صبرها في النهاية.. فقالت له: «لا تضايقني إنني لا أهتم بها»، وانفجرت باكية ونهضت، ثم سارت مبتعدة عنه.

وبادر ألفريد باللحاق بها.. وكان يهم بمحاولة تهدئتها، عندما قالت له:

- اذهب ودعني وحدي.. اذهب.. ألا تسمع؟ إنني أكرهك.

وكفَّ الصبي عن متابعتها.. وهو يتساءل عمَّا عساه يكون قد فعله فأثارها إلى هذا الحد، ذلك إنها كانت قد قالت له: إنها ستتصفح معه جميع الصور خلال فترة الظهر، ولكنها تركته وابتعدت عنه باكية. واضطر ألفريد إلى تركها وذهب إلى الفصل الشاغر، وهو مستغرق في التفكير.. كان يشعر بالامتهان والغضب، ولم يصعب عليه الوصول إلى الحقيقة. لقد اتخذت الفتاة منه أداة لإظهار حقدها على توم سوير.. وعندما وصل إلى هذا الحد من تفكيره، كانت كراهيته لتوم قد تضاعفت مرات ومرات، وكان يتمنى لو استطاع أنْ يعرف طريقة تمكنه من إثارة المتاعب لهذا الصبي بغير أنْ يجازف بتعريض نفسه لنقمته... وفجأة، وقع بصره على كتاب الإملاء الخاص بتوم، فأيقن أنّ الفرصة قد واتته للانتقام منه، وفتح الكتاب عند الدرس الذي سيقرأونه بعد الظهر، وسكب المداد فوق الصفحة!

وتصادف أنْ كانت بيكي تتطلع من النافذة التي خلفه في تلك اللحظة ورأت ما فعل، فأسرعت تبتعد عن النافذة بغير أنْ تدع ألفريد يلمحها، ثم رجعت عائدة إلى المنزل، وهي تعتزم لقاء توم وإطلاعه على الحقيقة. فليس من شك في أنّ توم سيشكرها على حسن صنيعها، وبذلك ينتهي ما بينهما من سوء تفاهم.. ولكنها عادت فعدلت عن رأيها في الطريق، فقد تذكرت سوء معاملة توم لها، حينما كانت تتحدث مع زميلاتها عن النزهة المرتقبة، وكيف أنه تعمد إذلالها وتحقيرها، ومِن ثَمَّ قررت أنْ تدعه يُضرَب بالسوط لما انسكب على كتاب الإملاء من مداد، وأنْ تكرهه إلى الأبد جزاء وِفَاقًا له على ما نالها من سوء معاملته!

***

الفصل التاسع عشر

لم يخطر ببالي

عندما وصل توم إلى المنزل، كان في حالة نفسية تعسة، وقد دله أول حديث دار بينه وبين عمته، على أنّ أحزانه لن تلقى أي عطف أو تقدير، قالت له: إنني أفكر في أنْ أسلخ جلدك حيًّا يا توم.

- ماذا فعلت يا عمتي؟

- فعلت ما فيه الكفاية، فقد ذهبت إلى مسز هاربر وأنا أتوقع أنني سأجعلها تصدق كل السخافات التي قلتها لي عن ذلك الحلم، ولكني لم ألبث أنْ فوجئت بأنها عرفت من چو أنك جئت إلى هنا خلسة واسترقت السمع إلى حديثنا في تلك الليلة.. توم لست أدري ماذا يحيق بصبي يرتكب مثل هذا الإثم، إنني أرتعش كلما فكرت في إنك سمحت لنفسك بأنْ تجعلني أذهب إلى مسز هاربر، وأقف مثل هذا الموقف المخجل بغير أنْ تنطق بكلمة واحدة.

كان هذا وجهًا جديدًا للموقف، فقد كان توم يعتقد أنّ ما أبداه من مهارة في الصباح كان دعابة طيبة تدل على عبقرية فذة، أما الآن فقد بدأ يعتبر ذلك نذالة.. فخفض رأسه واستعصى عليه التفكير، ولم يستطع أنْ ينطق بكلمة واحدة، وأخيرًا قال:

- ليتني لم أفعل ذلك يا عمتي، بَيد أنه لم يخطر ببالي.

- أواه أيها الطفل.. لم يخطر ببالك! إنك لا تفكر في أي شيء غير أنانيتك، إنك تستطيع أنْ تفكر في القيام بهذه الرحلة الطويلة إلى جزيرة «چاكسون» في جوف الليل لتسخر من متاعبنا.. وتستطيع أنْ تفكر في السخرية مني بأكذوبة كبيرة عن ذلك الحلم، ولكن لم يخطر ببالك مطلقًا أنْ ترأف بنا، وتجنبنا كل ما تكبدناه من ألم!

- لقد تبين لي الآن إنّ ذلك كان عملًا وضيعًا، ولكني لم أكُن في الواقع أتعمد ذلك، نعم يا عمتي.. لم أكُن أتعمد ذلك.. ثم إنني لم آتِ إلى هنا في تلك الليلة لأسخر منكم.

- إذن لماذا جئت؟

- جئت لأقول لكِ ألا تقلقي علينا، وإننا لم نغرق!

- توم.. توم.. أؤكد لك أنني أصبح أسعد امرأة لو أنني استطعت أنْ أصدق أنّ مثل هذه الفكرة النبيلة خطرت ببالك، ولكن الواقع هو أنّ الأمر لم يكُن كذلك، إنني واثقة من أنه لم يكُن كذلك يا توم.

- أؤكد لكِ يا عمتي.. إنّ هذا هو ما جئت من أجله.

- أوه! لا تكذب يا توم.. كلا، لا تكذب.. لأن ذلك يزيد الموقف سوءًا.

- إنني لا أكذب يا عمتي.. فتلك هي الحقيقة، لقد كنت أبغي دفع شبح الخوف عنك، ولهذا زُرت المنزل سرًا لأترك لك رسالة أشرح فيها حقيقة الأمر.

- إنني على استعداد لأن أدفع أي ثمن لأصدقك، لأن ذلك كفيل إصلاح كل ما ارتكبته من آثام، لكن الأمر لا يبدو معقولًا، وإلا فلماذا لم تَقُل لي ذلك أيها الطفل؟

- عندما سمعتكم تتكلمون عن الجنازة سيطرت عليَّ فكرة واحدة، ألا وهي الاختفاء داخل الكنيسة لنرى جنازتنا بأنفسنا، ومِن ثَمَّ أعدت الرسالة إلى جيبي ولزمت الصمت.

- أي رسالة؟

- رسالة كنت قد كتبتها لكِ على لفافة من لب الشجرة، ذكرت فيها أننا ذهبنا للقرصنة، بودي لو أنكِ استيقظتِ عندما قبلتك.. نعم، بودي لو أنكِ فعلتِ ذلك.

فانفرجت أسارير السيدة العجوز، وتجسمت في عينيها نظرة حانية.

- هل قبلتني يا توم؟

- نعم.

- هل أنت واثق من ذلك يا توم؟

- نعم يا عمتي.. إنني واثق من ذلك تمامًا.

- ولماذا قبلتني يا توم؟

- لأنني أحبك، وقد انفطر قلبي حزنًا من أجلك عندما سمعتك تتأوهين.

كان الصبي يتكلم بلهجة صادقة، ولم تستطع السيدة أنْ تغالب عاطفتها، فقالت بصوت مرتعش:

- قبلني مرة أخرى يا توم ثم انصرف إلى المدرسة، ولا تضايقني أكثر من ذلك.

وما كاد الصبي ينصرف حتى أسرعت عمته إلى المطبخ، وخرجت تحمل بقايا السترة «الچاكتة» التي ارتداها توم عندما ذهب للقرصنة، ثم توقفت وقالت لنفسها:

- والآن سأطمئن.. مسكين هذا الصبي، أعتقد أنه كذب عليَّ في هذا الشأن أيضًا، لكنها كذبة محمودة.. لأنها تجلب لي راحة عظيمة، وإني لأحمد الله -وليرحمني الله- لأن الصبي كان طيب القلب جدًّا حين أفضى إليَّ بهذا القول.. ولكني لا أريد أنْ أكتشف أنها كانت أكذوبة.

وأعادت السترة إلى مكانها، ووقفت تفكر قليلًا.. ثم مدت يدها مرتين لتلتقط السترة وهي تجفل.. وبعدئذ استجمعت شجاعتها وهي تقول مناجية نفسها «إنها أكذوبة حسنة.. أكذوبة حسنة.. لن أدعها تحزنني»، وتحسست جيب السترة.. وبعد لحظة كانت تقرأ رسالة توم والدموع تطفر من عينيها، ثم قالت في استطاعتي أنْ أصفح الآن عن هذا الصبي حتى ولو كان قد ارتكب مليونًا من الآثام.

***

الفصل العشرون

توم يتلقى عقوبة بيكي

أدرك توم أنّ شعورًا غير عادي كان يسيطر على عمته بولي حينما قبلته، لأن ذلك الشعور اكتسح انهيار روحه المعنوية وجعله يستشعر السعادة مرة أخرى.. كان الحظ قد جعله يلتقي ببيكي تاتشر عند «ميدولين» وهو في طريقه إلى المدرسة، ولما كانت حالته النفسية هي دائمًا التي تملي عليه تصرفاته.. فقد ركض نحوها بلا تردد وقال لها:

- لقد تصرفت تصرفًا وضيعًا اليوم يا بيكي، وإني لآسف على ما بدر مني، وأؤكد لكِ إنني لن أفعل ذلك ثانية طالما حييت فأرجو الصفح.

فتوقفت الفتاة عن السير وتطلعت إليه في سخرية وقالت:

- أكون شاكرة لو إنك احتفظت باعتذارك لنفسك يا مستر توماس سوير، فإنني لن أخاطبك ثانية، وشمخت بأنفها، ومضت في سيرها. فجمد في مكانه مسمرًا، ولم يسعفه تفكيره حتى ليقول لها «ومَن ذا الذي يأبه لقولك هذا يا آنسة؟» وبذلك أفلتت منه الفرصة، ومِن ثَمَّ فقد صمت، ولكنه كان يهدر من الغضب كالبركان، وانطلق إلى المدرسة وهو يكظم غيظه. وعندما رآها أمام المدرسة، توجه إليها بملاحظة لاذعة.. فقابلته بملاحظة أشد لذعًا، وعندئذ انفجر غضبه.. وخيّل لبيكي في ثورة غضبها أنها لن تستطيع أنْ تنتظر حتى تبدأ الدراسة لتثأر لنفسها، كانت تشعر بنفاد صبر شديد.. إذ كانت ترغب في أنْ ترى توم يُضرَب ضربًا مبرحًا بسبب المداد الذي انسكب على كتاب الإملاء.. ومع أنها كانت قد راودتها فكرة كشف أمر ألفريد تمبل، فإنّ هذه الفكرة لم تلبث أنْ تلاشت تمامًا من رأسها بعد أنْ سخر توم منها.

مسكينة هذه الفتاة! لقد كانت تجهل ما يخبئه القدر لها من متاعب.. ذلك أنّ المدرس «مستر دوبينز» كان قد بلغ منتصف العمر ولما يحقق طموحه، فقد كان كل أمله في الحياة أنْ يصبح طبيبًا.. ولكن الفقر قرر ألا يجعله أكثر من مدرس في قرية.. وفي كل يوم كان يخرج كتابًا غامضًا من مكتبه يستغرق في مطالعته عندما يكون تلاميذه منصرفين إلى استذكار درسهم.. ولقد حرص «مستر دوبينز» على الاحتفاظ بسرية هذا الكتاب.. فكان يغلق درج مكتبه بالمفتاح. ولهذا كان جميع مَن في المدرسة يتحرقون شوقًا إلى إلقاء نظرة واحدة على محتوياته، ولكن الفرصة لم تسنح لأحد منهم، وكان لكل صبي وفتاة رأي خاص في طبيعة هذا الكتاب، ولكن رأيين من هذه الآراء لم يكونا متشابهين.. ولم تكُن هناك وسيلة لمعرفة الحقيقة..

وقد اتفق أنْ كانت بيكي تمر بالمكتب في هذا اليوم، فلاحظت أنّ المفتاح موجود في القفل، كانت فرصة ذهبية فتلفتت حولها وحينما وجدت نفسها وحيدة، فتحت درج المكتب وأخرجت الكتاب منه.. كان عنوان الكتاب «كتاب الأستاذ فلان في التشريح» ولم تفهم الفتاة معنى كلمة تشريح، ومِن ثَمَّ بدأت تقلب صفحات الكتاب، وسرعان ما وقعت عيناها على لوحة جذابة ملونة لجسم الإنسان عاريًا.. وفي تلك اللحظة سقط ظل على الصفحة.. ودخل توم سوير من الباب ولمح الصورة، فارتبكت الفتاة.. وحينما همت بغلق الكتاب، شاء سوء حظها أنْ تتمزق صفحة الرسم من منتصفها، ودفعت بيكي بالكتاب في درج المكتب وأدارت المفتاح في القفل، ثم انفجرت باكية وهي تشعر بأشد الخزي.

وصاحت: توم سوير إنك وضيع أشد الضعة، كيف تجرؤ على اختلاس النظر إلى ما يتطلع إليه الآخرون!

- وكيف كان يمكنني أنْ أعرف أنك تتطلعين إلى شيء كهذا؟

- يجب عليك أنْ تخجل من نفسك يا توم سوير.. لا شك في إنك ستشي بي، أواه يا ربي! ماذا عساي أفعل.. ماذا عساي أفعل؟ سأُضرَب بالسوط.. أنا التي لم أُضرَب في المدرسة من قبل إطلاقًا.

ضربت الأرض بقدمها الصغيرة في عنف استطردت..

- كُن وضيعًا إنْ شئت إنني أعرف أنّ شيئًا ما سيحدث لك.. انتظر فسترى! إنني أكرهك.. أكرهك.. أكرهك!

ثم انطلقت من الغرفة وهي تنشج بشدة.

وجمد توم في مكانه وقد أذهلته المفاجأة.. ولكنه لم يلبث أنْ قال لنفسه:

- يا لها من فتاة حمقاء غريبة الأطوار. لم يسبق لها أنْ ضُرِبَت في المدرسة! هذا سخف، إذًا لماذا يخجل الإنسان من الضرب؟ هكذا شأن الفتيات.. إنّ جلدهن رقيق للغاية وقلوبهن ضعيفة أيضًا، حسنًا.. بالطبع أنا لن أقول لمستر دوبينز شيئًا عمّا ارتكبته هذه الحمقاء الصغيرة، لأن هناك وسائل أخرى ليست على هذا القدر من الضعة للثأر منها، لكن ماذا

سيحدث؟ سيسأل مستر دوبينز مَن الذي مزق الكتاب؟ ولن يجيب أحد على هذا السؤال، وعندئذ سيلجأ إلى الطريقة التي يتبعها دائمًا؛ فيسأل أول تلميذ أمامه ثم ينتقل إلى غيره.. وهلم جرا... وعندما يصل إلى الفتاة المذنبة سيعرف الحقيقة دون أنْ يحدثه عنها أحد، لأن وجوه الفتيات تفضحهن دائمًا.. حينها سيضربها بقسوة، مهما يكُن.. سيكون موقف الفتاة حرجًا جدًّا!

وأطال توم التفكير في الموقف، ثم قال حسنًا.. إنها تتمنى لو استطاعت أنْ تراني في مثل هذا المأزق، فلتنل إذن جزاءها.

وانضم توم إلى زملائه الذين كانوا يلعبون في ساحة المدرسة، وبعد دقائق قليلة وصل المدرس.. وانتظم التلاميذ والتلميذات في الفصل، ولم يشعر توم بأي رغبة في متابعة دروس مستر دوبينز. وكان كلما ألقى نظرة في اتجاه مقاعد البنات.. ووقع بصره على وجه بيكي، انتابه قلق شديد.. صحيح إنه كان حانقًا عليها أشد الحنق، ولكنه كان رغم ذلك لا يتمالك نفسه من العطف عليها، وبعد قليل اكتشف المسكين حادث الكتاب الملوث بالمداد، وعندئذ انصرف تفكير توم كله إلى متاعبه الخاصة.

أما بيكي فقد نفضت عنها الجمود، وراحت تراقب ما يحدث باهتمام شديد، لم تكن تتوقع أنْ يتمكن توم من التخلص من متاعبه، بمجرد إنكار أنه سكب المداد على الكتاب! ولقد صح ما توقعته؛ إذ يبدو أنّ الإنكار جعل الموقف يزداد سوءًا بالنسبة للصبي.. ولقد افترضت بيكي أنّ متاعب توم ستسرها، وحاولت أنْ تجعل نفسها تؤمن بأنها مسرورة.. ولكنها لم تلبث أنْ اكتشفت أنها ليست واثقة من ذلك؛ فعندما تحرج الموقف، أحست برغبة ملحة تدفعها إلى كشف الحقيقة.. ولكنها بذلت مجهودًا جبارًا كيلا تفعل ذلك، وأرغمت نفسها على السكوت لأنه -كما قالت لنفسها- سيشي بي ويقول «إنني مزقت الصورة.. لن أقول كلمة واحدة ولو كانت هذه الكلمة هي التي ستنقذ روحه!».

وتلقى توم جزاءه ضربًا مبرحًا، ثم عاد إلى مكانه دون أنْ يشعر بأنه مظلوم، لأنه ظن أنّ من الجائز أنْ يكون قد قلب المحبرة على صفحات الكتاب بغير أنْ يفطن للأمر، صحيح أنه أنكر أنه فعل ذلك، ولكن ما قاله لم يكُن عن إيمان.. إنما بدافع من العادة.

مرت ساعة، ثم جلس المدرس فوق عرشه، وأحس بثقل أجفانه؛ فقد انصرف تلاميذه وتلميذاته إلى استذكار دروسهم.. ولكنه سرعان ما اعتدل في جلسته وتثاءب، ثم فتح درج مكتبه ومد يده فأخرج الكتاب، فرفع معظم التلاميذ رؤوسهم وتطلعوا إليه بفتور.. سوى أنّ اثنين منهم كانا يراقبان حركاته باهتمام شديد، وأخذ مستر دوبينز يقلب صفحات الكتاب بتراخٍ، ثم هز رأسه واستعد للقراءة.. وفي تلك اللحظة ألقى توم نظرة خاطفة على بيكي، وعندئذ رق قلبه لمنظرها ونسيَ مشاجرته معها، كان لا بُد من أنْ يفعل شيئًا سريعًا! ولكن خطورة الموقف شلت تفكيره تمامًا.. وحدثته نفسه بأنْ يقفز من مكانه ويخطف الكتاب من يد المدرس ويهرب به، ولكن تفكيره هذا استغرق لحظة أضاعت منه الفرصة.. فقد فتح المدرس الكتاب، ولم يَعُد في استطاعته أنْ يساعد بيكي.. وفي اللحظة التالية، واجه المدرس الفصل فغض التلاميذ والتلميذات من أبصارهم أمام نظرته الصارمة.. وساد صمت رهيب. ثم قال المدرس بصوت مخيف:

- مَن الذي مزق هذا الكتاب؟

ولم يجب أحد، وظل الصمت شاملًا. وراح مستر دوبينز يتأمل الوجوه باحثًا عن أي علامة تكشف عن المجرم الأثيم!

صاح فجأة: هل مزقت هذا الكتاب يا بنيامين روجرز؟

ونفى الصبي ذلك.. وساد الصمت مرة أخرى.

- هل مزقته يا چوزيف هاربر؟

ونفى الصبي ذلك أيضًا.

وبعد أنْ استعرض المدرس وجوه التلاميذ، فكر لحظة.. ثم انثنى نحو مقاعد البنات وسأل:

- آمي لورنس.. هل مزقتِ الكتاب؟

وهزت الفتاة رأسها سلبًا.

- جراسي ميلر؟

وأنكرت الفتاة أنها مزقت الكتاب.

- سوزان هاربر.. هل فعلتِ ذلك؟

ونفت الفتاة ارتكابها هذا الوزر.

وكانت الفتاة التالية هي بيكي تاتشر، وكان توم ينتفض من قمة رأسه إلى أخمس قدميه من فرط الانفعال.. كما سيطر عليه إحساس بأنّ الموقف قد أصبح ميؤوسا منه.

- وبيكي تاتشر «وتطلع توم إلى وجهها، كان الفزع مجسمًا عليه» هل مزقتِ الكتاب؟ انظري إلى عيني.. هل مزقتِ هذا الكتاب؟

وخطرت ببال توم فكرة أشبه بالبرق، فوثب واقفًا وصاح:

- أنا الذي فعلت ذلك!

وحملق الجميع في وجهه، وقد انتابتهم الحيرة إزاء هذا الفعل غير المعقول، أما توم فقد لزم مكانه لحظة ريثما يستجمع أفكاره المشتتة، وعندما تقدم نحو المدرس ليلقى جزاءه، أحس بأنّ الدهشة، والشكر، والحب التي كانت نظرات بيكي المسكينة تشف عنها، تعتبر أحسن مكافأة له عمّا سيناله من أذى.. ورغم أنّ الضرب الذي تعرض له كان مبرحًا جدًّا، لكنه تقبله بهدوء، ودون أنْ تفلت من شفتيه آهة واحدة؛ حتى لقد جعل ذلك مستر دوبينز محنقًا غاية الحنق، فلم يكتفِ بما أنزله بالصبي من عقاب.. وإنما أمره بالبقاء في المدرسة ساعتين بعد انصراف التلاميذ، وكان توم يعلم أنّ هناك من سينتظره بالخارج حتى يفرج عنه، ولهذا لم يعبأ كثيرًا بهذه العقوبة.

وعندما أوى توم إلى فراشه في تلك الليلة، كان يدبر خطته للانتقام من ألفريد تمبل، وذلك بعدما أخبرته بيكي بالحقيقة بندم شديد، ولكنها لم تحاول إخفاء خيانتها.

وحينما غلبه النعاس، كانت كلمات بيكي الحلوة لا تزال ترن في أذنه..

- «توم.. إنك نبيل غاية النبل».

***

الفصل الحادي والعشرون

يا للبلاغة

اقترب موعد العطلة، فازدادت غلظة مستر دوبينز وقسوته، لأنه كان يسعى إلى إظهار تلاميذه وتلميذاته بمظهر يشرِّفه في يوم الامتحان، ومِن ثَمَّ فإنّ عصاه لم تكف عن الضرب والإيذاء. وكان أكثر التلاميذ تعرضًا للأذى هم الصغار.. أما الكبار منهم والفتيات اللائي بلغن الثامنة عشر فلم يمسهم أذى، وكان ضرب مستر دوبينز للتلاميذ مبرحًا في هذه الفترة.. إذ رغم أنه كان أصلع الرأس يخفي صلعه أسفل شعر مستعار، فإنه كان لا يزال في منتصف العمر، ولم تكُن هناك أي علامة تدل على ضعف عضلاته، وعندما اقترب اليوم العظيم.. خيّل إليه أنه يشعر بمتعة عظيمة كلما عاقب أحد تلاميذه لأقل هفوة. وكانت نتيجة ذلك، إنْ صغار التلاميذ يقضون يومهم في فزع شديد، وليلهم في رسم الخطط للانتقام من المدرس القاسي.. ولم يكونوا يضيعون أي فرصة تعرض لهم للإساءة إليه، ولكنه ظل مسيطرًا عليهم تمامًا.

وأخيرًا جاءت المناسبة الكبرى.. ففي الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم كانت المدرسة تتألق بالأضواء الباهرة، وقد انتشرت في أرجائها باقات الزهور. وجلس المدرس فوق عرشه المرتفع بعظمة.. وخلفه السبورة. وكان يبدو مهيبًا في جلسته، وعلى كل جانب من جانبيه ثلاثة صفوف من المقاعد، وأمامه ستة.. كانت جميعًا مشغولة بالتلاميذ والتلميذات وأولياء أمورهم، وعن يساره وخلف صفوف المواطنين، كانت هناك منصة عريضة أُعدَّت مؤقتًا، وجلس فوقها التلاميذ والتلميذات، والذين كان من المقرر لهم أنْ يشتركوا في تمارين هذه الليلة. صفوف من صغار الفتيان يرتدون ثيابًا نظيفة وإنْ بدا عليهم الضيق.. وصفوف من كبار الفتيان «والأشقياء»، ثم صفوف من الفتيات الصغيرات، والآنسات يرتدين ثيابًا من «الموسلين» وأذرعهن عارية.. وقد تزين بحُلي جداتهن العتيقة، وحلين صدورهن بأشرطة حُمر وزُرق وزين شعورهن بالزهور!

وبدأت الاختبارات، فنهض تلميذ صغير جدًّا، قال في خجل: «لا شك في أنكم لا تتوقعون من شخص في مثل سني أنْ يقف فوق المنبر ليتكلم»... إلخ. وهو يحرص على أنْ يقرن كلماته بإشارات تعبيرية مدروسة من الممكن أنْ تؤديها أي آلة، بفرض أنّ الآلة مصابة بعطل بسيط.. ولكن الصبي استطاع أنْ يؤدي دوره إلى النهاية.. فقوبل بعاصفة من التصفيق، ثم انحنى للحاضرين واختفى.

ونهضت فتاة صغيرة خجول، رددت أسطورة «ماري تملك حملًا صغيرًا»، وبعد أنْ نالت حظها من التصفيق المتواصل.. تراجعت إلى مكانها.

وبرز توم سوير فوق المنبر وقد بدا عليه الغرور وألقى حديثًا استهله بقوله «امنحوني حرية أو دعوني أهلك» وكان يلوح بيديه في عنف، ولكنه لم يلبث أنْ توقف في منتصف الحديث.. فقد ارتبك وتبخرت بقية الحديث من ذاكرته، وركبه الفزع.. وخيّل إليه أنّ ساقيه لم تعودا قادرتين على حمله.. وأنه يوشك أنْ يختنق.. صحيح أنّ جميع الحاضرين أحسوا بالعطف عليه، ولكن صمتهم أدى إلى مزيد من التوتر أيضًا، وقد أساء ذلك الصبي أبلغ إساءة، وزاد من حرج موقفه، وقطب المدرس حاجبيه.. وبذلك اكتملت عناصر الكارثة، وراح توم يجاهد لعله يتذكر بقية الحديث، ولكنه فشل فتراجع، ثم انسحب، ورغم أنّ النظارة حاولوا أنْ يصفقوا له، لكن تصفيقهم انتهى سريعًا.

ومُثلت بعد ذلك رواية تمثيلية، كما أُلقيَت بعض الخُطب الرنانة، وبعدئذ أُجريت اختبارات في القراءة والهجاء. أما فريق اللغة اللاتينية.. فقد أبدع وأجاد. وعلى أثر ذلك حل دور الجزء الرئيسي في الحفل.. «الإنشاء» وهو يتضمن قيام التلميذات كبيرات السن بقراءة الموضوعات الإنشائية التي أعددنها خصيصًا لهذه المناسبة، فكانت كل واحدة منهن تتقدم من المنصة.. وهي تحمل في يدها كراسة أنيقة مربوطة بشريط أحمر جميل، قُرِأ منها الموضوع الإنشائي بلهجة خطابية رائعة. ولقد كانت جميع الموضوعات من ذلك الطراز المألوف.. الذي عالجته أمهات هؤلاء الفتيات وجداتهن، بل جميع أسلافهن من النساء إلى عهد الحروب الصليبية! فكانت هناك موضوعات عن الصداقة، وذكريات الأيام العابرة، والدين في التاريخ، وأرض الأحلام، ومزايا الثقافة، وأشكال الحكومات أبحاث مقارنة، والأحزان، وأشواق القلوب... إلخ.

ولقد كان الطابع الغالب في هذه الموضوعات هو الطابع الحزين، كما كانت جميعها تتصف بالإسراف في استعمال المحسنات اللفظية، والعبارات المنمقة، والأسلوب الخلاب، والكلمات الطنانة التي ألفتها الأذن وارتاحت إليها.

وقامت فتاة تتلو موضوعها، فاستولت على مشاعر السامعين الذين سرت بينهم همهمة تعبر عن التقدير، وكانت تلك الهمهمة مصحوبة بين الحين والحين بهمسات تقول «ما أجمله موضوع!»، «يا للبلاغة!»، «ما أصدق ما تقول!»... إلخ. وإذ

فرغت الفتاة من قراءة موضوعها بعد أنْ سردت موعظة مؤثرة، كان التصفيق ينم عن حماسة بالغة!

ثم وقفت بعد ذلك فتاة نحيفة يبدو عليها الحزن، ويرتسم على وجهها ذلك النوع المثير من الإعياء، الذي يأتي نتيجة لسوء الهضم وتناول العقاقير، وراحت تقرأ قصيدة شعرية قوبلت بعاصفة من التصفيق.

ولم يكُن هناك من بين الكثيرين الذين استمعوا إلى تلك القصيدة سوى عدد ضئيل جدًّا، منهم فهم معنى الكلمات الغريبة التي ضمنتها الفتاة مقطوعتها الشعرية، ولكنهم جميعًا عبروا عن استحسانهم لما سمعوا.

ثم وقفت بعد ذلك فتاة سمراء الملامح، سوداء العينين، فاحمة الشعر. وبعد فترة مؤثرة من الصمت، خلعت على وجهها طابعًا تمثيليًّا، وراحت تتلو بلهجة جدية رزينة مقالًا إنشائيًّا عنوانه «رؤيا»!

وتعاقب التلاميذ والتلميذات، فقرأ كل منهم ما أعده من موضوعات إنشائية.

ويحسن بنا قبل اختتام هذا الفصل أنْ نوجه أنظار القراء إلى أنّ جميع هذه الموضوعات كانت منقولة حرفيًّا من كتاب الشعر والنثر، وإنّ جميع أولئك الذين استمعوا إليها لم يفطنوا إلى تلك الحقيقة!

***

الفصل الثاني والعشرون

هاك فين يتلو آيات من الكتاب المقدس

انضم توم إلى جماعة الأنصار الأطهار بعد أنْ تأثر بمبادئها السامية، فوعد بالإقلاع عن التدخين، ومضغ التبغ، وارتكاب أي رذيلة، طالما هو عضو بالجماعة. ولم يلبث أنْ اكتشف شيئًا جديدًا.. ذلك أنْ تعهد الإنسان بالامتناع عن أداء شيء معين هو الطريق المحقق للاندفاع نحو هذا الشيء بالذات. ومِن ثَمَّ فسرعان ما ألفى توم نفسه أشد ما يكون شوقًا إلى تلك الرذائل، ولم تلبث هذه الرغبة أنْ اشتدت، ولم يخل بينه وبين إرضائها غير أمله في أنْ تتاح له فرصة الظهور أمام الناس، وهو يتحلى بشريط الجماعة الأحمر الذي يميز أفراد تلك الجماعة في المناسبات القومية والحفلات العامة والجنائز.

وركز توم آماله في القاضي الكهل «فريزر» -قاضي السلام- الذي كان يعالج سكرات الموت، فهو حين يموت ستقام له جنازة، يستطيع توم أنْ يسير في مقدمتها مرتديًا الشريط الأحمر.

ومضت ثلاثة أيام كان توم خلالها يتتبع أنباء مرض القاضي بلهفة شديدة، وفي بعض الأحيان كانت آمال توم تنتعش إلى درجة أنه كان يخرج شريط الجماعة ويقف أمام المرآة ليتدرب على ارتدائه، ولكن القاضي رفض أنْ يستسلم للموت، وأخيرًا أعلن أنه تجاوز مرحلة الخطر، وأصبح في دور النقاهة، فاغتاظ توم أيما غيظ، وانتابه ضيق شديد، وبادر فقدم استقالة من الجماعة، وفي الليلة ذاتها انتكس القاضي ومات! وعندئذ قرر توم ألا يثق بمثل هذا الرجل مرة أخرى.

كانت الجنازة حدثًا فريدًا، فقد اصطف أعضاء جماعة «الأنصار الأطهار» بطريقة ابتكرت خصيصًا لإغاظة توم العضو السابق وقتله من الحسد.. ومع ذلك فقد شعر توم بأنه أصبح حرًا، وكان في ذلك بعض عزائه.. إذ أصبح في استطاعته أنْ يشرب ويسب.. ولكن شعوره بالتحرر لم يلبث أنْ تبدد عندما تبين له أنه لم يَعُد يشعر بالرغبة في ارتكاب هذين الإثمين، ولقد ازداد دهشة حينما تبين له أنه يستطيع أنْ يتخلص من هذه الرغبة بسهولة رغم ما فيها من جاذبية وإغراء.

وتعجب توم حينما لاحظ أنّ العطلة التي كان يترقبها بدأت تثقل على نفسه.. حاول أنْ يعد دفترًا يسجل فيه الأحداث اليومية، ولكن حدثًا واحدًا لم يقع خلال أيام ثلاثة، فاضطر إلى صرف النظر عن هذه المحاولة.

وجاءت إلى المدينة أول جماعة من المنشدين الزنوج وأثار مجيئها ضجة. وأنشأ توم وجو فرقة تمثيلية.. وبذلك تحققت لهما السعادة مدة يومين.

وهطل مطر غزير في تلك الأثناء فأفسد الترتيبات، والتي كانت قد وُضِعَت لتأليف موكب لاستقبال أعظم رجل في العالم «كما ظن توم»، وهو «مستر بنتون» أحد أعضاء مجلس النواب الأمريكي، كما أنّ شخصية الرجل نفسه جعلت توم يشعر بخيبة أمل، لأن طول «مستر بنتون» لم يكُن خمسة وعشرين قدمًا كما كان توم يظن!

وجاء إلى المدينة سيرك.. وفيما بعد أعدّ الصبيان سيركًا بداخل خيام مشيّدة من بقايا سجاجيد عتيقة ممزقة، واستمروا يلعبون في هذا السيرك ثلاثة أيام، وقد جعلوا دخوله مقابل ثلاثة دبابيس للصبيان، ودبوسين للفتيات، ثم لم يلبثوا أنْ هجروا السيرك.

وجاء عرّاف ومنوم مغناطيسي إلى المدينة، ثم ذهبا عنها، تاركين المدينة أشد كآبة وانقباضًا من ذي قبل.

وأقيمت للفتيان والفتيات حفلات شديدة البهجة، ولكنها كانت قليلة جدًا، ومِن ثَمَّ كان انتهاء إحداها يترك أثرًا مؤلمًا في النفس.

أما بيكي تاتشر فقد رحلت إلى منزل الأسرة في مدينة بعيدة لتقيم مع أبويها خلال العطلة، وهكذا لم يصبح في الحياة جانب واحد يشيع السرور في النفس.

وظل سر جريمة القتل الرهيبة مصدر تعاسة مزمنة لتوم. فقد كان السر الرهيب ينغص حياته دائمًا!

ثم اكتسح المدينة وباء الحصبة، وبقيَ توم سجينًا في المنزل أسبوعين طويلين، انقطعت خلالهما كل صلة بينه وبين أحداث العالم، واشتدت عليه العلة فلم يَعُد يهتم بشيء، وعندما استطاع أنْ يقف على قدميه مرة أخرى كان يشعر بضعف شديد. ولما غادر المنزل خيّل إليه أنّ تغيرًا كئيبًا شمل كل شيء وكل مخلوق. كان هناك «بعث» جديد، فقد لاحظ الصبي أنّ «النزعة الدينية» تفشت ليس فقط بين الكبار، وإنما أيضًا بين الفتيان والفتيات. وراح توم يتجول هنا وهناك، وهو يأمل أنْ تقع عيناه على وجه واحد يتصف صاحبه بالرذيلة، ولكن خاب فَأْله في كل مكان. فقد التقى «بجو هاربر» فإذا به يستذكر فصلًا من الإنجيل، فسعى إلى «بن روجرز» فوجده يتردد على الفقراء وهو يحمل لهم سلة مملوءة

بالهدايا، فبحث عن «چيم هوليس» ولكن هذا خيب رجاءه فيه. إذ وجه نظره إلى أنّ إصابته بالحصبة تعتبر بركة إلهية شملته.. وهكذا كان كل صبي يصادفه يضيف ضيقًا آخر إلى ما كان يحس به من ضيق، وعندما استولى عليه اليأس لجأ إلى آخر صديق له وهو «هاكلبري فين» فاستقبله هذا الصديق بسرد بعض فقرات من الإنجيل! وعندئذ انفطر قلب توم جزعًا وتسلل إلى منزله حيث لزم الفراش، وهو يدرك أنه الوحيد في المدينة كلها الذي فقد ضميره إلى الأبد!

وفي تلك الليلة، هبت على المدينة عاصفة شديدة مصحوبة بمطر غزير، وهزيم رعد يصم الآذان، ووميض برق يعمي العيون. وغطى توم رأسه وانتظر الموت في خوف وتوتر شديدين، فلم يكُن هناك أدنى شك في أنّ جميع آثامه تلاحقه، كان يؤمن بأنّ القوى العلوية لم تستطع احتمال هذه الآثام بعد أنْ بلغت حدها الأقصى.. فكانت النتيجة تلك العاصفة الجبارة!

وبعد فترة من الزمن، استنزفت العاصفة قواها، ثم لم تلبث أنْ تلاشت بغير أنْ تحقق هدفها من الزمن.. وكان أول خاطر طاف بذهن توم هو أنْ يشكر الله ويستقيم، أما الخاطر الثاني.. فكان يحفزه على التريث، فقد لا تثور عواصف أخرى!

وفي اليوم التالي زاره الأطباء وأعلنوا أنه أصيب بنكسة. وقضى ثلاثة أسابيع وهو ممدد على ظهره، فخيّل إليه أنّ الأسابيع الثلاثة دهر طويل، وعندما استطاع أنْ يتغلب على المرض ويستأنف حياته، لم يستشعر غبطة أو مرحًا لأن الوحدة كانت تعذب روحه، وأخذ يسير في الطريق بتثاقل، ولم يلبث أنْ التقى بچيم هوليس، فوجده يلعب دور القاضي في محكمة مؤلفة من الصبيان لمحاكمة قط ارتكب جريمة قتل، وكانت المحاكمة بحضور الضحية وهي طائر، والتقى توم بچو هاربر وهاكلبري فين في أحد الطرقات الجانبية، وكانا يلتهمان بطيخة مسروقة، مساكين هؤلاء الفتيان.. فإنهم مثل توم قد أصيبوا بنكسة.

***

الفصل الثالث والعشرون

خلاص ماف بوتر

وأخيرًا دبت الحياة في الجو الراكد، فقد قدمت قضية جريمة القتل للمحكمة. وأصبح موضوعها هو مادة كل حدث في القرية، ولم يستطع توم أنْ يهرب من تأنيب الضمير، إذ كانت كل إشارة إلى الجريمة تجعل قلبه يطرق بعنف شديد. وكاد ضميره ومخاوفه ينجحان في إقناعه بأنّ هذه الملاحظات إنما كانت تُقال أمامه عمدًا، ولكنه لم يستطع أنْ يدرك كيف يعرف الناس أنه يُخفي شيئًا يعرفه عن الجريمة. ومع ذلك فإنه لم يكُن يشعر بأي راحة وسط هذه الأحاديث، وتولاه الفزع بعد ذلك، فانتحى بهاك مكانًا منعزلًا ليتحدث إليه، فقد كان يحس بأنّ إطلاق العنان قليلًا للسانه مع شخص يقاسمه احتمال عبء هذا السر، جدير بأنْ يفرج كربه، ثم إنه كان يريد أنْ يستوثق من أنّ هاك ما زال أمينًا على السر.

- أخبرني يا هاك.. هل حدثت أحدًا عن ذلك؟

- عن ماذا؟

- إنك تعلم ماذا أقصد.

- أوه.. هل تقصد سر جريمة القتل؟

- نعم.. أقصد ذلك! هل قلت شيئًا لأحد؟

- لم أقل شيئًا لأحد.. ما الذي جعلك تسألني عن ذلك؟

- إنه الخوف.

- ثق أنك ما كنت لتعيش يومين متعاقبين يا توم سوير لو أنّ السر ذاع وشاع.. أنك تعلم ذلك بغير شك! وأحس توم براحة أكثر، وقال بعد فترة صمت قصيرة:

- أخبرني يا هاك.. ألا يستطيع أحد أنْ يرغمك على الكلام؟

- يرغمني؟! لو أنني رغبت في أنْ يفتك هذا الشرير بي، لجعلتهم يرغمونني على الكلام فليس ثمَّة سبيل آخر.

- حسنًا إذن.. أعتقد أنه لا خطر علينا، طالما حرصنا على التزام الصمت، لكن دعنا نعيد القسم على كل حال لأن في ذلك تأكيدًا أقوى.

- لا بأس.

وكرر الصبيان قسمهما بلهجة جدية.

وسأل توم: إذن فِيمَ كانت كل هذه الأحاديث يا توم؟ فقد سمعت منها الشيء الكثير!

- أحاديث؟ إنه ماف بوتر.. ماف بوتر.. ماف بوتر طوال الوقت. والحق أنّ هذه الأحاديث تملأ قلبي فزعًا مستمرًا مما جعلني أود أنْ أختبئ في مكان ما.

- هذا هو أيضًا ما كان يدور بخاطري كلما سمعت هذه الأحاديث، أكبر ظني أنّ ماف بوتر مقضى عليه بالهلاك.. ألا تشعر بالأسف من أجله أحيانًا؟

- بل يجب أنْ أشعر بهذا الأسف دائمًا.. دائمًا، إنه ليس شخصية مُهمة.. ولكنه لم يفعل ما يسيء إلى أي إنسان، إنه يصطاد السمك ليحصل على قليل من النقود يحتسي بها الخمر، كما أنه كثير التسكع، ولكن يا إلهي إننا جميعًا أو معظمنا على الأقل نفعل ذلك، إنّ ماف بوتر رجل طيب، فقد أعطاني نصف سمكة ذات مرة، مع أنه لم يكُن يملك سمكًا يكفي شخصين، وفي كثير من المناسبات كان الرجل يساعدني عندما يتخلى الحظ عني.

- هذا حق.. ولقد ساعدني أنا الآخر كثيرًا.

- بودي لو استطعنا إنقاذه.

- إننا لا نستطيع ذلك يا توم، ثم إنّ ذلك لن ينفعه في شيء لأنهم لن يلبثوا أنْ يقبضوا عليه ثانية.

- نعم.. هذا صحيح، ولكن أكره أنْ يسيئوا معاملته هكذا رغم أنه لم يرتكب الجريمة.

- وأنا أيضًا يا توم.. لقد سمعتهم يقولون إنه أفظع الأشرار منظرًا في هذه البلاد، وكثيرون يعجبون لماذا لم يُشنَق من قبل.

- نعم.. إنهم يتحدثون على هذا النحو طوال الوقت، وقد سمعتهم يقولون إنه إذا أفرج عنه فسوف يفتكون به.

- وأحسب أنهم سيفعلون ذلك.

وطال حديث الصبيين، ولكن حديثهما لم يجلب لهما أي ارتياح، وعندما بدأ الليل يرخي سدوله وجدا نفسيهما على مقربة من السجن المنعزل. ولعل أملًا غير مفهوم كان يراودهما في أنْ يحدث شيء ما يخلصهما من متاعبهما، ولكن هذا الشيء لم يحدث، إذ يبدو أنه لم يكُن هناك ملائكة، أو جنيات يهمهن أمر السجين سيئ الحظ.

وعمل الصبيان ما عملاه كثيرًا من قبل، تقدما من نافذة السجن، وقدما لبوتر بعض التبغ وأعواد الثقاب، فقد كان الرجل سجينًا في الطابق الأرضي دون أنْ يحرسه أحد.

وكان شكره لهما على هداياهما يعذب ضميرهما من قبل، أما اليوم فقد شعرا بقلبيهما يتمزقان. كما أحسا بأنهما نذلان خائنان إلى أقصى حد.

قال بوتر: لقد كنتما دائمًا شديدي العطف عليَّ، كنتما أكرم من أي شخص آخر في المدينة، ولن أنسى لكما ذلك.. لن أنساه.. إنني كثيرًا ما أقول لنفسي: لقد اعتدت أنْ أصلح طائرات جميع الفتيان، وأدلهم على أحسن الأماكن لصيد السمك، وأصادقهم قدر طاقتي، ولكنهم جميعًا نسوا بوتر التعس الآن عندما أطاحت به الكوارث، بيد أنّ توم وهاك لم ينسياه، إنهما لا ينسيانه، وأنا لن أنساهما. لا تحزنا أيها الصبيان، فقد ارتكبت أمرًا بشعًا -ثملت وجننت في ذلك الوقت- ذلك هو تقديري للموقف، وقد حق عليَّ أنْ أُعْدَم من أجل ذلك. وأظن أنّ هذا هو العدل، إنه الصواب! وقد يكون أحسن علاج للموقف، أرجو ذلك على كل حالٍ حسنًا.. إننا لن نطرق هذا الموضوع لأنني لا أريد أنْ أسيء إلى شعوركما بعد أنْ صادقتماني، ولكن ما أريد قوله لكما هو إياكما واحتساء الخمر؛ فإنّ ذلك هو وحده الكفيل بعدم مجيئكما إلى هنا. قفا إلى الغرب قليلًا -هكذا- فإنه لما يجلب الراحة للإنسان أنْ يرى وجوهًا صديقة، عندما تحيط به نكبة كهذه، وينصرف الجميع عنه فلا يبالي أحد غيركما بمتاعبه، إنّ وجهيكما وجهان طيبان صديقان. فليصعد أحدكما فوق ظهر الآخر ويجعلني ألمس وجهه، هذا حسن.. فلنتصافح.. إنّ أيديكما تستطيع الدخول من بين قضبان النافذة، أما يدي فغليظة، إنّ أيديكما صغيرة وضعيفة ولكنها ساعدت ماف بوتر أفضل مساعدة، وليس من شك في أنها ما كانت لتحجم عن تقديم مزيد من المساعدة، لو كان ذلك في طاقتها.

وعاد توم إلى المنزل وهو يشعر بأنه أصبح أشقى الناس جميعًا.. كانت أحلامه مفعمة بأسباب الفزع في تلك الليلة. وفي اليوم التالي، أخذ الصبي يتسكع حول قاعة المحكمة، وهو يشعر بحافز قوي يدفعه إلى دخول القاعة، ولكنه نجح في مقاومته والبقاء خارجها، ولقد عانى هاك من عذاب مماثل.. وحرص كل من الصبيين على تجنب لقاء الآخر.. كان كل منهما يهيم على وجهه من حين لآخر.. ولكن سحر القاعة كان يجتذبهما إليها. وكان توم يرهف السمع كلما خرج المتفرجون من قاعة المحكمة، ولكنه كان يسمع دائمًا أنباء تثير الجزع.. كانت الحلقة تضيق بعنف حول عنق بوتر التعس شيئًا فشيئًا. وعند نهاية اليوم الثاني، كان حديث القرية كلها يدور حول شهادة إنجان چو، وكيف أنها محكمة حاسمة، وإنه ليس هناك أدنى شك فيما سيكون عليه الحكم الذي سيصدره المحلفون.

وظل توم خارج المنزل حتى ساعة متأخرة في تلك الليلة، وتسلل إلى فراشه من النافذة كعادته في بعض الأحيان، كان في حالة انفعال شديد. وانقضت ساعات طويلة قبل أنْ يتمكن من النوم. وفي صباح اليوم التالي، انطلق سكان القرية جميعًا نحو قاعة المحكمة، لأن ذلك اليوم كان يوم النطق بالحكم. وقد مثَّل الجنسان بعدد متساوٍ تقريبًا من الحاضرين، وازدحمت القاعة بشكل لم يسبق له مثيل، وبعد فترة انتظار طويلة اصطف المحلفون في أماكنهم، ثم جيء ببوتر، وهو مكبل بالأغلال، وقد بدا عليه الإعياء والخوف والجزع، وأُجلِس في مكان يتيح لجميع النظارة أنْ يحملقوا فيه، ولم يكُن إنجان چو بمستثني من هؤلاء النظارة، ولكنه كان جامدًا كعادته. ومرت فترة انتظار أخرى، ثم وصل القاضي وأعلن العمدة بدء المحاكمة، فسرت في التو الهمسات المعتادة بين المحامين الذين راحوا يقلبون أوراقهم استعدادًا للنضال، ولقد خلق هذا التريث جوًّا غامضًا مثيرًا.

واستُدعَى شاهد قرر أنه رأى ماف بوتر يغتسل في رافد النهر في ساعة مبكرة من صباح اليوم الذي أُكتشِفَت فيه

الجريمة، وإنه بادر بالابتعاد. وبعد أنْ نوقش الشاهد قليلًا.. قال وكيل النيابة:

هل يريد الدفاع سؤال الشاهد؟

ورفع السجين حاجبيه لحظة.. ولكنه لم يلبث أنْ دُهِش حينما قال محاميه:

لا أريد أنْ ألقي عليه أي أسئلة.

وقرر الشاهد الثاني أنه عثر على السكين بالقرب من جثة القتيل. فقال وكيل النيابة:

هل يريد الدفاع سؤال الشاهد؟

فأجاب محامي بوتر: لا أريد أنْ ألقي عليه أي أسئلة.

وأقسم الشاهد الثالث على أنه كثيرًا ما رأى هذه السكين في حوزة بوتر.

- هل يريد الدفاع سؤال الشاهد؟

ورفض محامي بوتر أنْ يسأل الشاهد. فبدأ الغضب على وجوه النظارة، وراحوا يتساءلون هل يعتزم المحامي القضاء على حياة موكله بغير أنْ يبذل أي مجهود للدفاع عنه؟

وشهد كثيرون بأنّ سلوك بوتر كان مريبًا جدًّا عندما جيء به إلى مسرح الجريمة! ثم سمح لهم بمغادرة منصة الشهود عندما أعلن المحامي أنه لا يريد إلقاء أي أسئلة عليهم.

وهكذا سرد الشهود بالتفصيل جميع الظروف التي أحاطت بمسرح الجريمة في ذلك اليوم المشئوم، ومع ذلك فإنّ محامي بوتر لم يحاول أنْ يستبقي أحدًا منهم لسؤاله.. وعندئذ سرت بين الحاضرين همهمة دلت على مدى ما يشعرون به من قلق وعدم ارتياح حيال تصرف المحامي، كما أنّ القاضي والمحلفين أنفسهم كانوا يتطلعون إلى المحامي بعيون يتمثل فيها التأنيب.

وأخيرًا قال وكيل النيابة:

بحق قسم الشهود الذين تعلو كلمتهم الصادقة فوق كل ريبة، لقد أثبتنا هذه الجريمة المروعة بلا أدنى ريب على السجين التعس، وإنا لنترك القضية عند هذا الحد.

وتأوه بوتر المسكين وأخفى وجهه بين راحتيه، وراح يهتز بجسمه من جانب إلى آخر. بينما شمل القاعة صمت عميق.. بدا التأثر على أكثر الرجال، أما النساء فقد غلبتهن عاطفتهن فبكين، وعندئذ نهض الدفاع وقال:

- يا صاحب السعادة، لقد حاولنا في بدء هذه المحاكمة أنْ نبرهن على أنّ موكلنا ارتكب هذا الجرم البشع، وهو واقع تحت تأثير الهذيان المخيف الذي أحدثته الخمر، ولكننا لا نتمسك اليوم بهذا الدفاع، ولن نتقدم إليكم مطالبين بالرأفة بالمتهم.. «وتحول إلى كاتب الجلسة وقال له»: نادِ توماس سوير.

وبدت على وجوه جميع الحاضرين علامات الحيرة المقترنة بالدهشة، وكان أشدها امتقاعًا وجه بوتر نفسه. وتركزت جميع العيون باهتمام لا يخلو من الدهشة في توم وهو ينهض ويأخذ مكانه فوق المنصة. وكان الصبي يبدو شديد الانفعال والخوف.. وبعد أنْ حلف الشاهد اليمين سأله محامي المتهم:

- أين كنت يا توماس سوير نحو منتصف ليلة ١٧ من يونيو؟

وتطلع توم إلى وجه إنجان چو الجامد، وفي التو خذله النطق، وحبس النظارة أنفاسهم ليسمعوا كلمات الصبي، ولكن الكلمات رفضت أنْ تخرج من فم توم، غير أنه استطاع في النهاية أنْ يستجمع بعض شجاعته.. وقال بصوت خافت لم يسمعه سوى بعض الحاضرين:

- في الجبانة.

- ارفع صوتك قليلًا.. لا تخف.. كنت في...

- الجبانة.

وانفرجت شفتا إنجان چو عن ابتسامة غاضبة.

- هل كنت على مقربة من مقبرة هورس ويليامز؟

- نعم يا سيدي.

- تكلم بصوت أكثر ارتفاعًا.. ماذا كانت المسافة بينك وبينها؟

- كالمسافة التي بيني وبينك الآن؟

- هل كنت مختبئًا أم ماذا؟

- كنت مختبئًا.

- أين؟

- خلف شجرة البلوط القائمة عند حافة القبر.

وأجفل إنچان چو، ولكن أحدًا لم يفطن إلى اضطرابه.

- هل كان معك أحد؟

- نعم يا سيدي.. ذهبت إلى هناك مع...

- انتظر.. انتظر لحظة.. لا ضرورة لذكر اسم زميلك.. فسوف نقدمه للمحكمة في الوقت المناسب. هل كنت تحمل شيئًا عندما ذهبت إلى الجبانة؟

فتردد توم.. وبدا عليه الاضطراب، فقال المحامي:

- تكلم يا بني.. لا تتردد لأن الحق محترم دائمًا.. ماذا أخذت معك؟

- فقط.. فقط.. قطة ميتة..

وكاد النظارة ينفجرون ضاحكين، ولكن المحكمة طالبتهم بالتزام الصمت.

وقال المحامي: سنقدم جثة هذه القطة فيما بعد.. والآن، قُل لنا كل ما حدث يا بني.. قُله بطريقتك الخاصة، ولا تغفل شيئًا، كذلك لا تخف.

وبدأ توم يسرد قصته بتردد أول الأمر، ثم سرعان ما مضى في حديثه، فأخذت الكلمات تتدفق بسهولة أكثر وأكثر، وبعد قليل هدأت جميع الأصوات إلا صوت الصبي، وحدقت جميع العيون فيه، وراح النظارة يستمعون إليه، وقد انفرجت شفاههم واحتبست أنفاسهم بغير أنْ يأبهوا لمرور الوقت، فقد خلبت القصة المثيرة ليهم، وبلغ التوتر ذروته حينما قال الصبي:

- وبينما كان الدكتور يلتقط قطعة الحديد من فوق شاهد القبر ويضرب ماف بوتر بها لخمد أنفاسه، وثب إنچان چو والسكين في يده و...

وعندئذ ارتفع صوت تحطيم زجاج في القاعة وفي سرعة خاطفة! وثب إنچان چو من النافذة كالسهم المنطلق، وشق طريقه بقوة وسط معارضيه، ثم اختفى!

***

الفصل الرابع والعشرون

أيام رائعة وليال مخيفة

أصبح توم بطلًا ونجمًا متألقًا مرة أخرى، يُدَلِلَه الكبار ويحسده الصغار، بل لقد ظهر اسمه في الصحف، فأشادت به صحيفة القرية، وكان هناك أشخاص يعتقدون أنه سيصبح رئيسًا للولايات المتحدة، إذا نجا من الموت.

وكالعادة، حنت الدنيا التي لا تفكر على ماف بوتر، ودللته بسخاء مثلما أسرفت في الإساءة إليه، ولكن لما كان هذا اللون من السلوك في مصلحة المجتمع، يجدر بنا ألا نحاول النيل منه.

كانت أيام توم فترات مجد وطرب، ولكن لياليه كانت مواسم رعب وفزع، فقد كان شبح إنچان چو يفسد عليه أحلامه، إذ كان يتمثل له والغدر في عينيه، ولهذا كان من المستحيل إغراء الصبي بالخروج من المنزل بعد أنْ يسدل الليل ستاره على الدنيا. وكان هاك التعس يعاني من حالة مماثلة من الرعب والفزع، كان توم قد أفضى بالقصة كلها إلى محامي بوتر، وفي الليلة السابقة على يوم النطق بالحكم في القضية، وكان هاك يرتعد خوفًا خشية أنْ يُعرَف شيء عن دوره في المأساة، رغم أنّ فرار إنچان أعفاه من الإدلاء بشهادته في المحكمة. كان الصبي التعس قد حصل على وعد من المحامي بالتزام السرية، لكن ما جدوى هذا الوعد؟ لقد أفلح ضمير توم، وما أنزله به من عذاب في دفع الصبي إلى الذهاب لمنزل المحامي ليلًا، وسرد القصة كلها عليه، رغم القسم الذي أقسمه مع هاك! وهكذا تزعزعت ثقة هاك بكل الناس!

وكان ماف بوتر يعرب لتوم عن شكره كل يوم، مما جعل الصبي يشعر بالسرور لأنه تكلم، ولكن ما أنْ يجن الليل حتى يعود فيتمنى لو أنه ظل مطبقًا شفتيه.

كان توم يخشى ألا يُقبَض على إنچان، كما كان يخشى القبض عليه بعد فوات الأوان، وكان يشعر في قرارة نفسه بأنه لن يستطيع أنْ يتنفس بحرية حتى يموت هذا الرجل ويرى جثته بعينيه.

وقُدمَت لتوم مكافأة لما أبداه من شجاعة في تطهير المدينة، ولكن أحدًا لم يستطع العثور لإنچان على أثر، وجيء من سانت لويس بمفتش بوليس سري من أولئك الذين يفعلون الأعاجيب، وراح المفتش يبحث هنا وهناك، ثم لم يلبث أنْ هز رأسه سلبًا، وبدت عليه أمارات الجد، وقال إنه لم يستطع أنْ يعثر على دليل. وما إنْ كاد مفتش البوليس السري ينتهي من عمله ويعود إلى منزله، حتى عاد توم إلى قلقه وخوفه.

ومضت الأيام، وكان كل يوم منها يخلف وراءه حملًا أثقل من الخوف.

***

الفصل الخامس والعشرون

البحث عن الكنز المدفون

في حياة كل صبي قوي البنية، وقت تعتمل خلاله في نفسه رغبة جارفة تدفعه إلى الذهاب إلى مكان ما للبحث عن كنز مدفون. وقد أحس توم بهذه الرغبة فجأة في أحد الأيام، فانطلق يبحث عن چو هاربر، ولكنه فشل في إقناعه بمرافقته، فمضى لمقابلة بن روجرز، ولكنه علم أنه ذهب لصيد السمك.

وأخيرًا التقى بصديقه هاكلبري الذي وافق على مرافقته، فأخذه توم إلى مكان منعزل، وفاتحه في الموضوع بثقة، ووافق هاك على الفكرة. كان هاك على استعداد للاستجابة دائمًا، والاشتراك في أي مشروع يبشر بمتعة دون أنْ يستلزم أي رأسمال سوى الوقت الذي كان يملك منه رصيدًا لا نهاية له.

وقال هاك: ولكن أين الكنز؟

- في أي مكان؟

- لماذا؟ هل الكنز مخبأ في كل مكان؟

- كلا بالطبع، إنه مخبأ في أماكن معينة يا هاك.. فأحيانا يُخفى في جزرٍ، وأحيانًا أخرى في صناديق متآكلة تحت جذع شجرة عتيقة ميت؛ حيث يسقط الظل عند منتصف الليل، ولكنه يُخفى في أكثر الأحيان أسفل أرضية المنازل المسكونة بالأشباح.

- ومَن الذي يخبئه؟

- مَن؟ اللصوص بالطبع، وإلا فمَن الذين يخبئونه؟ المشرفون على مدارس الأحد؟!

- لست أدري، لو كان الكنز كنزي لما أخفيته، وإنما أنفقته وأستمتع بوقت طيب.

- كذلك أنا، ولكن اللصوص لا يفعلون ذلك، إنهم يخبئون كنوزهم دائمًا ويتركونها حيث هي.

- ألا يجيئون بعدها لاستعادتها؟

- لا، إنهم يظنون أنهم سيفعلون ذلك، ولكنهم ينسون عادة العلامات أو يموتون. مهما يكُن، فإنّ الكنز يظل مدفونًا حيث هو وقتًا طويلًا حتى يصدأ.. وفي يوم ما يعثر شخص ما على ورقة كبيرة قديمة صفراء اللون، تبين كيف يمكن العثور على العلامات، ورقة يجب أنْ ينقضي أسبوع قبل النجاح في حل رموزها، لأن هذه الرموز تكون غالبًا عبارة عن علامات ومعالم.

- معالم؟

- نعم معالم، صور وأشياء يبدو وكأنها لا تعني شيئًا.

- هل لديك ورقة منها يا توم؟

- لا.

- إذن، كيف ستعثر على العلامات؟

- لست بحاجة إلى أي علامات، فإنّ اللصوص يدفنون الكنوز دائمًا أسفل منزل مسكون بالأشباح، أو في جزيرة، أو أسفل شجرة ميتة لها فرع واحد بارز، على أي حالٍ.. لقد ألفنا جزيرة «چاكسون» بعض الشيء ويمكننا أنْ نعود إليها ثانية في وقت ما.. وهناك أيضًا العتيق المسكون في «ستيل هاوس»، كما أنّ هناك عددًا كبيرًا من جذوع الأشجار الميتة.

- وهل الكنز أسفلها جميعًا؟

- ما هذا الذي تقوله؟ لا.

- إذن كيف ستعرف أيها هو الذي يجب أنْ تذهب إليه؟

- سأذهب إليها جميعًا.

- ولكن ذلك سيستغرق الصيف كله.

- فليكن.. وماذا في ذلك؟ لنفرض أننا عثرنا على قدر نحاسي بداخله مئة دولارٍ وجميعها يعلوها الصدأ، أو على صندوق متآكل مملوء بالماس، فما رأيك في ذلك؟

فتألقت عينا هاك وقال:

- هذه ثروة.. ثروة كبيرة بالنسبة إليَّ، يكفي أنْ تعطيني المئة دولار، فإنني لست بحاجة إلى الماس.

- حسنًا ما تقول، فإنني لن أتخلى عن الماس. فإنّ بعضَ قطعة تساوي عشرين دولارًا لكل قطعةٍ، وعلى كل حالٍ لن يقِل ثمن أي قطعة منها عن ستة بنسات، أو دولارٍ.

- أحقًا؟

- بالتأكيد في استطاعة أي شخص أنْ يقول لك ذلك، ألم ترَ قطعة ماس من قبل يا هاك؟

- لست أذكر ذلك.

- أوه! إنّ الملوك يملكون كميات ضخمة منها.

- ولكني لا أعرف ملوكًا يا توم.

- هذا حق، ولكن إذا أتيح لك الذهاب إلى أوربا فستجد عددًا كبيرًا منهم يتبخترون بعظمة في كل مكان.

- هل هم يتبخترون حقًا؟

- لا أيها الأبله؟

- إذن لماذا قلت إنهم يفعلون ذلك؟

- فقط أردت أنْ أقول إنك ستراهم، ولكنهم لا يتبخترون بالمعنى الذي يخيّل إليك. إنني أقصد أنك تراهم يتنقلون بعظمة وخيلاء في كل مكان بصفة عامة مثل ذلك الملك الأحدب ريتشارد.

- ريتشارد! ما اسمه الآخر؟

- ليس له اسم آخر.. فليس للملوك غير اسم واحد.

- أحقًا؟

- هذا صحيح.

- ما دام ذلك يعجبهم يا توم.. فليكن لهم ما يريدون، ولكني لا أريد أنْ أكون ملكًا حتى لا أحمل اسمًا واحدًا مثل الزنوج. والآن دعنا من هذا كله.. أين سنبدأ البحث عن الكنز؟

- لست أدري.. لكن ما رأيك في أنْ نبحث عند تلك الشجرة العتيقة القائمة فوق التل على الجانب الثاني من ستيل هاوس؟

- أوافق.

وهكذا أحضرا معولًا عتيقًا ومجرفة، وشرعا في رحلة طولها ثلاثة أميال! وأخيرًا وصلا إلى غايتهما وهما يلهثان.. فتهالكا فوق الأرض في ظل شجرة مجاورة ريثما يستريحان ويدخنان.

قال توم إني أحب هذا المكان.

- وأنا كذلك.

- أخبرني يا هاك.. إذا عثرنا على كنز فماذا ستفعل بنصيبك منه؟

- لست أدري.. سأتناول فطيرة محشوة بالجبن، وأشرب زجاجة من الصودا كل يوم، وسأذهب إلى كل سيرك يأتي إلى المدينة، وأراهن على أنني سأقضي وقتًا طيبًا.

- ألا تقتصد شيئًا منه؟

- أقتصد! ولماذا؟

- حتى يكون لديك رصيد تعيش منه على مرور الزمن.

- أوه! لا فائدة من ذلك.. فإنّ أبي لن يلبث أنْ يعود إلى المدينة في أحد الأيام، وينشب أظفاره فيه إذا لم أنفقه، وأؤكد لك أنه سيستنزف الرصيد سريعًا. وأنت ماذا ستفعل بنصيبك يا توم؟

- سأشتري طبلة جديدة، وحسامًا قاطعًا، ورباط عنق أحمر اللون، وأتزوج.

- تتزوج!

- نعم.

- توم.. أنك.. يبدو أنك لست متمالكًا قواك العقلية.

- انتظر.. وسترى.

- حسنًا.. هذا أحمق شيء يمكنك أنْ تفعله.. اعتبر بأبي وأمي.. لقد كانا يتشاجران طوال الوقت.. إنني أتذكر ذلك جيدًا.

- ليس ذلك بذي بال، فإنّ الفتاة التي سأتزوجها لن تتشاجر.

- توم أعتقد أنهن جميعًا مثل بعضهن.. جميعهن يفعلن ذلك مع الرجال.

- فيحسن بك أنْ تفكر في الأمر مليًّا، لكن ما اسم الفتاة؟

- أذكره فيما بعد.

- لك ما تريد.. ففي هذا الكفاية، ولكن إذا تزوجت فتاتك فسأشعر أنا بشدة وطأة الوحدة.

- لن تشعر بشيء من ذلك، فستأتي لتعيش معي. والآن دعنا من ذلك، لنبدأ الحفر.

وشرعا في الحفر، والعرق ينْسَال منهما، واستمرا يحفران نصف ساعة، ولكن بلا جدوى.. فمضيا يحفران نصف ساعة أخرى دون أنْ يصادفا نجاحًا، وأخيرًا قال هاك:

- هل يدفنون كنوزهم على مثل هذا العمق دائمًا؟

- أحيانًا وليس دائمًا، أكبر ظني أننا لم نختر المكان الصحيح. واختارا بقعة أخرى شرعا يحفران فيها، ومع أنهما كانا يحفران بفتور نتيجة لما حل بهما من تعب.. فقد مضيا يحفران بإصرار.

وأخيرًا اتكأ هاك فوق فأسه، وجفف العرق الذي انْسَال فوق جبهته بكم قميصه وقال:

- أين سنحفر بعد أنْ نفشل هنا؟

- لعله يحسن بنا أنْ نحفر أسفل الشجرة القائمة فوق كارديف هيل خلف قصر الأرملة دوجلاس.

- أعتقد أنها فكرة حسنة، ولكن ألا تعتقد أنّ الأرملة ستستولى على الكنز إذا وجدناه، ما دامت الأرض أرضها؟

- تستولى عليه؟ قد نحاول ذلك.. ولكن القاعدة هي إنّ الذي يعثر على كنز مخبوء هو صاحب الحق في الاستيلاء عليه، بصرف النظر عمَن يكون صاحب الأرض.

واقتنع هاك بهذا الرأي. واستمر الصبيان في العمل، وبعد فترة قال هاك:

- لا ريب أننا لم نوفق إلى المكان المنشود مرة أخرى.. ما رأيك؟

- إنه لأمر جد غريب يا هاك، وإني لعاجز عن فهم الموقف، ومهما يكُن فإنّ الساحرات يتدخلن أحيانًا، وأظن أنّ هذا هو السبب فيما نواجهه الآن من فشل.

- حديث خرافة.. فإنّ الساحرات لا يملكن أي قوة في النهار.

- هذا صحيح.. الحق أنني لم أفكر في ذلك. أوه! لقد فهمت كل شيء يا لنا من أغبياء، إنّ علينا أنْ نحدد بالضبط النقطة التي ينتهي عندها ظل فرع الشجرة في منتصف الليل، وعند هذه النقطة نشرع في الحفر.

- يا للهول! إذن فقد ذهبت جهودنا كلها هباء، وما دام الأمر كذلك فيجب علينا أنْ نعود إلى هنا ليلًا، ولكن الطريق طويل كما تعلم، ثم هل تستطيع أنْ تخرج من المنزل ليلًا؟

- أراهن على أنني أستطيع ذلك، ثم إننا يجب أنْ ننهي العمل الليلة فقد يرى أحد الحفر؛ فيدرك لتوه حقيقة الأمر ويسعى لإخراج الكنز.

- ربما سآتي إلى منزلك الليلة فانتظرني.

- ليكن.. دعنا نخبئ الأدوات في الأدغال.

وعاد الصبيان إلى هذه المنطقة في الوقت المحدد تقريبًا في أثناء الليل، وجلسا في الظل في انتظار انتصاف الليل. كان مكانًا منعزلًا، فخيّل إليهما أنّ الأرواح تهمس بين أوراق الأشجار، وإنّ الأشباح تتربص في الأماكن المعتمة. وفي تلك اللحظة ارتفع من بعيد نباح كلب ضال.. فأجابته بومة قريبة بصوتها المفزع، وأحس الصبيان بالفزع يسري في قلبيهما، فعمدا إلى الكلام للتسرية عن نفسيهما، وبعد قليل خيّل لهما أنّ الليل قد انتصف، فحددا المكان الذي انتهى عنده ظل فرع الشجرة، وراحا يحفران وسرعان ما انتعش أملهما وازداد اهتمامهما، وازداد تبعًا لذلك انهماكهما في العمل وكان قلباهما يثبان من فرط الفرح الممزوج بالخوف، كلما ارتطم أحد فأسيهما بشيء في باطن الحفرة، ولكنهما سرعان ما كانا يصابان بخيبة الأمل عندما تبين لهما أنّ ذلك شيء لا يعدو أنْ يكون حجرًا أو جذرًا من جذور شجرة كانت قائمة في هذا المكان في غابر الأيام، وأخيرًا قال توم لا فائدة من الاستمرار يا هاك، فإننا نحفر في مكان لا يبشر بالخير مرة أخرى.

- ربما.. ولكني أعتقد أننا لم نخطئ فقد حددنا المكان بالضبط.

- أعرف ذلك.. بيد أنّ هناك أمرًا آخر.

- وما هو؟

- لقد حددنا وقت منتصف الليل جزافًا، ومن المحتمل أنْ يكون تحديدنا له غير دقيق.

- فألقى هاك بالمجرفة على الأرض وقال:

- أصبت تلك هي المشكلة، ويجب علينا أنْ نتخلى عن هذه الحفرة، ولكننا لا نستطيع أنْ نحدد الوقت بالدقة.. ولا تنسَ إنّ العمل بغيض في جوف الليل والساحرات والأشباح تملأ الفضاء من حولنا.. إنني أشعر بأنّ الأشباح تطاردنا، وأخشى النظر للخلف؛ إذ من الجائز أنْ تكون أشباح أخرى واقفة أمامي تتحين هذه الفرصة، إنّ جسمي يرتعش منذ جئنا إلى هنا!

- لا تخف.. هذا هو شعوري أيضًا يا هاك.. ففي أغلب الأحوال يدفن اللصوص جثة ميت عندما يدفنون كنزًا تحت شجرة حتى تحرس الجثة الكنز.

- يا إلهي!

- نعم إنهم يفعلون ذلك.. فقد سمعت ذلك من أشخاص كثيرين.

- توم إنني لا أرتاح إلى العبث في الأماكن التي توجد بها أموات، فإنّ ذلك كاف بأنْ يثير لنا المتاعب.

- وأنا لا أحب أنْ أثير الموتى.. لنفرض إنّ الميت الموجود هنا رفع جمجمته وقال شيئًا.

- كفى يا توم هذا مخيف.

- مهما يكُن إنها الحقيقة يا هاك.. وأنا لا أشعر بأي ارتياح.

- إذن.. فلنغادر هذا المكان يا توم ولنحفر في مكان آخر.

- حسنًا.. أظن أنّ ذلك هو خير ما يمكننا أنْ نفعله.

- وأين سنحفر؟

ففكر توم قليلًا.. ثم قال:

- في المنزل المهجور.. نعم، هذا المكان المناسب.

- إنني لا أحب المنازل المهجورة يا توم، فإنها تثير الفزع أكثر مما تثيره جثث الموتى. صحيح إنّ جثث الموتى قد تتكلم، ولكنها لا تبرز لك في الظلام وأنت جاهل بأمرها، ثم تتطلع من فوق كتفك فجأة كما تفعل الأشباح، إنني لا أستطيع احتمال مثل هذه الحالة بل أنني لا أظن أنّ إنسانًا يستطيع احتمالها يا توم.

- هذا صحيح.. ولكن الأشباح لا تظهر إلا في الليل فقط، ومِن ثَمَّ فإنها لن تعوقنا عن الحفر هناك نهارًا.

- إنك على حق.. بيد أنك تعلم ولا شك أنّ الناس لا يذهبون إلى هذا المنزل فقط نهارًا أو ليلًا.

- لعل السبب في ذلك هو إنّ الناس لا يحبون الذهاب إلى أي مكان وقعت فيه جريمة قتل، ومع ذلك فإنّ شيئًا ما لا يظهر حول هذا المنزل إلا في أثناء الليل.. إنها بعض أضواء زرقاء اللون تمر بالنوافذ، ولكن لا تظهر أشباح منتظمة على ما أظن.

- حسنًا.. حينما ترى ضوءًا من هذه الأضواء الزرقاء، كُن على يقين من وجود شبح خلف هذا الضوء مباشرة، وليس من شك في أنّ ذلك هو التعليل الصحيح، لأن الأشباح وحدها هي التي تستخدم مثل هذه الأضواء!

- أنت على حق.. وعلى كل حالٍ فإنّ الأشباح لا تظهر نهارًا، فما الذي يجعلنا نخاف؟

- الحق معك.. إذن سنحفر في المنزل المهجور، ما دمت تريد ذلك ولكن أعتقد أنها مجازفة.

في تلك الأثناء كانا قد بدآ ينحدران من التل، ثم ظهر المنزل المهجور في قلب الوادي، وقد سقطت عليه أشعة القمر فأبرزته في شكل مخيف، كان تهدم سياجه منذ أمد بعيد، ونبتت الأعشاب الطويلة من حوله، بل فوق عتبته والدرج المؤدي إلى بابه، أما المدخنة فقد تحطمت، بينما كانت النوافذ مجردة من الزجاج والخشب، كذلك اختفى جزء من السقف وحملق الصبيان لحظات في المنزل وهما يتوقعان رؤية ضوء أزرق يمرق من أمام إحدى النوافذ. ثم أخذا يتحدثان بصوت هامس ولم يلبثا أنْ انحدرا ناحية اليمين في طريقهما إلى المنزل عبر الغابات.

***

الفصل السادس العشرون

اللصوص الحقيقيون يستولون على صندوق الذهب

نحو ظهر اليوم التالي وصل الصبيان إلى الشجرة الميتة، والتي كانا يخفيان الأدوات تحتها، وكان توم أشد ما يكون لهفة على الذهاب إلى المنزل المهجور، ولم يكُن هاك أقل منه لهفة على ذلك، ولكنه قال بغتة:

- انتبه إليَّ يا توم.. ألا تعلم في أي يوم من أيام الأسبوع نحن؟

وفكر توم في أيام الأسبوع، ثم لم يلبث أنْ رفع رأسه وقد تبدت في عينيه نظرة تدل على الفزع.

وقال: يا ربي.. إنني لم أفكر في ذلك إطلاقًا يا هاك.

- وأنا أيضًا لم أفكر فيه، ولكنني تذكرت فجأة أنّ اليوم هو يوم الجمعة.

- إنّ الإنسان لا يستطيع أنْ يكون حذرًا دائمًا يا هاك.. لا شك في أنه ربما كان من المحقق أنْ تصادفنا متاعب جمة، لو أننا انصرفنا إلى العمل في يوم الجمعة.

- هناك أيام تجلب الحظ، ولكن يوم الجمعة ليس واحدًا منها.

- إنّ أي أحمق يعرف ذلك.. ولست أعتقد أنك أول من اكتشف هذه الحقيقة يا هاك.

- حسنًا.. إنني لم أقُل إنني مكتشفها، أليس كذلك؟ ثم إنّ ذلك ليس كل شيء فقد حلمت حلمًا سيئًا ليلة أمس، حلمت بالفئران.

- أحقًا؟ إنها علامة محققة تنبئ بكثير من المشاكل.. هل كانت تتشاجر؟

- لا.

- هذا مخيف يا هاك.. فما دامت الفئران لم تتشاجر، فمعنى ذلك إنّ هناك بعض المشكلات، ومِن ثَمَّ يجب أنْ نلزم الحذر التام، وأرى أنْ نتخلى عن محاولة البحث عن الكنز اليوم ونلعب.. هل تعرف روبن هود يا هاك؟

- لا.. مَن هو روبن هود هذا؟

- كان رجلًا مِن أعظم رجال إنجلترا وأكرمهم.. كان لصًا.

- ليتني كنت مثله، لكن مَن الذين كان يسرقهم؟

- العُمَد والأساقفة والأثرياء والملوك وأشباههم، ولكنه لم يزعج الفقراء مطلقًا، كان يحبهم، ولهذا كان يقتسم الغنائم معهم بعدل.

- لا ريب أنه كان إنسانًا عظيمًا.

- لقد كان كذلك يا هاك.. إنه من أنبل الرجال الذين عرفهم هذا العالم، وما أظن أنّ في الدنيا رجالًا مثله الآن.. كان في استطاعته أنْ يهزم أي رجل، وإحدى يديه مربوطة خلف ظهره، كما كان في استطاعته استخدام قوسه المصقول، في إصابة قطعة من ذات العشر بنسات على مبعدة ميل ونصف ميل.

- ما هو القوس المصقول يا توم؟

- لا أعلم، إنه نوع من الأقواس على كل حالٍ، وكان إذا أصاب حافة قطعة النقود دُون قلبها يلقي بقوسه على الأرض، وينخرط في البكاء والسب. مهما يكُن.. هلم بنا نلعب «روبن هود» وسأعلمك كيف يكون اللعب.

- هلم بنا.

وهكذا قضيا فترة بعد الظهر كلها وهما يلعبان دور روبن هود، وكانا لا يكفان عن التطلع بلهفة إلى المنزل المهجور، وينطقان بملاحظة عمَّا ينتظرهما في الغد من مفاجآت في هذا المنزل، وعندما بدأت الشمس تنحدر نحو المغيب، كرا عائدين إلى المنزل ولم تلبث غابات «كارديف هيل» أنْ ابتلعتهما.

وعند ظهر يوم السبت، كان الصبيان قد وصلا إلى الشجرة الميتة، وبعد أنْ دخنا قليلًا، وتجاذبا أطراف الحديث وهما جالسان في ظل شجرة، شرعا يوسعان قليلًا في الحفرة التي سبق لهما أنْ حفراها، لا لأنهما كانا يتوقعان أي نتيجة من وراء

ذلك، وإنما لأن توم قال «إنّ هناك حالات كثيرة جدًّا تخلى فيها باحثو الكنوز عن العمل وهم قاب قوسين أو أدنى من النجاح، ثم جاء أشخاص آخرون استأنفوا الحفر حيثما تخلى عن الحفر من سبقوهم.. ففازوا بالغنيمة بغير عناء كبير. ومع ذلك فقد فشل الصبيان في العثور على الكنز، فوضعا أدواتهما فوق كتفيهما، وانطلقا إلى المنزل المهجور وهما يشعران بأنهما لم يقصرا في العمل.

وعندما وصلا إلى المنزل المهجور، لاحظا أنّ الجو المحيط به يبعث على الفزع، وأنّ شيئًا ما فيه -عدا الصمت والعزلة- يبعث على الانقباض.. فتملكهما الخوف من الإقدام على خطوة دخول المنزل، ثم لم يلبثا أنْ زحفا نحو الباب واختلسا النظر إلى الداخل وهما ينتفضان، فرأيا غرفة لا أرضية لها.. نبتت فيها الحشائش طويلة، وبها مدفأة عتيقة، أما النوافذ فكانت مجردة من الزجاج والخشب، بينما انتشرت خيوط العنكبوت في كل ركن من أركانها، وبعد قليل تقدما إلى الداخل بحذر شديد وهما يتحدثان همسًا وقلباهما يدقان بعنف، وأذناهما مرهفتان لالتقاط أي صوتٍ، وعضلاتهما متوترة استعدادًا للتراجع السريع.

وما إنْ مضت فترة أخرى حتى بدأت مخاوفهما تتراجع، فألقيا نظرة فاحصة على ما حولهما، وهما فخوران بشجاعتهما، ويعجبان لها أيضًا. وبعدها فكرا في الصعود إلى الطابق العلوي، وكان ذلك بمثابة قطع طريق النجاة على نفسيهما، إلا أنهما راحا يتحدثان أحدهما للآخر، وأخيرًا وضعا أدواتهما في ركن من الغرفة، وشرعا يرتقيان الدرج العتيق. وعندما وصلا إلى الطابق العلوي لم يصادفا آثار الخراب التي أحدثها الزمن في المنزل كله. وعثرا في أحد الأركان على صندوق قديم فانتعش أملهما، ولكن ذلك الأمل لم يلبث أنْ تبدد حينما تبين لهما أنه صندوق فارغ، وكانا قد استجمعا ما تشتت من شجاعتهما عندما سمعا صوتًا خافتًا.

همس توم: صه!

فهمس هاك، وقد اصفر لونه: ماذا حدث؟

- صه! هناك! هل تسمع؟

- يا إلهي! نعم، هلم بنا نغادر هذا المكان.

- الزم مكانك.. إياك والحركة، فإنهم قادمون نحو الباب.

وانبطح الصبيان فوق الأرض، وراحا يتطلعان من خلال الفجوات التي خلفتها عُقَد الألواح الخشبية، وقد تملكهما الفزع تمامًا.

قال توم:

- لقد وقفوا.. لا، إنهم قادمون.. ها هم.. إياك أنْ تهمس بكلمة أخرى يا هاك.. يا إلهي! ليتني لم أزجّ بنفسي في هذا المأزق!

ودخل رجلان إلى الغرفة السفلى، فقال صبي للآخر: إنه الإسباني العجوز الأصم الأبكم الذي رأيناه يتجول في المدينة أخيرًا.. أما الرجل الآخر فلم تسبق لنا رؤيته.

كان الرجل الثاني مهلهل الثياب، أشعث الشعر، مخيف المنظر. وكان الإسباني يلف وجهه بقطعة من القماش، وقد دب المشيب في سالفيه غزيري الشعر، بينما تدلى شعر رأسه الطويل إلى أسفل حافة قبعته.. وكان يخفي عينيه خلف نظارة خضراء اللون.. وعندما دخلا المنزل كانا يتكلمان معًا بصوت منخفض، ثم لم يلبثا أنْ جلسا فوق الأرض ووجهاهما إلى الباب وظهراهما إلى الجدار.. واستمر المتكلم منهما في لغوه، ولم يلبث أنْ تخلى عن حذره، فاستطاع الصبيان سماع كلامه.. قال:

- كلا، لقد فكرت في الأمر مليًّا وأصدقك القول، إنني غير مرتاح إليه لخطورته.

فقال الإسباني «الأصم الأبكم» وهو أمر أدهش الصبيين أشد دهشة:

خطر! حديث خرافة!

وذعر الصبيان حينما سمعا صوت «الأبكم» الذي يتكلم! لقد كان «إنجان جو»! وساد الصمت لحظات. وبعدئذ قال جو:

- هل هناك شيء أكثر خطورة من المهمة الأخرى؟ ومع ذلك فإنها انتهت بسلام.

- إنّ الأمر مختلف، فإنّ المكان هناك منعزل تمامًا، ولا يوجد حوله أو بالقرب منه أي منزل، مهما يكُن فإنّ أحدًا لن يعلم أننا حاولنا شيئًا طالما أننا لم ننجح!

- حسنًا، إنّ المجيء إلى هنا في وضح النهار على جانب عظيم من الخطورة! فأي إنسان يرانا سيشك في أمرنا.

- أعرف ذلك، ولكن لم يكُن هناك مكان نلوذ به أقرب من هذا بعد أنْ فشلت مهمتنا.. إنني أريد مغادرة هذه المنطقة، لقد أردت أنْ أفعل ذلك أمس، إلا أنه كان من الحماقة أنْ أفعل ذلك.. بينما هذان الصبيان اللعينان يلعبان فوق التل ويستطيعان أنْ يرياني بسهولة.

- هذان الصبيان الشقيان! وأحس الصبيان بالخطر يقترب منهما!

وأخرج الرجلان طعامًا تناولاه.. وبعد فترة طويلة من الصمت قال إنجان چو:

- أصغِ إليَّ يا فتى.. عُد أدراجك إلى النهر حيث مستقرك، وانتظر حتى تسمع مني. أما أنا فسأجازف بالذهاب إلى المدينة مرة أخرى لألقي نظرة. وسننفذ المهمة «الخطرة» بعد أنْ أتجسس قليلًا، وأتبين أنّ فرصة نجاحنا مضمونة.. وبعدئذ سنذهب إلى تكساس، سنذهب معًا إلى هناك.

ولزم الرجلان الصمت مرة أخرى، وبدا النعاس في جفونهما، وما لبث چو أنْ قال:

- إنني شديد الرغبة في النوم.. لقد حانت نوبتك للمراقبة.

وتمدد إنجان چو فوق الحشائش، وإنّ هي إلا لحظات حتى ارتفع شخيره، فهزه زميله مرة أو مرتين، ولكنه لم يستيقظ.. وبعد قليل، سقط رأس المراقب فوق صدره وارتفع شخيره بدوره.

وتنفس الصبيان الصعداء، وهمس توم:

- لقد حانت فرصتنا تعال.

فقال هاك: لا أستطيع.. فسأموت خوفًا إذا استيقظا.

وحثه توم.. ولكن هاك جمد في مكانه، وأخيرًا نهض توم وتهيأ لهبوط الدرج الخشبي بمفرده.. ولكنه كاد يخطو الخطوة الأولى حتى أحدث سيره على الخشب صوتًا مزعجًا جعل توم يتهالك فوق الأرض وهو ينتفض من فرط الرعب، ولم يحاول النهوض مرة أخرى.. وبقيَ الصبيان ممددين فوق الأرض، بينما الدقائق تمر بتثاقل مخيف، حتى خيّل إليهما أنّ الوقت لا يمر، ولكنهما لم يلبثا أنْ شعرا بالارتياح حينما لاحظا أنّ الشمس أخذت تنحدر نحو المغيب.

وتوقف شخير أحد الرجلين بغتة. واستوى إنجان جالسًا، ثم حملق فيما حوله وابتسم حينما وقعت عينه على زميله - الذي كان رأسه قد استقر فوق ركبته- وهزه بقدمه قائلًا:

- استيقظ.. ألست مراقبًا؟ حسنًا.. الحمد لله، فإنّ شيئًا ما لم يحدث.

- يا إلهي! هل كنت نائمًا.

- بعض الشيء.. لقد حان وقت الانصراف، لكن ماذا سنفعل بالثروة التي بقيت لنا؟

- لست أدري، نتركها هنا مثلما نفعل دائمًا، لا جدوى من أخذها معنا قبل أنْ يحين موعد هروبنا غربًا إلى تكساس، فإنّ ستمئة وخمسين دولارًا فضيًا ليست مما يسهل حمله.

- حسنًا.. حسنًا.. لا أظن أنّ هناك ما يحول دُون مجيئنا هنا مرة أخرى.

- كلا.. ولكني أفضِّل المجيء ليلًا كما اعتدنا، إنّ ذلك أفضل.

- نعم.. ربما انقضى وقت طويل قبل أنْ تتاح لي الفرصة المناسبة لأداء المهمة.. وقد تقع حوادث في تلك الأثناء، فإنّ هذا المكان ليس مأمونًا تمامًا.. فيحسن أنْ تدفن الثروة على عمق كبير.

فقال زميله: إنها فكرة حسنة.

وأخذ الرجل الآخر يتمشى في أرجاء الغرفة، ثم توقف أمام المدفأة، وانحنى ورفع حجرًا من أحجارها، التقط من أسفله

كيسًا أحدث رنينًا يسُر الأُذن، وأخذ من هذا الكيس عشرة أو ثلاثين دولارًا واحتفظ بها لنفسه، وقدم مثلها لچو، الذي كان راكعًا فوق ركبتيه في ركن الغرفة وهو يحفر الأرض بسكينة.

ونسيَ الصبيان كل مخاوفهما وحرج مركزهما في تلك اللحظة. وراحا يراقبان كل حركة تحدث في الغرفة السفلى باهتمام، إنه الحظ! لقد واتاهما الحظ أخيرًا بقدر لم يكونا يتوقعانه! إنّ ستمئة دولارٍ تكفي لأن يكون ستة صبية أثرياء وليس اثنان فقط، لم يَعُد هناك ما يدعوهما للبحث عن كنز. وراح كل منهما يلكز صاحبه بمرفقه، لكزات معناها «أوه! ألست مسرورًا الآن لأننا بقينا هنا؟».

وارتطم سكين چو بشيء فهتف: ما هذا؟

فقال صاحبه: ماذا؟

- لقد اصطدم السكين بقطعة من الخشب على ما أظن، كلا.. إنه صندوق -انظر- هلم عاونني لنعرف لماذا وضع هذا الصندوق هنا، فقد حفرت حفرة كبيرة كافية.

ومد إنچان چو يده وجذب غطاء الصندوق، ولم يلبث أنْ هتف:

- إنها نقود!

وراح الرجلان يتأملان حفنتي النقود اللتين أخذاها من الصندوق، كانت النقود من الذهب! ولم يكُن الصبيان الخائفان أقل انفعالًا وسرورًا من الرجلين.

قال زميل چو:

- سنُخْرِج الصندوق بسرعة، فقد رأيت فأسًا ومجرفة قديمين بين الأعشاب في ركن الغرفة المجاورة للمدفأة، لقد رأيتهما منذ لحظات فقط.

وتقدم چو نحو ركن الغرفة، وأحضر الفأس والمجرفة اللذين تركهما الصبيان هناك. وأخذ المجرفة وتأملها فاحصًا ثم هز رأسه وتمتم بكلمات غير واضحة، وراح يحفر بجوار الصندوق، وسرعان ما أخرج الصندوق. لم يكُن الصندوق كبيرًا، وكان مشدودًا بأحزمة من الحديد، ولكن الزمن كان قد أثَّر فيه أسوأ تأثير، وراح الرجلان يتأملان الكنز في صمت وهناء.

وأخيرًا قال إنچان چو: إنّ في هذا الصندوق آلاف الدولارات أيها الزميل.

- لقد سمعت أنّ عصابة موريل اعتادت أنْ تأتي إلى هذه المنطقة في صيف أحد الأعوام.

- أعرف ذلك.. ويبدو أنها هي التي دفنت هذا الكنز.

- والآن.. لم تَعُد ثمَّة حاجة بك إلى أداء المهمة الأخرى.

فقطب إنچان چو حاجبيه، وقال:

- إنك لا تعرفني، ولا تعرف كل شيء عن هذه المهمة الأخرى.. إني لا أريد أداءها للسرقة فقط إنما للثأر!

وتألقت عيناه ببريق جهنمي.. ثم أردف:

- سأحتاج إلى معونتك في هذه المهمة، وعندما نفرغ منها سنمضي إلى تكساس، ستعود إلى وطنك حيث توجد زوجتك نانسي وأطفالك.. فالزم الصمت حتى تسمع مني.

- سمعًا وطاعة.. ليكن لك ما تريد، لكن ماذا سنفعل بهذا، هل ندفنه ثانية؟

- نعم. «كاد الصبيان يطيران من فرط الفرح في تلك اللحظة». لا.. لا.. بحق الشيطان «استولى الجزع الشديد على الصبيين»، لقد كدت أنسى إنّ هذه المجرفة استِعملَت حديثًا! «هنا أحس الصبيان بأنّ قلبيها يوشكان أنْ يكفا عن الحركة» ما السبب في وجود الفأس والمجرفة هنا؟ وما هو السبب في وجود آثار حفر حديثة عليهما؟ ومَن الذي أحضرهما إلى هنا؟ وأين ذهب هذا الشخص أو هؤلاء الأشخاص؟

- هل سمعت صوتًا؟ هل رأيت أحدًا؟ ماذا.. أندفنه ثانية وندعهم يجيئون ويرون آثار الحفر في أرض هذه الغرفة؟ لا، لا، سنذهب به إلى عريني.

- بالطبع، كان ينبغي أنْ أفكر في ذلك من قبل.. أتعني رقم ١؟

- لا، بل رقم ٢؟ تحت الصليب، إنّ المكان الآخر رديء للغاية إنه وضيع جدًّا!

- افعل ما تريد.. لقد أقبل الليل، وأظن هذا هو أنسب وقت للانصراف.

ونهض إنچان چو واقفًا، وأخذ ينقل بصره من نافذة إلى أخرى وهو ينظر إلى الخارج، وأخيرًا قال:

- ومَن الذي أحضر هذه الأدوات هنا؟ هل تظن أنهم مختبئون في الطابق العلوي؟

وغاص قلبا الصبيين بين جنبيهما. ووضع إنچان چو يده فوق سكينه وتردد لحظة، ثم تحول إلى الدرج.. وفكر الصبيان في اللجوء إلى المطبخ، لكن قواهما خذلتهما. وبدأ الدرج يُحدِث صوتًا تحت أقدام إنچان چو وهو يرتقيه، وفجأة دبت القوة في جسمي الصبيين واستعدا للاندفاع نحو المطبخ، عندما سمعا صوت ارتطام شديد.. فقد سقط إنچان والدرج معه إلى الطابق الأرضي، ونهض إنچان متعثرًا وهو يسب ويلعن، فقال زميله:

- ما جدوى ذلك كله؟ إذا كان بالطابق العلوي أحد، فليبق حيث هو! فإنّ ذلك لا يهمنا.. إذا أراد الوثوب من الطابق العلوي وإيذاء نفسه، فمَن الذي سيأبه له؟ إنّ الدنيا ستظلم بعد ربع الساعة، فليحاول مَن يريد أنْ يتبعنا إذا شاء فإنني على استعداد لملاقاته، وعندي أنّ الشخص الذي أحضر هذه الأدوات إلى هذا المكان اعتقد أننا من الأشباح، أو الشياطين، أو المشعوذين، وأقسم أنه لاذ بالفرار.

وظل چو يتذمر لحظات.. ثم وافق على ضرورة الاستعانة بما تبقى من ضوء النهار والاستعداد للانصراف. وبعد قليل تسلل الرجلان من المنزل، وانطلقا نحو النهر وهما يحملان الصندوق الثمين. ونهض توم وهاك، كانا يحسان بضعف شديد، ولكن شعورهما كان منطويًا على راحة أشد. وراحا يرقبان الرجلين من خلال الشقوق الموجودة في جدار الغرفة ويتساءلان: أيتبعانهما؟ لا.. إطلاقًا واقتنعا بالوصول إلى الأرض سالمين دون أن تقطع رقابهما، أو تصاب أقدامهما بسوء، وانطلقا في الطريق المؤدي إلى المدينة، ولكنهما لم يُكثرا من الحديث. فقد كانا منهمكين في الحقد على نفسيهما، الحقد على حظهما التعس الذي جعلهما يأخذان أدوات الحفر معهما، فلولاها لما ساورت الريبة إنچان چو على الإطلاق، ولخبأ الفضة مع الذهب إلى أن يحقق ثأره. وعندئذ سيكتشف أنّ الكنز اختفى يا لسوء الحظ الذي دفعهما إلى إحضار تلك الأدوات معهما.

وقررا البحث عن چو ومراقبته عندما يجيء إلى المدينة مترقبًا الفرصة للقيام بعمله الانتقامي فيتبعانه إلى «رقم٢» أينما كان. وعندئذ خطرت لتوم فكرة أفزعته!

هتف: ثأر؟ ألا يكون الثأر منا يا هاك؟

فقال هاك، وقد أوشك على الإغماء: لست أتصور ذلك؟

وأخذا يقلبان الأمر على مختلف وجوهه، وبينما كانا يهمان بدخول المدينة؛ اتفقا على أنه من الجائز أنّ الرجل يقصد شخصًا آخر، أو على الأقل لعله يقصد توم وحده، لأنه الوحيد الذي أدلى بشهادته في المحكمة. واستشعر توم القلق؟ حينما تبين له أنه يقف في دائرة الخطر بمفرده!

***

الفصل السابع والعشرون

اقتفاء الأثر

أفسدت مغامرة النهار أحلام توم أيما إفساد في أثناء الليل، فقد رأى يديه تلمسان الكنز العظيم أربع مراتٍ، ولكن حلمه كان لا يلبث أنْ يتبخر كلما استيقظ فزعًا، فيدرك مدى سوء حظه. وبينما كان ممددًا فوق الفراش في صباح اليوم التالي، وهو يسترجع في ذهنه تفاصيل مغامرته الكبرى؛ لاحظ أنها تبدو له سحيقة بشكل عجيب، كما لو كانت قد وقعت في عالم آخر، أو منذ أعوام طويلة من الزمن، ثم خطر له أنّ المغامرة الكبرى نفسها قد تكون حلمًا! وكانت هناك حجة قوية تدعم هذه الفكرة، ألا وهي أنّ كمية النقود التي رآها كانت أضخم من أنْ تكون حقيقية، إذا لم يسبق له أنْ رأى أكثر من خمسين دولارًا مرة واحدة. ولما كان كجميع الفتيان الذين في مثل سنه وظروفه الاجتماعية من حيث توهمهم أنّ الإشارة إلى مئات آلاف الدولارات ليست إلا أشكالًا خيالية من أشكال التصور، فإنه لم يستطع أنْ يصدق أنّ في الدنيا أموالًا كهذه، لم يكُن يدور بخلده قط أنّ مبلغًا كبيرًا مثل مئة دولارٍ يمكن أنْ يتوفر لأي شخصٍ!

ولكن تفاصيل مغامرته كانت لا تلبث أنْ تبدو له أكثر وضوحًا وعمقًا كلما تعمق في التفكير، ومِن ثَمَّ فسرعان ما تبلبل تفكيره، ولم يستطع أنْ يقطع في الأمر برأي. ولهذا تناول إفطاره على عجل.. وانطلق يبحث عن هاك ليقطع الشك باليقين.

كان هاك يجلس فوق حافة النهر وهو يهز ساقيه المتدليتين في الماء، وقد ارتسمت على وجهه أمارات الاكتئاب، وقرر توم أنْ يترك لهاك مهمة البدء بالحديث؛ فإذا لم يشر إلى موضوع الكنز.. كان ذلك معناه أنّ المغامرة كلها لم تكُن إلا حلمًا!

وبعد أنْ تبادل الصبيان التحية لزما الصمت.. وأخيرًا قال هاك:

- لو أننا تركنا هاتين الأداتين اللعينتين عند الشجرة لحصلنا على الكنز يا توم.. أليس ذلك من نكد الدنيا؟

- إذن لم يكُن الأمر حلمًا!

- أي حلم تعني؟

- ما مر بنا أمس.. لقد ساورني الشك في أنه كان حلمًا.

- كان حلمًا لولا انهيار الدرج، لكنت تشاهد أحلامًا كثيرة الآن.. لقد حلمت بما فيه الكفاية في أثناء الليل، حلمت أنّ ذلك الشيطان الإسباني اللعين يطاردني ليقتلني.. عليه اللعنة.

- دعنا من اللعنة.. إنما يجب علينا أنْ نعثر عليه، علينا أنْ نبحث عن الكنز.

- توم إننا لن نعثر عليه.. إنّ الإنسان لا تتاح له إلا فرصة واحدة للحصول على مثل هذا الكنز.. وقد ضاعت هذه الفرصة. مهما يكُن لا شك في أنني سأموت فزعًا إذا رأيته ثانية.

- وأنا أيضًا.. ولكني أريد أنْ أراه على كل حالٍ.. وأنْ أتعقبه إلى «رقم ٢».

- رقم٢، نعم.. نعم.. لقد كنت أفكر فيه ولكني لم أستطع أنْ أفهم شيئًا.. ماذا تظنه؟

- لست أدري.. فإنّ المعنى أعمق من أنْ أدركه بسهولة. أصغ إليّ يا هاك.. ألا يكون هذا رقم أحد المنازل؟

- كلا يا توم.. إنّ الأمر ليس كذلك.. فليس للمنازل أرقام في هذه المدينة.

- آه! إنك على حق.. إذن دعني أفكر قليلًا، آه! لعله رقم غرفة في فندق.

- أعتقد أنها خدعة.. فإنّ بالمدينة فندقين فقط.. وفي استطاعتنا أنْ تجلو الحقيقة سريعًا.

- ابق هنا يا هاك ريثما أعود.

وانصرف توم على الفور، فإنه لم يكُن يرتاح إلى وجود هاك معه في الأماكن العامة! وغاب نصف ساعة، اكتشف بعدها أنّ محاميًا يشغل الغرفة «رقم ٢» من الفندق الأول منذ وقت طويل وما زال يشغلها حتى الآن.. أما الفندق الآخر، فكان الغموض يحيط بالغرفة «رقم٢»، فقد قال ابن حارس هذا الفندق لتوم؛ إنّ تلك الغرفة مغلقة دائمًا، وإنه لم يرَ أحدًا يدخلها أو يخرج منها إلا في أثناء الليل، ولكنه لا يعلم السبب في ذلك. وكل ما استطاع أنْ يقوله هو إنه يعتقد أنّ هذه الغرفة مسكونة بالأشباح، ثم أردف قائلًا: إنه رأى ضوءًا في هذه الغرفة في الليلة السابقة!

قال لهاك: هذا ما اكتشفته يا هاك.. وأظن أنّ ذلك هو «رقم٢» الذي نريده.

- أعتقد ذلك يا توم.. ماذا ستفعل الآن؟

- دعني أفكر.

وفكر توم طويلًا، ثم قال:

- سأخبرك: إنّ الباب الخلفي «لرقم٢» هو الباب الذي يطل على الممر الضيق الواقع بين الفندق وذلك المخزن العتيق، فعليك أنْ تحضر جميع مفاتيح الأبواب التي تستطيع العثور عليها.. وسأسرق أنا مفاتيح عمتي. وفي أول ليلة معتمة، سنجرب فتح باب الغرفة بهذه المفاتيح.. لكن يجب أنْ تفتح عينيك جيدًا لأن إنچان چو قال: إنه سيأتي إلى المدينة مرة أخرى.. لعل فرصة تتاح له للثأر. فإذا رأيته اتبعه، فإذا لم يذهب إلى «رقم٢» هذا.. فمعنى ذلك إنه ليس المكان المنشود.

- يا إلهي! إنني أود أنْ أتبعه بنفسي.

- تستطيع ذلك، لأن الوقت سيكون ليلًا بكل تأكيد. ومِن ثَمَّ فقد لا يراك.. وحتى إذا رآك فإنه لن يشك في أمرك.

- هذا حق.. إذا كان الظلام دامسًا؛ فسأتبعه، لست أدري.. سأحاول!

- أؤكد لك إنني لن أتردد في تعقبه إذا كان الظلام دامسًا يا هاك.. فقد يتحقق من أنه لن يستطيع الثأر بسبب الظلام.. فنذهب في طلب الكنز.

- إنّ الأمر كذلك يا توم.. إنه كذلك! سأتبعه! نعم.. سأتبعه.

- إنّ هذا عين العقل يا هاك.. إياك أنْ تضعف، وأنا أيضًا لن أضعف.

***

الفصل الثامن والعشرون

في عرين إنچان چو

استعد توم وهاك للقيام بمغامراتهما في تلك الليلة، وراحا يتسكعان على مقربة من الفندق إلى ما بعد الساعة التاسعة، فكان أحدهما يراقب الممر عن كثب، بينما كان الثاني يراقب باب الفندق، ولم يدخل أحد من الممر أو يخرج منه، كما أنّ أحدًا شبيهًا بالإسباني لم يدخل من باب الفندق، أو يخرج منه، وبدا كأن الليلة ستكون صافية. ومِن ثَمَّ فقد عاد توم إلى المنزل، وذلك بعد أنْ اتفق مع هاك على أنه إذا أظلمت السماء بدرجة كافية، فإنّ عليه أنْ يبادر بالحضور إلى منزله فينضم إليه توم، ثم يذهب إلى الفندق لتجربة المفاتيح.. ولكن السماء ظلت صافية فتخلى هاك عن المراقبة نحو منتصف الليل، وقضى ليلته نائمًا في برميل كبير فارغ.

لم يكُن حظ الصبيين في يوم الثلاثاء أسعد منه في يوم الاثنين.. كما ظل الحظ متنكرًا لهما في يوم الأربعاء، ولكن ليل الخميس كان يبشر بتحسن الظروف الملائمة لتنفيذ خطتهما؛ فتسلل توم من منزل عمته في الوقت المناسب، وقد حمل معه مصباحها المصنوع من الصفيح، ومنشفة كبيرة ليحجب ضوء المصباح بها، وأخفى توم المصباح في البرميل الكبير الفارغ الذي قضى هاك ليلته فيه، ثم بدأت المراقبة.. وقبل أنْ ينتصف الليل بساعة أغلق الفندق أبوابه، وأطفِئَت أنواره دُون أنْ يظهر للإسباني أثر.. ودُون أنْ يدخل أحد إلى الممر أو يخرج منه، وكان الهدوء مستتبًا والظلام دامسًا، ولم يعكر صفو هذا السكون إلا قرقعة الرعد من بعيد.

وأحضر توم المصباح وأوقده بداخل البرميل، ثم لفه جيدًا بالمنشفة وتسلل المغامران نحو الفندق في الظلام. ووقف هاك يراقب المدخل، بينما تحسس توم طريقه بداخل الممر، ومضى وقت طويل وهاك في الانتظار.. وأخيرًا ثقلت وطأة الانتظار على هاك وانتابه القلق، فبدأ يتمنى لو أنه استطاع أنْ يرى شعاعًا من نور المصباح.. صحيح إنه سيثير الفزع في نفسه، ولكنه سيؤكد له من ناحية أخرى أنّ توم لا يزال على قيد الحياة، وخيّل إليه أنّ ساعات طويلة انقضت منذ ذهب توم لأداء مهمته، وبدأ يخشى أنْ يكون توم قد أغمى عليه، أو لقيَ حتفه من شدة الفزع وقوة الانفعال، وبينما هو يضرب أخماسًا في أسداس.. ألفى نفسه يقترب رويدًا من مدخل الممر، وقد سيطرت عليه الهواجس والظنون، وكان يتوقع أنْ تقع كارثة في أي لحظة فتقضي عليه بدوره.. وفجأة سطع شعاع من الضوء في كبد الظلام.. وأقبل توم يركض بجنون.

ثم صاح توم: بادر بالفرار.. اركض بأقصى ما تستطيع من قوة!

ولم يجد توم ما يدعوه إلى تحذير صديقه مرة أخرى، فقد انطلق هاك يعدو بسرعة تتراوح بين ثلاثين وأربعين ميلًا في الساعة، ولم يتوقف الصبيان عن العدو إلا حينما وصلا إلى حظيرة مجزر مهجور في الجانب المنخفض من المدينة، وما إنْ دخلا الحظيرة حتى هبت العاصفة وهطل المطر غزيرًا.

وعندما هدأت ثائرة توم، قال:

- لقد كان الموقف مخيفًا يا هاك! حاولت أنْ أفتح الباب باستعمال مفتاحين مما أحمل، وكنت حذرًا وأنا أجربهما، ولكني فشلت، ولست أدري أكان ذلك لأني مضطرب، أو عدم ملاءمتهما لفتح القفل. ودون أن أدري ماذا كنت أفعل، وضعت يدي على مقبض الباب وأدرته، وفي التو فُتِحَ الباب! فإنه لم يكُن مغلقًا، ودخلت الغرفة ورفعت المنشفة من فوق المصباح.. ثم.. يا إلهي!

- ماذا...؟ ماذا رأيت يا توم؟

- لقد كدت أطأ يد إنچان بقدمي يا هاك!

- أحقًا؟

- نعم.. كان ممددًا فوق الأرض وهو مستغرق في النوم، وقد غطى عينيه بخرقة، وبسط ذراعيه فوق الأرض.

- يا إلهي! وماذا فعلت؟ هل استيقظ؟

- لا.. إنه لم يتحرك، أظنه كان مخمورًا.. وعلى الفور اختطفت المنشفة ثم بادرت بالفرار.

- أؤكد لك أنني ما كنت لأفكر في المنشفة، لو أنني تعرضت لمثل هذا الموقف!

- أما أنا فقد فكرت فيها، إذ لا ريب في أنّ عمتي كانت تسيء إليَّ أبلغ إساءة لو أنني فقدتها.

- أخبرني يا توم.. هل رأيت الصندوق؟

- لا.. لم أصبر حتى أتأمل ما في الغرفة، ومِن ثَمَّ فإنني لم أرَ الصندوق، كما أنني لم أرَ الصليب.. بَيد أنني لمحت زجاجة، وفنجانًا من الصفيح موضوعين فوق الأرض بجوار إنچان چو.. آه ورأيت أيضًا برميلين، ومزيدًا من الزجاجات في الغرفة.. ألم تدرك بعد ما هو شأن هذه الغرفة المسكونة؟

- ماذا؟

- إنها مسكونة بالخمر! من الجائز أنّ بجميع الفنادق غرفًا مسكونة كهذه.

- أعتقد أنّ الأمر كما تقول إذ مَن كان يفكر في مثل ذلك؟ لكن أخبرني يا توم.. أليس الوقت ملائمًا الآن للاستيلاء على الصندوق ما دام إنچان مخمورًا؟

- أحقًا! إذن حاول!

فارتعش هاك، وقال: لا.. أظن، أنني لن أفعل ذلك.

- وأنا أيضًا يا هاك.. إنّ زجاجة واحدة لا تكفي لإفقاد إنچان چو صوابه. ولو أنني رأيت بجانبه ثلاث زجاجات فارغة لأدركت أنه مخمور إلى درجة كافية، ولحاولت البحث عن الصندوق.

ومضى الصبيان يفكران لحظات.. وأخيرًا قال توم:

- أصغ إليَّ يا هاك.. يجب أنْ نتخلى عن تلك المحاولة إلى أنْ نعلم أنّ إنچان چو غير موجود بالغرفة. فإنّ وجوده فيها يشيع الفزع في القلب.. فإذا راقبنا الغرفة كل ليلة.. فمِن المحقق أننا سنراه وهو يغادرها.. إن عاجلًا أو آجلًا.. وعندئذ نخطف الصندوق في سرعة البرق.

- إنني موافق على هذا الرأي، سأراقب الفندق طوال الليل.. إذا قبلت أنْ تقوم ببقية المهمة.

- حسنًا، سأفعل.. وكل ما ينبغي أنْ تفعل حينما ترى إنچان چو يغادر الفندق، هو أنْ تأتي إلى «شارع هوبر» وتموء، فإذا لم أستيقظ فلا بأس من أنْ تلقي حصاة على النافذة فأستيقظ.

- اتفقنا.

- لقد انتهت العاصفة يا هاك وسأعود الآن إلى المنزل، فإنه لم يبقَ على طلوع النهار سوى ساعتين، أما أنت فعُد لمراقبة الفندق حتى يطلع النهار.. هل تفعل ذلك؟

- قُلت إنني سأفعل يا توم.. وسأفعل.. سأظل أراقب هذا الفندق..

ولو استمرت المراقبة عامًا كاملًا! سأنام بالنهار وأراقب طوال الليل.

ولكن أين ستنام؟

- في مخزن «الدريس» بمنزل بن روجرز، فكثيرًا ما يسمح لي بقضاء الليل هناك، كما يسمح لي أيضًا بذلك أبوه الزنجي «العم چاك» فإنني أجلب الماء للعم «چاك» كلما طلب مني ذلك، ولهذا فإنه يسمح لي بالنوم في المخزن، ويعطيني ما آكله إذا توفر لديه شيء يؤكل، إنه زنجي طيب القلب يا توم، فهو يحبني لأنني لا أتصرف مطلقًا كما لو كنت أعلى منه مرتبة، فكم من مرة شاركته طعامه! لكن لا داعي لأن تذكر ذلك لأحد، فإنّ الإنسان يضطر إلى ارتكاب أخطاء جسيمة حينما يقرصه الجوع، رغم أنها أخطاء يشمئز المرء من ارتكابها في الأحوال العادية!

- اسمع يا هاك.. إذا لم أكُن بحاجة إليك نهارًا فسأدعك نائمًا، ولن آتي لإزعاجك. إذا رأيت شيئًا في الليل؛ فبادر بالمجيء إلى المنزل، ولن تنسى أنْ تموء تحت النافذة كما تفعل القطط.

***

الفصل التاسع والعشرون

هاك ينقذ الأرملة

كان أول شيء سمعه توم في صباح يوم الجمعة نبأ طيبًا، لقد عاد القاضي تاتشر وأسرته إلى المدينة في الليلة السابقة. وفي التو أصبحت قصة إنچان چو والكنز في المرتبة الثانية من الأهمية، واحتلت بيكي المركز الأول من اهتمام توم.. وتقابل الفتى والفتاة وقضيا وقتًا طويلًا في لعب عسكر وحرامية واستغماية مع جمع كبير من زملائهم وزميلاتهم في المدرسة، وانتهى بطريقة تبعث على الرضاء التام. فقد أقنعت بيكي أمها بتحديد اليوم التالي موعدًا للنزهة التي وعدتها بها منذ أمد طويل قبل بدء العطلة المدرسية. وفرحت الفتاة فرحًا شديدًا، ولم يكُن توم بأقل فرحًا منها. وسرعان ما سرت بين فتيات القرية وفتيانها نشوة الاستعداد للنزهة، وكان توم شديد الانفعال؛ حتى لقد ظل مستيقظًا إلى ساعة متأخرة من الليل، وهو يأمل أنْ يسمع الإشارة المتفق عليها بينه وبين هاك، ويتمكن من الحصول على الكنز ليفاجئ به بيكي وزملائه في اليوم التالي، ولكنه أُصِيبَ بخيبة أمل كبيرة إذ لم تأته الإشارة في تلك الليلة.

وأقبل الصباح أخيرًا، ونحو الساعة العاشرة أو الحادية عشرة التأم شمل جماعة كبيرة من فتيان القرية في منزل القاضي تاتشر.

وكان كل شيء قد أُعِدَّ للبدء بالرحلة، ولم يكُن من عادة المتقدمين في السن أنْ يفسدوا مثل هذه الرحلات باشتراكهم فيها، إذ كانوا يعتبرون الأطفال في أمان تام، ما داموا تحت إشراف عدد من الفتيات اللائي لا تقل أعمارهن عن الثامنة عشر.. والشبان الذين لا تقل أعمارهم عن الثالثة والعشرين. واستؤجرت الناقلة البخارية العتيقة لهذه المناسبة، وسرعان ما بدأت جموع الأطفال المرحة تتدفق في صف طويل في شارع المدينة الرئيسي، وكل منهم يحمل سلة طعامه. وكان سيدني مريضًا في تلك الأثناء فتخلف عن الاشتراك في الرحلة.. بينما بقيت ماري في المنزل لتسليته. وكان آخر شيء قالته مسز تاتشر لبيكي هو:

- إنكم لن تعودوا إلا في ساعة متأخرة من الليل.. ولعله من الأفضل أنْ تقضي الليلة مع بعض البنات اللائي يقطن قريبًا من مرسى الباخرة يا بنيتي.

- إذن فسأقضي الليلة مع سوزي هاربر يا أماه.

- الرأي ما ترين.. ولكن احرصي على التزام آداب السلوك ولا تثيري أي متاعب.

وبينما كانوا يسيرون في الشارع قال توم لبيكي:

- أصغي إليَّ.. فسأقول لكِ ماذا يحسن بنا أنْ نفعل؛ سنرتقي التل ونقضي الليل في منزل الأرملة دوجلاس بدلًا من قضائه في منزل چو هاربر.. فإنّ الأرملة تُعد دائمًا كميات كبيرة من الآيس كريم في منزلها كل يوم تقريبًا.. ولا شك في أنها ستسر كثيرًا باستضافتنا.

- أوه! لا شك في أنّ ذلك سيكون مدعاة لمرح كثير.

وفكرت بيكي لحظة ثم قالت:

- لكن ماذا ستقول أمي؟

فأجاب: ومِن أين لها أنْ تعرف؟

وقلبت الفتاة الفكرة في رأسها ثم قالت بتردد:

- أعتقد أنّ ذلك خطأ، ولكن...

- لكن ماذا؟ إنّ أمك لن تعلم، فماذا تخشين إذن؟ إنّ كل ما تريده هو أنْ تكوني بمأمن من كل أذى، وإني لواثق من أنها ما كانت لتتردد في أنْ تطلب إليك الذهاب إلى هناك، لو أنّ هذه الفكرة طرأت على بالها.

كان كرم الأرملة دوجلاس طُعمًا مغريًّا، ومِن ثَمَّ هذا الكرم وحجج توم أحدثت أثرها في نفس الفتاة، واتفق الاثنان على إخفاء كل شيء عن برنامجهما عن الجميع. ولم يلبث توم أنْ تذكر أنه من الجائز أنْ يأتي هاك لإعطاء الإشارة في هذه الليلة بالذات، وقد جعله هذا الخاطر يشعر بكثير من الضيق، ولكنه لم يستطع أنْ يفكر في التخلي عن المتعة المحققة التي كان يعلم أنه سيفوز بها في قصر الأرملة دوجلاس، ثم قال يعزي نفسه: إنّ الإشارة لم تأتِ في الليلة الماضية، فما الذي يحتم

مجيئها هذه الليلة؟ ولقد جعله اعتقاده الجازم بأنه سيفوز بالمتعة، بصرف النظر عن فكرة الحصول على كنز غير مضمون. ولم يلبث تفكيره -كصبي- أنْ جعله يصرف النظر تمامًا عن التفكير في الكنز طوال النهار!

ورست الناقلة على مبعدة ثلاثة أميال جنوب المدينة عند مدخل الغابة. ونزل الجميع إلى البر، وسرعان ما امتلأت الغابة بصياح الصغار المرحين وضحكهم.. وانصرف الجميع إلى اللعب واللهو.. وبعد مضي وقت طويل بدأ الجميع يعودون إلى المعسكر، وقد نال الإعياء والجوع منهم، وفي التو انقضوا على الطعام مثل ذئاب جائعة.. ففتكوا به فتكًا، وبعد انتهاء الوليمة ركن الجميع إلى الراحة والثرثرة في ظل أشجار البلوط.. وفجأة صاح أحد الفتيان:

- مَن منكم على استعداد للذهاب إلى الكهف؟

وقوبل اقتراحه بموافقة إجماعية، فأعدت الشموع، وبعد لحظات كان جميع الفتيان والفتيات يتسلقون التل، وكان مدخل الكهف في القسم الأعلى من جانب التل، عبارة عن فتحة على شكل حرف A، وكان بابه المتين المصنوع من خشب البلوط مفتوحًا، وبالداخل كانت توجد غرفة صغيرة شديدة البرودة كمصنع الثلج، بطنت الطبيعة جدرانها بطبقة من الحجر والجيري الصلب المزركش بقطرات من الماء البارد.. وكان الوقوف في هذا الكهف المظلم، والتطلع إلى الوادي الأخضر الذي تغمره أشعة الشمس يثيران الخيال، ولكن أثر الموقف لم يلبث أنْ تلاشى سريعًا، وساد الهرج مرة أخرى، وما أنْ أُضيئت أول شمعة، حتى اندفع الجميع في تزاحم شديد نحو حاملها لإشعال شموعهم، فراح صاحب الشمعة المضاءة يحاول الدفاع عن شمعته، ولكن مهاجميه لم يلبثوا أنْ تغلبوا عليه فسقطت الشمعة من يده وانطفأت، وعندئذ ارتفع صياح الجميع وضحكهم. وبعد قليل هدأ الجميع وانخرطوا في صف طويل، بدأ يهبط المنحدر العميق القائم في الدهليز الرئيسي، والشموع الموقدة التي يحملونها، لا تكاد تكشف عن سقف الكهف الذي كان يرتفع حوالي ستين قدمًا فوق الرؤوس. ولم يكُن عرض هذا الطريق الرئيسي يزيد على ثمانية أقدام أو عشرة.

ولقد كان «كهف دوجال» هذا عبارة عن متاهة بها مئات من الممرات الجانبية المتعرجة المتقاطعة، التي لا يعلم أحد أين تبدأ وأين تنتهي.. وقد قيل إنّ المرء قد يقضي أيامًا وليالي، وهو يجوب في هذه الشبكة المعقدة من الممرات، بغير أنْ يعثر على نهاية أحدها.. وأنه قد يهبط في باطن الأرض، فلا يجد إلا متاهات لا نهاية لها. وكان من المحقق أنه ليس هناك إنسان في هذه المنطقة يعرف هذا الكهف معرفة تامة، فقد كان ذلك أمرًا مستحيلًا، ولكن أغلب شبان المنطقة كانوا يعرفون جزءًا منه فقط.. وكان من المعتاد ألا يجازف أحد بتخطي هذا الجزء المعروف الذي كان توم سوير يعرفه أيضًا!

وتحرك الموكب إلى الأمام في الدهليز الرئيسي حتى قطع ثلاثة أرباع الميل، وبعدئذ بدأ الفتيان ينقسمون إلى جماعات وأزواج، ثم راحوا يختفون في الممرات الفرعية ليفاجئ كل منهم الآخر عند نقط التقاء الممرات، وقد استطاعت كل جماعة أنْ تراوغ الجماعات الأخرى خلال نصف الساعة التالي.. ولكن الجميع كانوا يحرصون على ألا يتجاوزوا المنطقة المعروفة!

وفي تلك الأثناء بدأت الجماعات تعود واحدة في إثر الأخرى إلى مدخل الكهف.. وقد أضناها التعب والإعياء، وتلطخت وجوه أفرادها وثيابهم بالقدر الذي كان يتساقط مع قطرات الماء، ولكن الجميع كانوا مرحين لأنهم قضوا وقتًا رائعًا.. وكم كانت دهشتهم عظيمة عندما تبين لهم أنّ النهار قد أشرف على الانتهاء، وأنّ الليل يوشك أنْ يسدل أستاره. وكان ناقوس الناقلة البخارية يدق منذ نصف ساعة داعيًا الجميع إلى التأهب للعودة، وعندئذ أحس الجميع بأنهم قضوا يومًا من أمتع الأيام وأجملها. وعندما اكتظت الباخرة بركابها وبدأت رحلة العودة إلى القرية، لم يكُن أحد يأبه بالوقت الذي ضاع سوى ربان الناقلة!

وكان هاك يقوم بالمراقبة المعتادة، عندما سطعت أضواء الباخرة وهي تمر بالميناء، ولكنه لم يسمع صوتًا صادرًا منها، إذ كان الصغار صامتين هادئين بعد نزهتهم المضنية.. وعجب هاك لأمر هذه الباخرة، وتساءل عن السر في عدم وقوفها بالميناء.. ثم لم يلبث أنْ انصرف عن التفكير فيها إلى التفكير في المهمة المنوطة به. كان الليل مظلمًا والسماء ملبدة بالغيوم. وحينما بلغت الساعة العاشرة وتلاشت ضوضاء المركبات، بدأت الأضواء الباهتة تختفي من نوافذ منازل القرية واحد إثر الآخر.. وأقفرت الطرقات من الناس، ثم تأهبت القرية للاستسلام للنوم تاركة المراقب الصغير وحيدًا مع الصمت والأشباح.. ثم دقت الساعة الحادية عشرة وأُطفِئَت أنوار الفندق وساد الظلام في كل مكان. وتريث هاك فترة خيّل إليه أنها دهر طويل، ولكن شيئًا لم يحدث فتزعزعت ثقته وتساءل: هل هناك أي فائدة ترجى من الانتظار؟ هل هناك فائدة حقًا؟ لماذا لا أتخلى عن هذا العمل؟ ما أشد حاجتي إلى النوم!

وتناهت ضوضاء إلى أذنيه.. وفي التو دب النشاط في بدنه، وأغلق باب الفندق الخلفي بهدوء في تلك اللحظة، فوثب

الصبي إلى أحد الأركان، وفي اللحظة التالية مر به رجلان كان أحدهما يحمل شيئًا تحت إبطه.. لا شك أنه الصندوق! إذن فقد قررا نقل الكنز.. ألم يحن الوقت لاستدعاء توم؟ ولكن قد يكون فكرة سخيفة، فقد يهرب الرجلان بالصندوق، ويستحيل العثور عليهما مرة أخرى، لا.. يجب عليه أنْ يتبعهما إلى حيث يذهبان متخذًا من الظلام ستارًا يحميه من افتضاح أمره.. بهذا حدّث الصبي نفسه. ثم لم يلبث أنْ برز من مكمنه مقتفيًا أثر الرجلين في خفة الهرة بقدميه العاريتين، ولكنه حرص على أنْ يجعلهما يسبقاه بمسافة طويلة مثلما حرص على ألا يغيبا عن ناظريه.

وقطع الرجلان شوطًا كبيرًا في شارع النهر، ثم انعطفا إلى اليسار في شارع جانبي، وانطلقا فيه حتى وصلا إلى الممر المؤدي إلى «كارديف هيل»، فسلكاه ومرا بمنزل الكهل الأسكتلندي الذي يقع عند منتصف التل، واستمرا في الصعود، فسر هاك واعتقد أنّ الرجلان يعتزمان دفن الكنز في مكان ما عند المرسى، ولكنهما لم يتوقفا عن السير، وظلا يصعدان التل حتى بلغا قمته واندفعا بداخل الممر الضيق المختفي بين الحشائش الطويلة، ولم يلبثا أنْ اختفيا في الظلام.. فأسرع هاك خطاه ليختزل المسافة التي تفصله عنهما، وهو واثق من أنّ الحشائش ستحجبه عن عيونهما، ومضى في سيره لحظة.. ثم أبطأ خطاه، وما لبث أنْ توقف تمامًا وأصاخ السمع، ولكنه لم يسمع غير دقات قلبه، ومزق السكون صوت بومة ملأ الفضاء فانتفض الصبي، ثم ساد الصمت تمامًا. فعجب هاك للأمر وتساءل هل ضاع كل شيء؟ وهم بالاندفاع إلى الأمام حينما سعل رجل لا تزيد المسافة بينه وبين الصبي على أربعة أقدام، وخيّل لهاك أنّ قلبه يوشك أنْ يكف عن الحركة، ولكنه تجلد وصبر ولزم مكانه وهو ينتفض بشدة، حتى كاد يسقط على الأرض من فرط الخوف. ولم يلبث أنْ تبين موضعه بالضبط كان على مبعدة خمس خطوات من الممر المؤدي إلى حديقة قصر الأرملة دوجلاس.. فقال يناجي نفسه: فليدفنا الكنز هنا إنْ شاءَا فلن يكون من الصعب العثور عليه!

وفي تلك اللحظة سمع هاك رجلًا يتكلم.. كان الصوت صوت إنجان:

- لعنة الله عليها.. لا شك أنّ عندها زوارًا وإلا لما أُضِيئَت الأنوار في هذه الساعة المتأخرة من الليل!

فقال زميله: ولكني لا أرى الأنوار!

كان هذا صوت الرجل الغريب الذي رآه في المنزل المهجور.. وأحس هاك ببرودة تسري في أوصاله إذن فقد كان هذا هو «الثأر»، وخطر له أنْ يبادر بالفرار.. ولكنه لم يلبث أنْ تذكر كيف أنّ الأرملة «دوجلاس» طالما عطفت عليه، كما تبادر إلى ذهنه أنه من المحتمل أنْ يكون هذان الشريران قد اعتزما قتل السيدة المسكينة، وتمنى لو استطاع أنْ يحذرها، ولكنه كان يعلم أنه لا يجرؤ على ذلك، فقد يظفر به الشريران ويفتكان به. طافت هذه الخواطر وغيرها بذهنه في سرعة البرق الخاطف.

وفي اللحظة التالية سمع إنجان چو يقول:

- إنك لا ترى الأنوار لأن الأعشاب تعترض طريقك.. تحرك قليلًا.. نعم، هكذا هل ترى؟

- نعم.. أعتقد أنّ عندها زوارًا، ومن الأفضل أنْ نتخلى عن هذه المحاولة الليلة.

- أتخلى عنها وأنا على وشك مغادرة البلاد نهائيًا! أتخلى عنها وقد لا تتاح لي أي فرصة أخرى؟! أعود فأقول لك.. كما سبق أنْ قلت من قبل، إنني لا آبه لثروة السيدة ففي وسعك أنْ تحصل عليها.. ولكن زوجها أساء إليَّ مرات كثيرة، فقد كان قاضي المحكمة في يوم من الأيام، وحكم عليَّ بالتشرد، ولم يكُن ذلك كل شيء بل أنه ليس سوى قطرة واحدة من محيط العذاب الذي ألحقه بي لقد حكم بجلدي! جلدي أمام السجن مثلما يُجلَد الزنوج.. والمدينة كلها تتفرج على جلدي!

هل فهمت؟ لقد عذبني عذابًا أليمًا ثم مات، ولكني سأثأر لنفسي منها.

- أوه! لا تقتلها.. لا.. لا تفعل ذلك.

- أقتلها؟ مَن قال إنني سأقتلها؟ لا شك في أنني كنت أقتله لو أنه كان لا يزال على قيد الحياة، أما هي فلن أقتلها.. فعندما تريد الانتقام من امرأة لا تقتلها افقأ عينيها، أو شق أنفها، أو اقطع أذنيها كالبقرة!

- يا إلهي! هذا....

- احتفظ برأيك لنفسك.. فإنّ ذلك أفضل لتحقيق السلامة لك.. سأشدها إلى الفراش وأفقأ عينيها، وأقطع أذنيها لينزف

دمها حتى الموت، ثم إنك ستساعدني في تحقيق انتقامي يا صديقي -لأجل خاطري- فهذا هو سبب وجودك معي الآن.. فقد لا أستطيع الانتقام منها بمفردي، أما إذا تراجعت أو تراخيت؛ فسأقتلك هل فهمت؟ وإذا قتلتك فسأقتلها وعندئذ لن يعرف أحد مَن الذي قتلكما!

- ما دام الأمر كذلك.. فهيا نرتكب الجريمة!

فكلما أسرعنا كان ذلك أفضل.. إنني أنتفض كريشة في مهب الريح!

- نرتكب الجريمة الآن والمنزل مليء بالناس؟ لقد بدأت أرتاب في أمرك - لا، بل يجب أنْ ننتظر ريثما تُطفَأ الأنوار.. فليس هناك ما يدعو للعجلة.

وأيقن هاك أنّ الصمت سيعقب هذا الحديث.. وهو أمر يثير الخوف أكثر مما يثيره أي حديث عن القتل. ومِن ثَمَّ فقد حبس أنفاسه وبدأ يتراجع إلى الوراء خطوة فخطوة، وهو يحرص أشد الحرص على أنْ يستوثق من موضع قدمه قبل أنْ يحركها، وفي إحدى الخطوات وطأت قدمه عودًا من الحشائش فتحطم مُحدِثًا صوتًا! فكاد قلب الصبي يكف عن أداء وظيفته، وأصاخ السمع ولكن السكون ظل مطبقًا، واستأنف التقهقر حتى وثق من أنه أصبح بعيدًا عن الرجلين بُعدًا كافيًا، وعندئذ استدار على عقبيه، وأطلق الريح لساقيه منحدرًا من فوق التل إلى أنْ بلغ منزل الكهل الأسكتلندي.. فراح يطرق الباب بعنف شديد، وبعد لحظات كان رأس الكهل ورأسا ولديه العملاقين تبرز من النوافذ..

- مَن الذي يُحدث هذه الجلبة؟ مَن الطارق؟ ومَن تريد؟

- افتحوا لي سريعًا.. سأقول لكم كل شيء!

- مَن أنت؟

- هاكلبري فين -أسرعوا- دعوني أدخل!

- هاكلبري فين.. إنه اسم لا تُفتح له أبواب كثيرة فيما أعتقد، لكن ادخل يا ولدي وقُل كل ما تريد أنْ تقوله!

وما إنْ دخل هاك المنزل حتى صرخ قائلًا:

- أناشدكم ألا تقولوا إطلاقًا إنني أفضيت إليكم بهذه المعلومات.. أرجوكم، وإلا فسألقى حتفي.. لقد كانت الأرملة تعطف عليَّ في بعض الأحيان، وأنا أريد أنْ أتكلم.. بل سأتكلم إذا وعدتموني بألا تذكروا اسمي.

فصاح الكهل: يا إلهي! إنّ لدى الصبي نبأ مُهمًّا يريد قوله، وإلا لما تحدث بهذا الشكل الغريب! تكلم يا فتى، وثق أنّ أحدًا من الحاضرين لن يذكر اسمك.

وبعد ثلاث دقائق غادر الكهل وولداه المنزل وهم مسلحون وانطلقوا صاعدين نحو التل، ثم لم يلبثوا أنْ غابوا وسط الحشائش وهم يسيرون فوق أصابع أقدامهم، وقد حملوا أسلحتهم في أيديهم. ورفض هاك أنْ يتقدم إلى أبعد من ذلك.. واختفى في دغل قريب، أصاخ السمع.. وساد صمت مقبض، وفجأة دوى صوت طلقات نارية أعقبتها صرخة مدوية.

ولم يتريث هاك أكثر من ذلك.. وإنما وثب مبتعدًا وانطلق يهبط، ثم لم يلبث أنْ اختفى عن الأنظار!

***

الفصل الثلاثون

توم وبيكي في الكهف

عندما بدأت الخيوط الأولى لفجر يوم الاثنين تمتد في الأفق، أخذ هاك يتسلق التل بحذر شديد إلى أنْ بلغ منزل الكهل الأسكتلندي، فطرق بابه بلطف.. ومع أنّ جميع مَن بالدار كانوا نيامًا، إلا أنهم كانوا أشبه بالمستيقظين بعد الحوادث المثيرة التي وقعت في الليل.

وسأل الكهل، وهو يطل برأسه مِن النافذة: مَن هناك؟

فأجاب هاك، بصوت منخفض يكاد يشبه الهمس:

- اسمح لي بالدخول، أنا هاك فين.

- مرحبًا بك! أستطيع أنْ أفتح لك هذا الباب في أي وقت من الليل أو النهار يا صبي!

كان وقع هذه الكلمات غريبًا على أذني الصبي الضال، ولكنها كانت أجمل كلمات سمعها. ولم يستطع أنْ يتذكر أنّ أحدًا قال له: «مرحبًا» في يوم من الأيام. وفُتِح الباب سريعًا، فدخل.. وقدم الكهل مقعدًا لهاك بينما انصرف الرجل وولداه إلى ارتداء ثيابهم على عجل.

قال الكهل: أرجو أنْ تكون بخير.. وأنْ تكون جائعًا أيضًا، لأن طعام الإفطار سيكون مُعدًّا بمجرد شروق الشمس، وسيكون طعامًا ساخنًا فاطمئن من هذه الناحية.. لقد تمنيت وولداي أنْ تأتي لتنام هنا ليلة أمس!

فقال هاك: أصدقك القول إنني كنت خائفًا فهربت عندما انطلقت أصوات المسدسات، ولم أتوقف عن الركض إلا بعد أنْ قطعت ثلاثة أميال.. لقد جئت لأسأل عمَّا حدث وجئت قبل طلوع النهار لأنني لا أريد أنْ ألتقي بهذين الشيطانين حتى لو كانا قد لقيا حتفهما.

- مسكين أنت أيها الشاب.. إنّ منظرك يوحي بأنك قضيت ليلة شاقة، لكن اطمئن فستجد هنا فراشًا تنام فوقه عندما تنتهي من تناول الطعام.. كلا، إنهما لم يموتا يا بني، إننا آسفون لذلك، لقد عرفنا من الوصف الذي ذكرته لنا أين يمكننا أنْ نظفر بهما، ومِن ثَمَّ فقد ظللنا نتقدم نحوهما بكل حذر، حتى أصبحت المسافة التي تفصلنا عنهما خمسة عشر قدمًا.. وعندئذ أحسست بأنني أوشك على العطس، لقد كان ذلك أسوأ حظ صادفني في حياتي، حاولت أنْ أتغلب على العطس ولكن بلا جدوى.. كان لا بد أنْ أعطس، وكنت أسير في المقدمة ومسدسي بيدي، وعندما عطست بادر الشرير بالفرار، وعندئذ صحت بولديّ «أطلقا النار عليهما!»، وفي التو أطلقنا جميعًا النار.. ولكن الشريرين استطاعا الإفلات وسط الحشائش، فمضينا نطاردهما حتى دخلا الغابة. وأعتقد أنهما لم يصابا بأذى.. وعندما دخلا في قلب الغابة أطلقا النار علينا، ولكن رصاصهم طاش ولم يصبنا بأي أذى، وعندما فقدنا كل أثرٍ لهما تخلينا عن المطاردة، وذهبنا إلى المدينة حيث استدعينا رجال البوليس.. فذهبت قوة منهم لحراسة شاطئ النهر. وعندما ينبلج الصباح، سيتولى العمدة ورجاله تفتيش الغابة، وسينضم ولداي إليهم بعد قليل. ليتنا نعرف حقيقة أمر هذين المجرمين، فإنّ ذلك جدير بأنْ يساعدنا على القبض عليهما.. بالطبع لم تستطع أنت أنْ ترى ملامحهما في الظلام!

- أوه! لقد رأيتهما في المدينة وتبعتهما.

- هذا مدهش! صفهما إذن.. صفهما يا بني.

- أحدهما الكهل الإسباني الأصم الأبكم الذي يتجول في المدينة مرة أو اثنتين، أما الآخر فرجل كريه المنظر مهلهل الثياب.

- كفى يا فتى.. لقد عرفناهما! فقد رأيناهما ذات يوم في الغابة على مقربة من منزل الأرملة.. هيا يا ولديّ إلى العمدة وأبلغاه الأمر.. أما طعام إفطاركما فتناولاه صباح غد!

وتهيأ ولدا الكهل للانصراف على الفور.. وعندما كانا يغادران الغرفة وثب هاك واقفًا وصاح:

- أوه! أرجوكما ألا تقولا لأي شخص إنني ذكرت لكما أوصاف الرجلين.. أرجوكما.

- ليكن لك ما تريد يا هاك.. رغم أنه من الواجب أنْ تنال جزاء العمل الرائع الذي أديته.

- أوه! كلا.. كلا.. أرجوكما لا تقولا شيئًا.

وعندما انصرف الشابان قال الكهل:

- إنهما لن يذكرا اسمك، كما أنني لن أذكره أيضًا، لكن لماذا تريد أنْ يظل اسمك مجهولًا؟

ورفض هاك أنْ يقول شيئًا أكثر من أنه كان يعرف الشيء الكثير عن أحد الرجلين.. وأنه لا يرغب في أنْ يعرف ذلك الرجل أنه اشترك في مطاردته مهما كان الثمن، لأنه من المحقق أنه سيُقتَل إذا افتضح أمره!

ومرة أخرى، وعد الكهل الصبي بالتزام السرية التامة وقال:

- كيف اتفق أنْ اقتفيت أثر هذين الرجلين يا بني؟ هل كان منظرهما يثير الريبة؟

وصمت هاك قليلًا ريثما يعد الإجابة في حذر، ثم قال:

- حسنًا، الواقع إنّ الناس جميعًا يزدرونني ويعتقدون أنني صبي ضال لا أصلح لشيء، ولست أكتمك إنّ ذلك يسبب لي ألمًا شديدًا ويجعلني لا أذوق للنوم طعمًا، إذ إنني كثيرًا ما أطيل التفكير فيما ينبغي عليَّ أنْ أفعله لأسترد تقدير الناس لي.. هكذا كان شأني ليلة أمس لم أستطع النوم، فخرجت إلى الشارع عند منتصف الليل تقريبًا لأفكر في أمر نفسي، وعندما وصلت إلى المخزن العتيق المجاور لفندق «تمبرنس» استندت إلى الجدار لأفكر في مصيري، وفي تلك اللحظة أقبل هذان الرجلان أحدهما يحمل شيئًا تحت إبطه فظننت أنه يحمل شيئًا مسروقًا، وكان الرجل الثاني يريد أنْ يشعل لفافة تبغ فتوقفا أمامي مباشرة، وعندما أشعلا عود الثقاب استطعت أنْ أرى وجهيهما فعرفت في أضخمهما الإسباني الأصم الأبكم، وقد عصب إحدى عينيه، أما الآخر فكان ذلك الشيطان كريه المنظر مهلهل الثياب!

- وهل استطعت أنْ ترى الثياب المهلهلة على ضوء عود الثقاب؟

وارتبك هاك لحظة، ثم قال:

- لست أدري ولكن يبدو أنني استطعت ذلك.

- ثم استمر الرجلان في سيرهما.. و...

- وتبعتهما.. نعم، هذا ما حدث. كنت أريد أنْ أعرف حقيقة أمرهما ورأيتهما يتلفتان حولهما بحذر، فزادت ريبتي فيهما ولم ألبث أنْ سمعتهما يتحدثان في الظلام وأقسم الإسباني أنْ يفقأ عينيها.. فجئت...

- ماذا تقول! هل قال الرجل الأبكم الأصم كل هذا!

وأيقن هاك أنه ترك لسانه يزل مرة أخرى، كان يحاول جهد طاقته ألا يجعل الكهل يعرف شيئًا عن شخصية الإسباني.. ولكن يبدو أنّ لسانه كان مصممًا على إثارة المتاعب له رغم كل الجهود التي بذلها، وبدأ الصبي يحاول إصلاح خطأه.. ولكن عيني الكهل كانتا تراقبانه عن كثب. ومِن ثَمَّ كثرت زلات لسان هاك.. وأخيرًا قال الكهل:

- لا تخف مني يا بني.. لن أسيء إلى شعرة واحدة من شعر رأسك.. ولو مُنِحت العالم كله.. لن أخذلك، سأحميك، سأحميك.. إنّ هذا الإسباني ليس أصم ولا أبكم.. لقد زل لسانك رغما عنك.. إنك تعرف شيئًا عن هذا الإسباني لكنك تريد كتمانه، لكن ثق بي يا بني.. وأخبرني بما في نفسك، وتأكد إنني لن أخونك.

وتطلع هاك إلى عيني الرجل الأمينتين لحظة، ثم مال إلى الأمام.. وهمس في أذنه:

- إنه ليس إسبانيًّا.. إنه إنجان چو.

وكاد الكهل يثب من فوق مقعده.. وسرعان ما قال:

- لقد وضح كل شيء الآن، عندما سمعتك تتكلم عن فقأ العيون، وجدع الأنف، حسبت هذا القول من أفكارك، لأن الرجال البيض لا يثأرون على هذا المنوال، ولكن چو ليس من الجنس الأبيض، وهذا يخلع على الموقف طابعًا آخر.

واستمر الكهل والصبي يتحدثان في أثناء تناولهما الطعام، وقال في مجرى الحديث إنه وولديه لم يأويا إلى فراشهم إلا بعد أنْ أحضروا مصباحًا من المنزل وفحصوا المنطقة على ضوئه بحثًا عن بقع من الدم، ولكنهم لم يعثروا على شيء منها.. بيد أنهم عثروا على حزمة من...

- مِن ماذا؟

انطلقت هاتان الكلمتان من بين شفتي هاك كالقنبلة، بينما اتسعت حدقتا عينيه وبدأ عليه الاهتمام الشديد وهو

يترقب رد الكهل على سؤاله.. وحدق الكهل بدوره في وجه الصبي مبهوتًا ومضت ثلاث ثوانٍ، فخمس، فعشر، وأخيرًا أجاب الكهل:

- مِن أدوات اللصوص، لكن ماذا دهاك يا فتى؟

وغاص هاك في مقعده وهو يلهث بهدوء، ولكن بعمق وقد بدا عليه الارتياح الشديد، فتأمله الكهل بنظرة جدية وباهتمام، ولم يلبث أنْ قال:

- نعم. أدوات مما يستعملها اللصوص، يبدو أنّ ذلك بث الراحة في نفسك.. لكن لماذا كانت هذه الدهشة البالغة؟ وما الذي كنت تتوقع أنْ نعثر عليه؟!

وأيقن هاك أنّ أمره سيفتضح حتمًا، فقد كان الكهل يراقبه بعينين كعيني الصقر. كان مستعدًا أنْ يدفع أي ثمن مقابل الحصول على إجابة ترضي الكهل وتبعد الشك عنه، ولكنه لم يستطع العثور على مثل هذه الإجابة. وظلت العينان الغامضتان تحدقان فيه، وفي تلك اللحظة خطرت له إجابة غير معقولة.. ولكن الوقت لم يتسع لوزنها. ومِن ثَمَّ فقد قال بإعياء:

ربما كانت اللفافة تحوي بعض كتب مدارس الأحد!

ولم يستطع هاك المسكين أنْ يبتسم، ولكن الكهل انفجر ضاحكًا بقوة ومرح، حتى لقد أخذ جسمه يهتز من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

وختم ضحكه قائلًا: إنّ هذا الضحك المرح لا يقل فائدة عن النقود التي يحتفظ بها الإنسان في جيبه، لأنها تخفض من نفقات الأطباء والدواء! ثم أضاف:

يا لك من شاب مسكين. إنّ وجهك مصفر جدًّا -لا شك إنك لست على ما يرام- فلا عجب إذن في إنك مضطرب وغير متزن.. ولكنك ستتغلب على الأزمة؛ إنّ الراحة والنوم سيجعلانك تسترد قواك.. أرجو ذلك.

ولعن هاك نفسه لأنه أبدى مثل هذا الضعف والانفعال اللذين أثارا ريبة الرجل، وسرعان ما أيقن أنه كان ينبغي عليه أنْ يتخلى عن الاعتقاد بأنّ الحزمة التي أحضرها الشريران من الفندق كانت تحتوي على الكنز وبخاصة بعد أنْ سمع چو يهدد بالثأر من الأرملة.. صحيح إنّ هذا الخاطر جال برأسه، ولكنه لم يكُن واثقًا منه، ومِن ثَمَّ فإنه لم يستطع أنْ يتمالك نفسه من الانفعال حينما سمع بعثور الكهل وولديه على الحزمة.. ومع ذلك فقد شعر بفرح شديد حينما انتهت الأزمة، فقد أصبح واثقًا من أنّ هذه الحزمة لم تكُن الحزمة التي يعرفها.. فاستراح ضميره، بل أنه بدأ يعتقد أنّ الأمور تجري حسبما يريدها أنْ تجري.. وأنّ الكنز لا بُد أنْ يكون موجودًا في رقم٢، ومِن ثَمَّ فإنه ما إنْ يُقبَض على المجرمين ويُزَج بهما في السجن حتى يمضي هو وتوم للاستيلاء على الكنز في الليلة التالية بغير أي عناء، أو خوف من المتاعب.

وما كاد الكهل وهاك يفرغان من تناول طعام الإفطار حتى سمعا طرقًا على الباب، فوثب هاك وراح يبحث عن مكان يختبئ فيه، إذ كان مُصرًّا على ألا تكون له بالحادث أي علاقة مهما كانت بعيدة، وفتح الكهل الباب فدخلت جماعة من السيدات والرجال ومن بينهم الأرملة دوجلاس، ولاحظ الكهل أنّ جماعات من الموظفين كانت ترتقي التل في تلك اللحظة لمشاهدة ميدان المعركة، فأيقن أنّ النبأ ذاع وانتشر في كل مكان.

واضطر الكهل إلى سرد قصة ما دار في أثناء الليل على زائريه. وكان شكر الأرملة على إنقاذها عميقًا بالغًا.

قال الكهل: لا تشكريني يا سيدتي.. فإنك مدينة بنجاتك إلى شخص آخر أكثر مما أنتِ مدينة بها لي ولولديّ، ولكن هذا الشخص يرفض أنْ يسمح لنا بذكر اسمه، فلولاه لما استطعنا منع وقوع الجريمة.

ولقد أثار هذا القول رغبة الزائرين في معرفة شخصية هذا المنقذ، ولكن الكهل رفض أنْ يبوح باسمه أو حتى يلمح إلى شخصيته.. خشية أنْ يذاع السر في طول المدينة وعرضها.

ولما ألَمَّ الزائرون بجميع التفاصيل، قالت الأرملة:

- لقد صعدت إلى فراشي وقرأتُ قليلًا، ثم لم ألبث أنْ استسلمت للنعاس رغم الضجة الشديدة التي كانت تنبعث من الخارج، فلماذا لم تحاولوا إيقاظي؟

- قدّرنا أنّ الموقف لا يستلزم ذلك.. إذ كان من غير المحتمل أنْ يعاود الشريران الكرة، إذ لم تبقَ في حوزتهم أي أدوات يستخدمونها في التسلل إلى القصر.. ثم ماذا كنا سنفيد من إيقاظك وإشاعة الرعب في قلبك؟ لقد ظل رجالي الزنوج الثلاثة يحرسون منزلك طوال الليل ولم يعودوا إلا منذ لحظات.

وأقبل مزيد من الزائرين، وكان على الكهل أنْ يعيد سرد القصة المرة بعد الأخرى خلال ساعتين متعاقبتين.

لم تكُن مدرسة الأحد تفتح أبوابها خلال عطلة المدرسة السنوية، ومع ذلك فقد بكر جميع سكان القرية في الذهاب إلى الكنيسة بعد أنْ ذاع نبأ الحادث المثير، وانتشر انتشار النار في الهشيم. ووصلت أنباء تقول: إنّ أحدًا لم يستطع أنْ يقع على أي أثر للمجرمين حتى تلك اللحظة. وعندما انتهت الصلاة انضمت زوجة القاضي تاتشر إلى مسز هاربر وهي تسير مع الجمهور في الطريق المفضي إلى الباب وقالت لها:

- هل ستقضي ابنتي بيكي اليوم كله عندكم نائمة؟ الواقع إنني أعتقد إنها شديدة التعب.

- ابنتك بيكي؟

فبدأ الفزع على وجه زوجة القاضي، وأجابت: نعم. ألم تقضِ بيكي الليلة الماضية في منزلك؟

- كلا، بالطبع.

وامتقع وجه مسز تاتشر وتهالكت فوق أحد المقاعد، وفي تلك اللحظة كانت العمة بولي تتحدث مع إحدى صديقاتها، فلما مرت بزوجة القاضي ومسز هاربر قالت:

- طاب صباحك يا مسز تاتشر.. طاب صباحك يا مسز هاربر.. لقد اختفى الولد مرة أخرى، وأكبر الظن أنه قضى ليلته في منزل إحداكما.. ولكنه خشيَ أنْ يجيء إلى الكنيسة، سأحاسبه على ذلك. هل قضى توم الليلة عندك يا مسز تاتشر؟

وهزت مسز تاتشر رأسها سلبًا بإعياء.. وازداد امتقاع وجهها، وبدا القلق على وجه مسز هاربر، وقالت إنه لم يقضِ الليل بمنزلنا.

وارتسمت علامات الفزع المشوب بالقلق على وجه العمة بولي وغمغمت:

- هل رأيت توم هذا الصباح يا چو هاربر؟

- لا يا سيدتي.

- متى رأيته آخر مرة؟

وحاول چو أنْ يتذكر، ولكنه لم يكُن واثقًا مما يريد أنْ يقوله، وتوقف المصلون عن الخروج من الكنيسة.. وسرى بينهم الهمس وارتسمت علامات القلق على جميع الوجوه.. وبدأت عملية استجواب طويلة للأطفال وصغار المدرسين الذين كانوا يرافقون الطفلين المفقودين، ولكنهم أجمعوا على أنهم لم يلاحظوا ما إذا كانت بيكي وتوم قد ركبا الباخرة في رحلة العودة أم لا، لأن الظلام كان دامسًا.. ولهذا فإنّ أحدًا لم يحاول أنْ يعرف ما إذا كان أحد الرفاق قد تخلف عن اللحاق بالباخرة. وأخيرًا أعرب أحد الشبان عن خوفه من أنْ يكون الصغيران لا يزالان في الكهف، وفي التو سقطت مسز تاتشر مغشيًا عليها.. أما العمة بولي فقد انفجرت باكية وراحت تضرب كفًا بكف.

وانتقل النبأ المفزع من منزل إلى منزل، ومن جماعة إلى أخرى، ومن شارع إلى شارع، ولم تكد تنقضي خمس دقائق حتى بدأت الأجراس تدق بعنف.. فاستيقظ جميع من في القرية ونسيَ الجميع حوادث الليل المثيرة، وأعدت الجياد، والقوارب، والباخرة، وقبل أنْ تنقضي نصف ساعة على ذيوع النبأ كان مائتا رجل يتدفقون في الطرقات في طريقهم إلى النهر ليذهبوا إلى الكهف.

وبدت القرية شبه مهجورة تمامًا طوال النهار، وزارت نساء كثيرات العمة بولي ومسز تاتشر محاولات أنْ يهدئن روعهما، ولكنهن اشتركن معهما في البكاء أيضًا ولا شك في أنّ ذلك أفضل من الكلام. ومضى الليل الممل كله، والمدينة ساهرة تترقب الأنباء، ولكن ما كاد الفجر يطلع أخيرًا حتى كانت الكلمة التي وصلت إلى المدينة وهي «أرسلوا مزيدًا من الشموع، وأرسلوا طعامًا» وكانت مسز تاتشر قد أوشكت على الجنون في تلك الأثناء، وكذلك كان شأن العمة بولي.. وكان القاضي تاتشر يبعث برسائل من الكهف عامرة بالأمل والتشجيع، ولكنها لم تكُن تنطوي على شعور حقيقي بالأمل!

وعاد الكهل الأسكتلندي إلى منزله عند طلوع النهار.. وقد تلطخ وجهه وثيابه بشحم الشموع والطمي الجاف، وهو يكاد ينهار من فرط الإعياء. ووجد هاك ملازمًا الفراش الذي أُعِدَّ له وهو يهذي من الحمى.. وإذ كان جميع أطباء القرية موجودين في الكهف في ذلك الحين، فقد جاءت الأرملة دوجلاس وتولت العناية بأمر الصبي المحموم.. وقالت: إنها ستبذل قَصَارى جهدها من أجله سواء أكان صبيًّا شريرًا أم طيبًا.. لأنه مخلوق من مخلوقات الله، وعلى الإنسان ألا يهمل أي مخلوق من مخلوقات الله. فقال الكهل: إنّ للصبي محاسنه. وعندئذ قالت الأرملة:

- يمكنك أنْ تتأكد من أنّ له محاسنه كأي إنسان، فإنّ الله لا يخلق إنسانًا بلا محاسن.

وفي ساعة مبكرة من بعد الظهر، بدأت جماعات من الرجال منهوكي القوى تتدفق على المدينة، بينما استمر أقوى الرجال بنية في منازلهم! ولكن كل ما أمكن الحصول عليه من معلومات لم يزد على أنّ الباحثين تجاوزوا المناطق المعروفة في الكهف، وبحثوا في المناطق المجهولة، وإنّ كل ركن فيه يُفتَّش بعناية، ولكن أحدًا لا يستطيع أنْ يؤكد ما إذا كان في الإمكان ارتياد هذه الشبكة المعقدة من الدهاليز والممرات لاستحالة حصرها أو التفرقة بين بدايتها ونهايتها، وكثيرًا ما كان الباحثون يرون ضوءًا ينبعث من بعيد، كما يسمعون صياحًا أو طلقات مسدس.. ما أنْ يبلغوا مصدرها حتى يجدوا زملاء لهم. ولكنهم رأوا اسمي بيكي وتوم مسجلين بدخان فوق الكهف في مواضع مختلفة، كما عثروا بجوار الاسمين في أحد الدهاليز على قصاصة شريط مغطاة بطبقة من الدهن، وعرفت مسز تاتشر قطعة الشريط على الفور. فأخذتها وانخرطت في البكاء، قالت: إنها آخر أثر ستعثر عليه لطفلتها، وإنها ستكون أعز ذكرى لديها لأنها كانت آخر شيء لمس الجسم الحي قبل أن يختطفه الموت!

ومرت الأيام والليالي البغيضة متثاقلة، وبدأ اليأس يستولى على قلوب سكان القرية. ومع أنّ نبأ اكتشاف مخزن للخمور الممنوعة عند صاحب فندق «تمبرنس» ذاع في ذلك الوقت، فإنه لم يلقَ بالًا من الجمهور.. رغم أنه نبأ مثير جدًّا. وفي لحظة من لحظات اليقظة أدار هاك دفة الحديث إلى الفنادق.. ثم سأل في النهاية وهو يتوقع سماع أسوأ الأنباء عمّا إذا ثمَّة شيء قد اكتشِفَ في فندق «تمبرنس» في أثناء مرضه.

قالت الأرملة: نعم.

فأجفل هاك، وبدأت اللهفة مجسمة في عينيه وسأل:

- ماذا؟ ما الذي عثروا عليه؟

- خمر! لقد أُغلِق الفندق. ماذا دهاك لقد أفزعتني!

- فقط أخبريني.. أخبريني عن شيء واحد أرجوك.. هل كان توم سوير هو الذي اكتشف الأمر؟ وانفجرت الأرملة باكية! وهمست: صه أيها الصبي! قلت لك من قبل إنه يجب عليك ألا تتكلم فإنك مريض جدًّا.. جدًّا.

إذن معنى ذلك إنهم لم يعثروا على شيء غير الخمر، لا شك أنّ موجة من الدهشة كانت ستطغي على القرية لو أنهم عثروا على ذهب في الفندق. ومعنى ذلك أنّ الذهب ضاع إلى الأبد.. ضاع إلى الأبد! لكن لماذا تبكي السيدة؟ من العجيب حقًّا أنْ تبكي!

جالت هذه الأفكار بذهن هاك المتعب، ولكنه لم يلبث أنْ أحس بالنعاس.. فاستسلم للنوم.

وقالت الأرملة لنفسها:

- ها قد نام ذلك الحطام التعس، توم سوير عثر عليها! من المؤلم أنّ أحدًا لم يستطع أنْ يعثر على توم سوير نفسه. يا إلهي! لم يَعُد هناك رجال يتمتعون بقوة كافية أو أمل كافٍ يدفعهم إلى المضي في البحث.

***

الفصل الحادي والثلاثون

وُجِدا .. ثم فُقدا ثانية

والآن، يجدر بنا أنْ نذكر ما حدث لتوم وبيكي.. لقد سارا مع الجماعة خلال ممرات الكهف، وزارا الأماكن المألوفة فيه، ولاحظ أنّ أماكن كثيرة في الكهف كانت تحمل كلمات كتبها مجهولون مثل «غرفة الجلوس»، و«الكاتدرائية»، و«قصر علاء الدين»، وما شابه ذلك.. وسرعان ما بدأ الجميع يلعبون الاستغماية فاشترك توم وبيكي في اللعب بحماس شديد إلى أنْ بدأ التعب يدب في أوصالهما.. بعدها أخذا يمشيان على غير هدى في دهليز متعرج، وهما يرفعان شمعتيهما فوق رأسيهما ليتمكنا من قراءة المجموعة الكبيرة من الأسماء والتواريخ والوظائف والشعارات التي سجلها من رأوا الكهف فوق الجدران الصخرية بالدخان المنبعث من لهب الشموع.. ومضيا في سيرهما يتحدثان دون أنْ يفطنا إلى أنهما بلغا في تلك اللحظة منطقة في الكهف لا يوجد لدخان الشمع أثر فيها. عندئذ سجل اثنان اسميهما فوق الجدران أسفل رف معلق واستمرا في سيرهما.. وسرعان ما بلغا مكانًا يتدفق فيه مجرى ماء صغير، وكان هذا المجرى ينحدر من فوق حافة صخرية.. فأنشأ على مر العصور شلالًا صغيرًا في قلب الصخور.. وأدخل توم جسمه خلال الصخور لإرضاء بيكي وسرعان ما وجد أنّ هذه الفتحة تؤدي إلى درج طبيعي شديد الانحدار بين جدارين من الصخر. وفي التو تغلبت عليه طبيعته الاستكشافية.. واستجابت بيكي لندائه وانضمت إليه بعد أنْ رسما علامة بالدخان لإرشادهما عند العودة، ثم انطلقا في رحلتهما.. فراحا ينعطفان هنا وهناك، ويهبطان إلى أسفل في أعماق الكهف السرية، ثم رسما علامة أخرى وانطلقا في فروع الكهف باحثين عن شيء جديد يستكشفانه، ويتفاخران به في المستقبل! وفي مكانٍ ما عثرا على كهفٍ رحب، تتدلى عن سقفه مجموعة كبيرة من الصخور المرمرية شديدة اللمعان؛ كل صخرة منها في حجم ساق الرجل. فراحا يتأملانها باهتمام ويدوران حولها وهما يتعجبان، ثم لم يلبثا أنْ غادراه ومضيا في دهليز من الدهاليز العديدة التي تتصل به. وسرعان ما انتهى بهما هذا الدهليز إلى نبع ماء ساحر! كان حوضه منحوتًا في صخر متألق، وكان هذا النبع في قلب مغارة حُمِلَ سقفها فوق عدد كبير من الأعمدة خلابة المنظر، تكونت نتيجة لتجمع بعض الصخور المرمرية ولنشوء بعض الصخور الهشة التي أثرّ فيها تساقط قطرات الماء خلال قرون طويلة، وتحت هذا السقف تجمعت أسراب كبيرة من الخفافيش يبلغ عددها عدة آلاف، وقد أزعج ضوء الشمعتين هذه المخلوقات فهبطت من مكانها بالمئات وهي ترفرف بأجنحتها وتصرخ صراخًا مفزعًا، ثم تندفع نحو الشمعتين المضاءتين.. وكان توم يعرف طبيعة الخفاش والخطر الذي ينجم عن سلوكه هذا؛ فأسرع يمسك ببيكي من ذراعها وقادها إلى أقرب دهليز إليهما، وفي تلك اللحظة انقض خفاش بالقرب من الفتاة ورفرف بجناحيه، فأطفأ شمعتها.. ولكن الطفلين استطاعا دخول الدهليز، وانطلقا يعدوان بداخله حتى كفت الخفافيش عن مطاردتهما. وعثر توم على بحيرة تحت الأرض، لم يكُن لها ثمَّة نهاية فأراد أنْ يستكشف حدودها، ولكنه رأى أخيرًا أنه من الأفضل أنْ يستريحا أولًا بعض الوقت.. ولأول مرة منذ بدأت مغامرتهما الجريئة شعرا بالصمت يثقل على روحيهما!

قالت بيكي: يا إلهي! إني لم ألاحظ ذلك من قبل.. يبدو أنّ وقتًا طويلًا قد مضى منذ أنْ سمعت أصوات زملائنا.

- آه.. أعتقد أننا بعيدان جدًّا عنهم يا بيكي.. ولست أدري ما مدى العمق الذي بلغناه أو المسافة التي قطعناها، وهل هي إلى الشمال أم إلى الجنوب، أم الشرق أم الغرب.. إننا لا نستطيع أنْ نسمع صوتهم من هنا.

وبدا القلق على وجه بيكي وقالت:

- كم مضى علينا من الوقت ونحن هنا يا توم.. يحسن بنا أنْ نعود أدراجنا.

- نعم.. أظن أنه يحسن بنا أنْ نعود.

- هل تستطيع معرفة الطريق يا توم؟ إنّ الدهاليز شديدة التعرج والتداخل على ما أعتقد.

- أعتقد أنني أستطيع أنْ أتبين معالم الطريق.. لكن كيف نهرب من الخفافيش؟ لو أنها أطفأت شمعتينا فسنهلك.. فلنجرب إذن طريقًا آخر حتى لا نضطر إلى مواجهة الخفافيش مرة أخرى.

- افعل ما تشاء.. ولكن احذر أنْ تضل الطريق إنه لأمر فظيع.. وارتعدت الفتاة وهي تسير وراء توم!

وسارا في دهليز قطعا فيه شوطًا بعيدًا وهما صامتان، وكانا يتطلعان إلى كل فتحة جديدة تصادفهما ليتأكدا مما إذا كان بها أي شيء مألوف لهما، ولكنها كانت جميعًا غريبة عليهما وكانت الفتاة تتأمل وجه توم لعلها ترى في أساريره علامة مشجعة كلما راح يفحص طريقًا جديدًا، ولكنه كان يقول بمرح:

- أوه.. لا بأس.. إنها ليست هذه الفتحة.. لكننا لن نلبث أنْ نهتدي إلى الطريق الصحيح.

ولكن الأمل أخذ يبهت شيئًا فشيئًا، وأخيرًا بدأ توم يضرب في الدهاليز على غير هدى، كان يراوده أمل يائس في العثور على الدهليز المنشود، متظاهرًا بالشجاعة رغم الخوف الذي بدأ يعصر قلبه.. وسرعان ما فقد صوته رنة الأمل التي كانت له، وخيّل كأنه «لقد انتهى كل شيء»، وتعلقت بيكي بذراعه، وقد استولى عليها خوف قاتل وراحت تغالب دموعها، ولكن الدموع لم تلبث أنْ انهمرت من عينيها وأخيرًا قالت الفتاة:

- أواه يا توم.. لا بأس من مواجهة الخفافيش فلنعد من الطريق الذي جئنا منه.. إذ يبدو أنّ الموقف يسوء من لحظة لأخرى.

فتوقف توم عن السير وقال: هل تسمعين صوتًا؟

ولكن الصمت كان عميقًا.. وصاح توم، فترددت صيحته في الممرات الخالية وماتت على البعد مثلما يموت صوت الضحك الساخر.

فقالت بيكي: أوه.. لا تفعل ثانية يا توم، فإنّ للصوت صدًى مفزعًا!

- صحيح إنه مفزع؛ لكن يحسن بي أنْ أصيح يا بيكي فقد يسمعنا الآخرون.

وانطلق يصيح، لكن صياحه كان لا يُحدِث إلا صدى مفزعًا، وجمد الطفلان في مكانهما وأصاخا السمع.. ولكن دُون جدوى.. وفي التو عاد توم إلى الطريق الذي جاء منه بخطى سريعة. ولكن ما إنْ انقضت دقائق حتى بدا عليه التردد، وأفصحت تصرفاته لبيكي عن حقيقة أخرى مخيفة، ذلك أنه لم يستطع أنْ يعثر أيضًا على الطريق الذي جاءا منه!

هتفت الفتاة بجزع: أواه يا توم! إنك لم تترك أي علامة!

- لقد كنت أحمق يا بيكي.. لم يخطر ببالي إننا قد نضطر إلى العودة، إنني لا أستطيع العثور على الطريق.. فإنّ الدهاليز شديدة التشابك.

- توم.. توم.. لقد هلكنا.. إننا لا نستطيع الخروج من هذا المكان المخيف.. أواه! أواه! لماذا لم نبقَ مع الآخرين!

وخارت قواها فتهالكت على الأرض وانفجرت تبكي بحرقة جعلت توم يجزع حينما خطر بباله إنها قد تموت أو تفقد عقلها.. وجلس بجوارها وأحاطها بذراعيه، فدفنت وجهها في صدره.. وتعلقت به وراحت تفضي إليه بمخاوفها وأسفها. وكانت أصداء حديثهما أشبه بصدى ضحك ساخر! فراح توم يتوسل إليها أنْ تستجمع أطراف شجاعتها.. ولكنها قالت: إنها لا تستطيع ذلك، فانطلق يلوم نفسه لأنه هو الذي زجّ بها في هذا الموقف الحرج، وكان لذلك أثره الفعال إذ ما لبثت بيكي أنْ قالت إنها ستحاول أنْ تتمسك بالأمل مرة أخرى وأنْ تنهض تمضي معه إلى حيث يريد، على شريطة ألا يعود إلى هذا اللون من الحديث مرة أخرى، لأنها تستحق القدر نفسه من اللوم الذي يستحقه.

واستأنفا السير على غير هدى، فكل ما كان في استطاعتهما أنْ يفعلاه هو أنْ يتحركا ويستمرا في الحركة، وبعد فترة قصيرة بدأ أملهما ينتعش.. ولم يكُن ثمَّة سبب لذلك، ولكن طبيعة الأمل نفسه تأبى ألا أنْ تنتعش طالما أنّ نبع الأمل لم ينضب.

وبعد قليل أخذ توم شمعة بيكي وأطفأها، وكان هذا الاقتصاد معناه الواضح! ولم تكُن هناك حاجة إلى الإيضاح.. فقد فهمت بيكي الموقف فما تأملها مرة أخرى. كانت تعلم أنّ مع توم شمعة كاملة، وثلاث أو أربع بقايا شموع في جيبه، ومع ذلك فقد رأى أنه من الخير الاقتصاد في استهلاك الشموع.

وبدأ التعب يحدث أثره في قواهما، ولكنهما حاولا ألا يلقيا إليه بالًا.. فقد كانا يعلمان أنّ مجرد التفكير في الجلوس في مثل هذه الظروف إذ للوقت قيمة لا تقدر بثمن! أمر خطير للغاية.. فقد كان التقدم في الاتجاه نفسه أو في أي اتجاه آخر تقدمًا، على كل حال كما أنه قد يثمر في أي لحظة، أما الجلوس فمعناه الموت السريع المحقق!

وأخيرًا رفضت ساقا بيكي المنهكتان أنْ تحملاها، فجلست واستراح توم معها، وأخذا يتحدثان عن البيت والأصدقاء الذين تركوهما، والفراش الوثير وجمال الطبيعة والنور، وبكت بيكي فحاول توم أنْ يفكر في وسيلة لتهدئة روعها، ولكنه فشل واشتدت وطأة التعب على الفتاة.. فثقل جفناها فتنفس توم الصعداء، وراح يتأمل وجهها الممتقع، ولكنه لم يلبث أنْ لاحظ وجهها بدأ يشرق فأيقن أنها كانت تعيش في حلم سارٍ، ثم انفرجت شفتاها عن ابتسامة حلوة وكأنما انتقلت عدوى الابتهاج من وجه الفتاة إلى روح توم؛ فسبحت أفكاره في الماضي القريب والذكريات الحالمة. وبينما كان مستغرقًا في

التفكير استيقظت بيكي وهي تضحك ضحكة رقيقة.. ولكن الضحكة لم تلبث أنْ ماتت على شفتيها ثم أفلتت منها صرخة خافتة!

وهتفت الفتاة: أواه.. كيف جرؤت على النوم! ليتني لم أستيقظ قط.. قط! لا.. لا.. لست أقصد ذلك يا توم.. فلا تنظر إليَّ غاضبًا هكذا.. لن أقول ذلك مرة أخرى.

- إني مسرور لأنك نمتِ يا بيكي.. ويبدو أنك استرَحتِ الآن، ولسوف نجد طريقنا إلى الخارج.

- نستطيع أنْ نحاول يا توم.. ولكني رأيتُ بلدًا ساحرًا في الحلم.. وأظن أننا سنذهب إلى هناك.

- ربما.. ربما.. تهللي يا بيكي ودعينا نستمر في المحاولة. ونهضا.. وانطلقا هائمين في يأس وقد أمسك كل منهما بيد الآخر.. وحاولا تقدير الوقت الذي انقضى عليهما في الكهف، ولكن كل ما كانا يعرفانه هو أنّ هذا الوقت ربما كان أسابيع.. مع ذلك كان من الواضح أنّ تقديرهما بعيد الصواب لأنّ الشمعة لم تُستهلَك بعد.. وقبل انقضاء وقت طويل على ذلك لم يَعُد في استطاعتهما أنْ يحدداه بالطبع. قال توم: إنه ينبغي عليهما أنْ يسيرا ويصيغا لقطرات الماء المتساقطة.. إذ يجب أنْ يعثرا على نبع ماء.. وقد عثرا على النبع بعد قليل.. فقال توم: إنّ الوقت حان ليستريحا.. كان كلاهما يشعر بإعياء شديد إلا أنّ بيكي قالت: إنها تعتقد أنّ في استطاعتها أنْ تمضي شوطًا أطول.. وكم كانت دهشتها عظيمة حينما رفض توم ذلك، ولم تستطع أنْ تفهم السر في سلوك توم. وثبت توم الشمعة في الجدار المواجه لهما بقطعة من الطمي اللزج. ومضت فترة لم ينطق أحدهما بكلمة خلالها، ثم تكلمت بيكي فقالت:

- توم.. إنني أشعر بجوع شديد.

فأخرج توم شيئًا من جيبه، وسألها هل تذكرين هذه؟ ولم تتمالك بيكي من الابتسام.. وقالت: نعم.. نعم.. إنها كعكة زفافنا يا توم.

- نعم.. ليتها كانت كبيرة كبرميل.. فإنها كل ما تبقى لنا.

قالت: لقد احتفظت بالكعكة يا توم لنجعلها مصدر أحلامنا مثلما يفعل الكبار بكعكة الزفاف.. ولكنها ستكون...

وأمسكت عن إتمام عبارتها.. أما توم فقد شطر الكعكة إلى جزئين أعطى أحدهما لبيكي فأكلته بشهية.. ولكن الصبي تظاهر بأنه يأكل.. وكان ماء النبع باردًا فرويا عطشهما منه. وبعد قليل اقترحت بيكي أنْ يستأنفا السير فلاذ توم بالصمت قليلًا قال:

- بيكي.. هل تستطيعين احتمال نبأ سأفضي إليكِ به؟

فاصفر لون بيكي.. ولكنها قالت إنها تستطيع ذلك.

- حسنًا بيكي.. ينبغي أنْ نبقى هنا حيث يوجد ماء نرتوي منه، فإنّ قطعة الشمع هذه هي آخر ما لدينا!

وانفجرت الفتاة باكية مولولة.. وبذل توم قَصَارى جهده للتخفيف عنها، ولكن بغير جدوى.. وأخيرًا قالت بيكي:

- توم!

- ماذا دهاكِ يا بيكي؟

- لا شك في أنهم سيفتقدوننا، فيبحثون عنا!

- نعم.. لا شك في أنهم سيفعلون ذلك.

- لعلهم يبحثون عنا الآن يا توم.

- أظن ذلك.. بل آمل أنْ يفعلوا ذلك.

- متى سيفتقدوننا يا توم؟

- أظن أنهم سيفعلون ذلك عندما يعودون إلى الباخرة.

- قد تكون الدنيا ظلامًا وقتذاك.. هل سيلاحظون إننا لم نَعُد؟

- لست أدري، لكن مهما يكُن ستفتقدك أمك بمجرد عودة الجميع إلى منازلهم.

فارتسمت علامات الفزع على وجه الفتاة، فأدرك توم أنه أخطأ.. فقد كان المفروض أنّ بيكي لن تعود إلى المنزل في تلك الليلة، فساد الصمت بين الفتى والفتاة واستغرقا في التفكير.. وبعد لحظة غمرت بيكي موجة جديدة من الحزن.. وجعلت توم يدرك أنّ ما دار بخاطره دار بخاطرها أيضًا. ذلك إنّ أمها لن تفطن إلى أنّ بيكي تقضي ليلتها في منزل مسز هاربر إلا بعد انتهاء صلاة صباح يوم الأحد!

وركز الاثنان عينيهما في الشمعة الصغيرة التي بقيت لهما، وراحا يراقبانها وهي تذوب ببطء وبلا شفقة، ثم رأيا نصف البوصة الأخير من الذُبالَة وهو يتجرد مما حوله من شحم، ثم أخذ اللهب يلمع ويخبو المرة بعد الأخرى.. وأخيرًا ساد الظلام المفزع!

وأخذت بيكي تبكي وهي بين ذراعي توم.. ولم يستطع أحدهما أنْ يعرف كم من الوقت مضى عليهما وهما على هذه الحال.. كل

ما عرفاه هو أنهما -بعد انقضاء فترة اعتقدا أنها دهرًا- استيقظا من إغفاءة قصيرة فاستأنفا تعاستهما مرة أخرى.. قال توم إنه من المحتمل أنْ يكون اليوم يوم الأحد وربما يوم الاثنين، وحاول أنْ يستدرج بيكي إلى الكلام.. ولكن حزنها كان شديدًا بعد أنْ فقدت كل أمل في النجاة. وعاد توم يقول: إنّ أسرتهما لا بُد قد افتقدتاهما منذ وقت طويل، إنّ ليس ثمَّة شك في أنّ البحث عنهما جارٍ على قدم وساق، وإنه إذا صاح.. فسوف يقْبِل مَن ينقذهما وانطلق يصيح، ولكن الظلام وصدى الصوت أفزعاهما أشد الفزع، فاضطرا إلى الكف عن هذه المحاولة.

ومضت الساعات ثقالًا، وبدأ الجوع يقرصهما، وكان توم قد احتفظ بقطعة من نصيبه من الكعكة فاقتسماها وأكلاها، ولكن يبدو أنّ ذلك زادهما جوعًا عن ذي قبل.

وبعد قليل قال توم: صه! هل سمعتِ؟

وحبس الاثنان أنفاسهما وأصاخا السمع.. خيّل إليها أنهما يسمعان صوتًا أشبه بصياح قادم من بعيد، وأجاب توم على الصياح.. وقاد بيكي من يدها ثم راحا يتحسسان طريقهما في الممر في اتجاه الصوت، وأصاخ توم السمع مرة أخرى.. فسمع الصوت ثانية، وكان أقرب قليلًا هذه المرة.

قال توم: إنهم هم! إنهم قادمون! هلمي بنا يا بيكي.. إننا في أمان الآن.

كان فرح السجينين شاملًا، ولكن تقدمهما كان بطيئًا لأنهما كانا يتعثران هنا وهناك، وبعد فترة وجيزة بلغا فجوة اضطرا إلى التعثر عندها، فتوقفا عن السير كان من المحتمل أنْ يكون عمقها ثلاثة أقدام وربما مئة، ولكنها كانت على كل حال عقبة لا يمكن تخطيها.. وانبطح توم على وجهه ومد ذراعيه إلى أبعد ما يستطيع، ولكنه لم يصل إلى قاع الفجوة.. ومِن ثَمَّ أصبح لزامًا عليهما أنْ يبقيا في مكانهما حتى يدركهما الباحثون عنهما. عادا يصيخان السمع، ولكن الصياح البعيد لم يلبث أنْ أصبح أكثر بُعدًا.. وبعد لحظة أو اثنتين تلاشى تمامًا؛ وانفطر قلبا الصغيرين عندما تلاشى الصوت. وانطلق توم يصيح حتى بُحَّ صوته ولكن دُون جدوى. وعندئذ شرع يتحدث إلى بيكي محاولًا إدخال الطمأنينة إلى قلبها.. ولكن محاولته ذهبت أدراج الرياح لأن أصوات القادمين تلاشت تمامًا.

وتحسس الصغيران طريقهما عائدين إلى نبع الماء. وأخذ الوقت يمضي متثاقلًا واستسلما للنعاس، ثم استيقظا وهما يشعران بجوع شديد، وكان توم يعتقد أنّ اليوم لا بُد أنْ يكون يوم الثلاثاء.

وخطرت له فكرة.. كانت هناك دهاليز جانبية قريبة، ومِن ثَمَّ فقد عول على استكشافها بدلًا من الاستسلام لليأس القاتل، وأخرج من جيبه الخيط الذي يربط به طائرته الورقية وعقد طرفيه في نتوء، ثم بدأ وبيكي عملية الاستكشاف. وكان توم يسير في المقدمة.. وسارا عشرين خطوة ثم لم يلبث الصبي أنْ وجد فجوة في الأرض فركع فوق ركبتيه وتحسسها، ثم زحف نحوها ولم يلبث أنْ عثر على فجوة أخرى إلى اليمين، وفي تلك اللحظة رأى يدًا آدمية تحمل شمعة تبرز من خلف الصخرة المواجهة ولم يتملك الصبي نفسه فأطلق صيحة ابتهاج عالية، وفي التو برز صاحب اليد، كان إنجان چو! وجمد توم في مكانه مسمرًا، ولكنه تنفس الصعداء حينما رأى

الإسباني يبادر بالاختفاء في اللحظة التالية.. وعجب توم لأن چو لم يعرف صوته، ولم يبادر إلى قتله بعد أنْ أدلى بشهادته

ضده في المحكمة، ولكنه سرعان ما أيقن أنّ الفراغ الهائل المحيط به جعل لصوته رنة غير عادية، وكان الفزع الذي استولى على توم قد شل حركته تمامًا.. فقال لنفسه؛ إنه لو استطاع أنْ يستجمع قواه لعاد إلى النبع حيث يبقى هناك، ولما استسلم لأي قوة تدفعه إلى المجازفة بمقابلة إنچان چو مرة أخرى.. وحرص الصبي على إخفاء ما رآه عن بيكي وقال لها: إنه صاح ليجلب الحظ.

ولكن الجوع والشقاء تغلبا على المخاوف في آخر الشوط، فقد قضى الصغيران وقتًا طويلًا وهما ينتظران عند النبع، ثم ناما وقتًا طويلًا استردا خلاله بعض قوتهما وعندما استيقظا كان الجوع قد بلغ مبلغه منهما.. وأيقن توم أنّ اليوم إما أنْ يكون يوم الأربعاء إما الخميس، وربما يوم الجمعة أو يوم السبت.. وإنّ من المحقق أنّ أهل القرية قد كفوا تمامًا عن البحث عنهما.. ومِن ثَمَّ عول على استكشاف ممر آخر.. بل لقد شعر بأنه على استعداد للمجازفة بمقابلة إنچان چو شتى ضروب الفزع الأخرى! ولكن بيكي كانت لا تقوى على السير.. وقد سيطرت عليها حالة من الذهول الشديد، فلم يستطع الصبي إقناعها بالسير معه. قالت: إنها تفضل أنْ تظل حيث هي حتى تموت ولن يكون ذلك بعد وقت طويل، وقالت أيضًا للصبي: ألا بأس عليه من أنْ يذهب للاستكشاف مستعينًا بخيط الطائرة، ولكنها توسلت إليه أنْ يعود بين حين وآخر ليتحدث إليها؛ وحملته على أنْ يعدها بأنْ يبقى معها ويمسك بيدها عندما تحين اللحظة الرهيبة، لحظة موتها، وألا يتركها حتى ينتهي كل شيء!

وقبَّلها توم وقد أحس بغصة في حلقه، ولكنه تجلد وصبر وقال لها: إنه واثق من أنه سيعثر على الباحثين عنهم أو يجد مخرجًا من الكهف، ثم التقط خيط الطائرة وزحف في الممرات فوق ركبتيه ويديه، متأثرًا بالجوع الشديد.. وقد أرهقه التفكير في الموت المرتقب!

***

الفصل الثاني والثلاثون

هلموا لقد وجدا

أقبل مساء يوم الثلاثاء، ولكنه لم يلبث أنْ تراجع أمام الغسق وكانت قرية «سانت بطرسبرج» لا تزال حزينة لأن الصغيرين المفقودين لم يُعثَر لهما على أثر. وأُقيمت أصوات العامة من أجلهما، كما راح عشرات الناس من سكان القرية يبتهلون إلى الله أنْ ينقذهما، مع ذلك فإنَّ نبأ واحدًا طيبًا لم يأتِ من الكهف الرهيب. وكان السواد الأعظم من الباحثين قد تخلى عن البحث وعاد إلى أعماله اليومية قائلًا: إنه أصبح من الواضح استحالة العثور على الصغيرين. وكانت مسز تاتشر قد سقطت فريسة للمرض وانخرطت في الهذيان، ولقد قال الناس إنه مما يفطر القلوب حزنًا أنْ يروا هذه السيدة التعسة وهي تنادي طفلتها، ثم ترفع رأسها وتصيخ السمع دقيقة كاملة.. وبعدئذ تتهالك في إعياء فوق الوسادة وهي تتأوه. أما العمة بولي فقد استولت عليها حالة من الحزن العميق الصامت.. وتحول شعرها كله إلى المشيب!

وأوى سكان القرية إلى فراشهم في ليلة الثلاثاء وهم أشد ما يكونون حزنًا، وعند منتصف الليل.. أُصِيبَت أجراس القرية بالجنون فجأة، فراحت تقرع بشدة، وفي لحظات كانت الشوارع تغص بالناس.. وقد ارتدوا نصف ملابسهم، بينما كان بعض الأشخاص يصيحون هلموا.. هلموا.. لقد وجدا! لقد وجدا! واستخدمت الأطباق النحاسية والأبواق لزيادة الجلبة، وتجمع السكان وأخذوا يتقدمون نحو النهر، وفجأة رأوا الصغيرين قادمين في عربة مكشوفة يجرها المواطنون وهم يصيحون صيحات الفرح والابتهاج في طريقهم إلى منزل القاضي.

وأضيئت الأنوار في كل مكان بالقرية.. ولم يأو أحد إلى فراشه في تلك الليلة.. فقد كانت أعظم ليلة شهدتها القرية الصغيرة. وفي خلال نصف الساعة الأولى، تألف موكب كبير من أهل القرية، قصد منزل القاضي تاتشر حيث انهال الناس بالقُبل على الصغيرين العائدين كما قدموا التهنئة الصادقة إلى مسز تاتشر، وكانوا يشدون على يدها بحرارة.. ويحاولون الكلام فيرتج عليهم، وتنهمر الدموع من عيونهم.

واكتملت سعادة العمة بولي ومسز تاتشر ولم يبقَ إلا أنْ يبلغ النبأ لمستر تاتشر في الكهف. وكان توم ممددًا فوق إحدى الأرائك في تلك الأثناء ومن حوله عشرات الأشخاص يصغون إليه باهتمام.. وهو يصف لهم تفاصيل المغامرة المثيرة، وكان الصبي يضيف إلى القصة بعض الرتوش! وأنهى كلماته بوصف المرحلة النهائية للمغامرة حين ترك بيكي، وقام برحلته الاستكشافية، وكيف أنه سار في ممرين من الممرات حتى نهاية حبل الطائرة، وكيف سار في دهليز ثالث حتى نهاية طرف الحبل الآخر.. وكاد يهم بالعودة حيث أتى، حينما لاحظ نقطة بيضاء بعيدة وكانت تبدو كضوء النهار، ومِن ثَمَّ ألقى بالحبل، وراح يتحسس طريقه نحو هذه النقطة، فعثر على فجوة.. أدخل رأسه وكتفيه فيها.. وعندئذ رأى أمامه نهر المسيسبي!

ومضى توم في حديثه قائلًا: إنه ما كان ليستطيع أنْ يرى هذه الفجوة.. ولما مضى في الدهليز إلى أبعد من النقطة التي انتهى عندها حبل الطائرة.. لو أنّ الوقت كان ليلًا حينذاك! وأنه على أثر وقوعه على هذا الكشف كر عائدًا إلى حيث ترك بيكي، وأفضى إليها بالنبأ العظيم، فلم تصدقه في بادئ الأمر، وقالت له «إنها متعبة ومِن ثَمَّ يجدر به ألا يعذبها بمثل هذه الخيالات الخرقاء»، ولكنه راح يقنعها بصدق قوله. وما إنْ تحققت من وجود الفجوة حتى كادت تطير من شدة الفرح. ثم وصف الصبي كيف استطاع أنْ ينفذ من خلال الفجوة بصعوبة، وكيف أنه عاون بيكي على الخروج منها، وكيف أنهما جلسا خارج الكهف وانفجرا يبكيان من فرط الفرح، ثم رأيا رجالًا قادمين في قارب.. فناداهم توم وشرح لهما موقفهما، وكيف أنهما يوشكان على الموت جوعًا، فلم يصدقوا قصته المثيرة في بادئ الأمر قائلين له «إنها قصة خرافية لأنكما على مبعدة خمسة أميال من فتحة الكهف»، لكنهم أخذوهما معهم، وقدموا لهما طعام العشاء، ونقلوهما إلى منزل أحدهم ليستريحا.. وبعد أنْ قضيا أكثر من ست ساعاتٍ وهما نائمان جاء بهما الرجال إلى المدينة.

وقبل طلوع الفجر أمكن الاتصال بالقاضي تاتشر، والجماعة التي كانت تعاونه في البحث بداخل الكهف وزف إليهم النبأ العظيم.

لم يكُن من السهل التخلص من آثار الجهد العصبي والجوع التي خلفتها ثلاثة أيام وليال في الصغيرين، وقد اكتشف توم وبيكي ذلك.. فلزما الفراش طوال يومي الأربعاء والخميس، وكان يخيّل لهما كلما مر الوقت أنهما يزدادان إعياء، ولكن توم استطاع أنْ يسترد بعض قواه في يوم الخميس، وغادر المنزل يوم الجمعة، وفي يوم السبت استرد الصبي جميع قواه، أما بيكي فإنها لم تغادر غرفتها إلا يوم الأحد، ولكنها كانت تبدو هزيلة شاحبة الوجه.

وسمع توم بمرض هاك، فذهب لزيارته يوم الجمعة، ولكنهم لم يسمحوا له بمقابلته لا في ذلك اليوم، ولا في يومي السبت والأحد، غير أنهم سمحوا له بعد ذلك بمقابلته يوميًا بعد أنْ حذروه من الإشارة إلى مغامرته أو الإفضاء إليه بأي ملاحظة مثيرة. وكانت الأرملة دوجلاس تحرص على حضور هذه المقابلات لتستوثق من استجابة توم لهذا الرجاء، ولقد سمع توم بالحادث الذي وقع في كارديف هيل، كما سمع أنّ جثة شريك إنچان چو عثر عليها في النهر بالقرب من مرسى العائمة! وأنّ الرأي السائد هو أنّ الرجل غرق وهو يحاول الهرب.

وبعد انقضاء أسبوعين تقريبًا على نجاة توم من الكهف، ذهب الصبي لزيارة هاك، وكان هذا قد استرد كثيرًا من قواه في تلك الأثناء، وأصبح في استطاعته أنْ يتحمل كل المؤثرات المثيرة، وكانت لدى توم بعض أنباء مثيرة فعلًا يريد الإفضاء بها لهاك، وفي الطريق إلى منزل الأرملة دوجلاس.. عرج توم على منزل القاضي تاتشر لرؤية بيكي.. ومرة أخرى طلب القاضي تاتشر وبعض أصدقائه إلى الصبي أنْ يحدثهم عن مغامرته في الكهف، ثم سأله أحدهم بسخرية إنْ كان يرغب في العودة إلى الكهف.. فقال توم إنه يعتقد أنّ ذلك لم يَعُد يخيفه، وعندئذ قال القاضي:

- أعتقد أنّ هناك من يشاطرونك هذه الرغبة يا توم، ولكننا لن نمكنهم من ذلك، فمنذ اليوم لن يضل أحد طريقه في الكهف. فسأل توم لماذا؟

- لقد وضعنا بابًا سميكًا مقوى بأحزمة من الحديد في فتحة الكهف، ولهذا الباب ثلاثة أقفال ضخمة مفاتيحها كلها معي.

فاصفر لون توم، وعندئذ صاح القاضي:

- ماذا دهاك يا فتى؟ هيا أسرعوا فليحضر أحدكم كوبًا من الماء.

وجيء بالماء وسكب على وجه توم، ثم قال القاضي:

- إنك الآن أحسن حالًا يا توم.. لكن أخبرني ماذا دهاك؟

- أواه يا سيدي القاضي.. إنّ إنچان چو موجود في الكهف!

***

الفصل الثالث والثلاثون

نهاية إنچان چو

بعد خمس عشرة دقيقة، كان النبأ قد ذاع وانتشر فخرج أكثر من اثني عشر قاربًا محملًا بالرجال في طريقهم إلى كهف «ماكدوجال»، كما أبحرت العائمة بعد قليل، وقد ازدحمت بالركاب وكان توم في القارب الذي ركبه القاضي تاتشر.

وعندما فتح الباب الكهف وقع بصر الجميع على منظر مؤلم كان إنچان ممددًا فوق الأرض وقد فارقته الحياة، ووجهه ملاصق لشق رفيع بين الباب وعتبة الكهف كأنما كانت عيناه مركزتين إلى آخر لحظة في ضوء العالم الرحب وبهجته خارج الكهف! وتأثر توم كثيرًا لأنه أدرك من تجاربه المؤلمة مدى ما عاناه هذا التعس من آلام وعذاب، ولكنه لم يلبث أنْ نفض عنه هذا الأسف، وشعر براحة كبيرة عندما تبين له أنّ الحظر الداهم، والذي كان يحلق فوق رأسه منذ أدلى بشهادته ضد هذا الشرير، قد ذهب إلى غير رجعة.

كانت سكين إنچان چو ملقاه على مقربة منه، وقد تحطم نصلها إلى جزئين ولاحظ الجميع أنّ عارضة الباب الكبرى قد تشققت، خُدِشَت نتيجة جهد كثير بُذِلَ ولكنه جهدًا ضائعًا، لأن الصخرة التي كانت تلاصق طرف الباب الأسفل كانت تعترض نصل السكين، ومِن ثَمَّ لم يستطع النصل أنْ يؤثر فيها.. فتحطم في النهاية. وبفرض أنّ هذه الصخرة لم تكُن موجودة فقد كان من المستحيل تحطيم العارضة لأنها مصنوعة من خشب صلب سميك، ولا يمكن إحداث ثغرة كافية أسفل الباب يستطيع إنچان چو الخروج منها، ولا شك في أنّ الرجل كان يعلم ذلك، ومِن ثَمَّ فقد بذل هذا الجهد لكي يشغل وقته الضائع، ويصرف ذهنه عن التفكير في نهايته المؤلمة. وكان أولئك الذين زاروا الكهف قد رأوا من قبل عدة أجزاء من شموع مثبتة بالجدران تركها السائحون هناك على سبيل الذكرى.. لكن هذه القطع لم يَعُد لها أثر الآن.. فأدرك القاضي ومَن معه أنّ السجين اضطر إلى انتزاعها وأكلها، كما استطاع أنْ يقتنص عددًا من الخفافيش وأكلها أيضًا.. ولم يترك سوى مخالبها، ولكن الرجل التعس لقيَ حتفه جوعًا آخر الأمر، وفي مكان قريب كانت الصخور المرمرية تتكون ببطء فوق أرض الكهف خلال العصور الطويلة نتيجة لتساقط قطرات الماء من صخور الكهف الهشة المحطمة، وكان واضحًا أنّ چو حاول جمع قطرات الماء التي كانت تسقط من السقف بمعدل قطرة واحدة كل ثلاث دقائق بنظام دقيق كدقات الساعة وكانت كمية الماء التي تتجمع من هذه القطرات تعادل ملعقة متوسطة كل أربع وعشرين ساعة، لقد كانت هذه القطرات تتساقط منذ أجيال بل لعلها كانت تتساقط منذ عصر بناء الأهرام، أو منذ حروب طروادة، أو منذ شُيِّدَت روما، أو منذ صلب المسيح، أو منذ غزا النورمانديون الإمبراطورية البريطانية، أو منذ أبحر كولومبس إلى أمريكا، وهي ما زالت تتساقط إلى اليوم وستظل تتساقط إلى أنْ ينتهي هذا العالم، ترى هل لكل شيء غاية ورسالة؟ هل ظلت هذه القطرات تتساقط بصبر خلال خمسة آلاف عام لتكون على استعداد لإرضاء الحاجة الطارئة لهذه الحشرة البشرية؟ وهل لها غاية أخرى مُهمة ستحققها بعد عشرة آلاف سنة، مهما يكُن لقد مضت سنوات عديدة منذ لقيَ إنچان چو مصرعه في الكهف، ولكن الكأس الصناعية التي أعدها ليجمع فيها قطرات الماء ما زالت موجودة حتى اليوم، ويراها السائحون الذين يفدون على كهف «ماكدوجال»، ويعتبرونها من أعاجيب الكهف التي لا يباريها شيء حتى ولا قصر علاء الدين!

ودُفِن إنچان چو على مقربة من باب الكهف، وجاء كثيرون من المدن القريبة، ومن جميع المزارع الواقعة في دائرة نصف قطرها سبعة أميال لحضور جنازة إنچان چو، جاءوا بالقوارب والعربات، وقد أحضروا أطفالهم وطعامهم معهم خصيصًا لهذه المناسبة. واعترفوا بأنهم قضوا وقتًا طيبًا في الجنازة، لا يقل متعة عمَّا كانوا سيقضونه لو أنّ هذا الشرير أُعدَم شنقًا.

ولقد أفسدت هذه الجنازة إجراء كان بعض الناس يستعدون له، هو عريضة تقدم للمحافظة للعفو عن إنچان چو، وكان كثيرون قد وقعوا على هذه العريضة، كما عقدت عدة اجتماعات لهذا الغرض، وشكلت لجنة من السيدات الساذجات يرتدين السواد ويذهبن إلى المحافظ مولولات ويناشدنه أنْ يكون رحيمًا يطأ واجبه بقدميه، كان المعتقد أنّ إنچان چو قتل خمسة مواطنين من سكان القرية، لكن ماذا في ذلك؟ لو أنه كان الشيطان بلحمه ودمه، لوجد كثيرين من المستضعفين على استعداد لأن يوقعوا بأسمائهم على عريضة العفو.

وفي صباح اليوم التالي للجنازة انفرد بهاك في مكان منعزل وتحدث معه حديثًا مُهمًّا، كان هاك قد عرف كل شيء عن مغامرة توم من الكهل الأسكتلندي، والأرملة دوجلاس، ولكن توم قال له إنّ هناك شيئًا يعتقد أنهما لم يحدثاه عنه، وإنّ هذا الشيء هو ما يريد أنْ يحدثه عنه الآن فبدأ الحزن على وجه هاك وقال:

- إنني أعرف ما هو لقد استطعت دخول رقم ٢، ولكنك لم تجد شيئًا غير زجاجات الخمر، إنّ أحدًا لم يَقُل لي إنك أنت

الذي اقتحمت الغرفة، ولكني أيقنت أنّ ذلك كان من صنع يديك بمجرد أنْ سمعت نبأ العثور على الخمر، وقد أيقنت أنك لم تحصل على الكنز.. وإلا اتصلت بي بطريقة أو أخرى وأبلغتني ذلك مَهما التزمت الكتمان مع الآخرين.. أصدقك القول يا توم إنّ هاتفًا ما كان يحدثني دائمًا بأننا لن نفوز بهذا الكنز.

ولكني لم أذكر شيئًا على الإطلاق عن ذلك الفندق، إنك تعرف أنّ الفندق كان في خير حال عندما حاولنا اقتحامه يوم السبت، ألا تذكر أنه كان عليك أنْ تقوم بمراقبته في أثناء الليل؟

- أوه! نعم.. ولو أنه يخيّل لي أنّ عامًا قد انقضى منذ تلك الليلة لقد تبعت إنجان چو إلى منزل الأرملة في تلك الليلة بالذات!

- تبعته!

- نعم.. ولكن يجب ألا تذكر ذلك لأحد.. فإنني أعتقد أنّ إنچان چو خلف أصدقاء وراءه، ولست أريد أنْ ينقموا عليَّ ويحاولوا الثأر مني، فلولاي لكان إنچان چو في تكساس الآن!

ومضى هاك يسرد تفاصيل مغامرته لتوم الذي كان قد سمع جزءًا منها من الكهل الأسكتلندي، وأخيرًا عاد هاك إلى الموضوع الأساسي وقال:

- مَهما يكُن أمر الشخص الذي أفشى سر وجود الخمر في رقم ٢، فلا بُد أنْ يكون هذا الشخص هو الذي اغتصب الكنز لنفسه، ومعنى ذلك إننا فقدناه إلى الأبد يا توم!

- هاك إنّ هذا الكنز لم يكُن في رقم٢ في يوم من الأيام، فحدق هاك بقوة في وجه صديقه وصاح:

- ماذا تقول؟ هل استطعت أنْ تعثر على أثر لهذا الكنز مرة ثانية يا توم؟

- هاك إنّ الكنز في الكهف!

- فتألقت عينا هاك.. وهتف: قُل ذلك مرة أخرى يا توم.

- إنّ الكنز موجود في الكهف؟

- إنه لأمر عجيب.. هل تهزل أم تجد؟

- بل أجد يا هاك.. إنني جاد الآن أكثر من أي يوم مضى، هل تذهب معي إلى الكهف وتساعدني في إخراج الكنز منه؟

- لا شك إنني على استعداد لأن أفعل ذلك.. بل سأفعل ذلك إذا استطعنا أنْ نجد طريقنا بداخل الكهف دُون أنْ نضل الطريق.

- إنّ في استطاعتنا أنْ نفعل ذلك يا هاك بغير أنْ نضل الطريق.

- هذا بديع.. لكن ما الذي يجعلك تظن أنّ الكنز...

- تريث يا هاك حتى ندخل الكهف.. فإذا لم نعثر على الكنز هناك فإني أعدك بأنْ أعطيك طبلتي وكل ما أملك في هذا العالم.. سأفعل ذلك بحق السماء.

- هذا حسن.. ومتى سنذهب؟

- الآن، فهل أنت على قدر من القوة يسمح لك بذلك؟

- هل الكنز في مكان سحيق داخل الكهف؟ لقد كنت غير قادر على الحركة منذ ثلاثة أو أربعة أيام، ولكني أستطيع الآن أنْ أمشي أكثر من ميل على الأقل هذا ما أعتقد يا توم.

- إنّ المسافة خمسة أميال بالنسبة لجميع الناس إلّاي.... فإنّ هناك طريقًا مختصرًا جدًّا، لا يعلم أحد غيري شيئًا عنه. وسأذهب بك إليه في قارب سأجيء بالقارب إلى هنا، ثم أعيده إلى مكانه وحدي دون أنْ أكلفك أي جهد.

- إذن فلنذهب الآن يا توم.

- تريث قليلًا يا هاك.. إننا بحاجة إلى شيء من الخبز واللحم، وغليون وحقيبة أو اثنتين صغيرين، وخيطين أو ثلاثة خيوط من خيوط الطائرات، وكمية من أعواد الثقاب الجديدة، التي يطلقون عليها اسم ثقاب لوسيفر، والتي تمنيت

كثيرًا لو أنني أملك كمية منها عندما كنت سجينًا في الكهف.

وبعد الظهر بقليل، استعار الصبيان قاربًا صغيرًا من مواطن كان غائبًا! وانطلقا بلا تأخير، وعندما أصبحا على مبعدة بضعة أميالٍ من تجويف الكهف.. قال توم:

- إنّ هذا النتوء يبدو متجانسًا من كل مكان، فهو مغطى بالأعشاب المتماثلة، لا منازل أو مستودعات للخشب به، ولكن هل ترى ذلك المكان الأبيض البعيد حيث حدث انزلاق أرضي؟ حسنًا.. إنه إحدى العلامات التي أسترشد بها سنهبط إلى البر الآن.

وهبطا من القارب ويمما وجهيهما شطر الكهف.

قال توم: إنك تستطيع أنْ ترى من هنا الفجوة التي خرجت منها يا هاك.. فحاول أنْ تعثر عليها.

وفحص هاك المنطقة التي حوله، ولكنه لم يعثر على شيء.. وفي التو سار توم بخيلاء وسط دغل من الأعشاب الطويلة الكثيفة وقال:

- ها هي! انظر إليها يا هاك.. إنها أعظم فجوة في البلاد كلها فلا تَقُل شيئًا عنها لأحد. فمنذ أمد طويل وأنا أتمنى أنْ أصبح لصًا، ولكني كنت أعلم أنه يجب أنْ يتوفر لي مخبأ كهذا يضل فيه من يفكر في مطاردتي. حسنًا.. لقد توفر لي المخبأ الآن.. فعلينا أنْ نحرص على إبقاء أمره طي الكتمان.. فلن يعرف أحد غير «بن روجرز» و«چو هاربر» شيئًا عنه.. وذلك لأنهما سيكونان عضوين في العصابة، سيكون اسمها «عصابة توم سوير» أليس وقع هذا الاسم جميلًا على الآذن يا هاك؟

- نعم يا توم.. ولكن مَن الذي سنسرقه؟

- أوه.. أي شخص، ستكون معظم حوادثنا قطع الطريق على الناس.

- وهل سنقتلهم؟

- لا.. ليس دائمًا سنخفيهم في الكهف حتى يدفعوا فدية.

- وما هي الفدية؟

- مال.. إنك بذلك ترغمهم على دفع أقصى ما يستطيعون دفعه من المال، وفي الغالب يدفع أصدقاؤهم الفدية المطلوبة، فإذا لم يدفعوا الفدية بعد أنْ تستبقيهم عامًا فإنك تقتلهم، فتلك هي الطريقة المتبعة. ولكنك لا تقتل النساء وإنما تأسرهن لأنهن جميلات وثريات دائمًا، كما أنهن يكن شديدات الفزع، إنك تستولى على ساعاتهن وما معهن، ولكنك تخلع قبعتك لهن وتخاطبهن بأدب.. إنك لن تجد أشخاصًا أكثر أدبًا من اللصوص. وفي وسعك أنْ تقرأ ذلك في أي كتاب، ثم إنّ النساء لا يلبثن أنْ يحببنك، وبعد أنْ يقضين أسبوعًا أو أسبوعين في الكهف يتوقفن عن البكاء، بعدها لن تستطيع أنْ ترغمهن على الرحيل، أما إذا أجبرتهن على ذلك.. فإنهن لا يلبثن أنْ يعدن إليك! هكذا قالت جميع الكتب.

- يا إلهي! أعتقد أنه من الأفضل أنْ أكون لصًا.

- نعم.. إنّ ذلك أفضل من بعض الوجوه، لأنه يجعلك قريبًا من الوطن والسيرك وكل ما يشبه ذلك.

وفي هذه الأثناء كان كل شيء قد أُعِدَّ، ودخل الصبيان من الفجوة، وكان توم في المقدمة، ثم راحا يشقان طريقهما إلى الجانب البعيد من النفق، وبعدئذ ربطا طرف أحد الخيوط الطائرة في نتوء، واستمرا في السير وبعد أنْ تقدما عدة خطوات.. وصلا إلى النبع، فاقشعر جسم توم.. وأشار لهاك موجهًا نظره إلى بقية ذبالة الشمعة التي ذابت وانطفأت في أثناء وجوده وبيكي سجينين في الكهف؛ ووصف له كيف أنه و»بيكي» ظلا يراقبان اللهب هو يتراقص قبل أنْ ينطفئ، وقد ركبهما فزع عظيم. وبدأ الصبيان يتحدثان بصوت هامس، فقد أحدث سكون المكان وظلمته أثرهما في نفسيهما ومضيا في السير، ثم لم يلبثا أنْ دخلا الممر الثاني، وظلا يسيران فيه حتى وصلا إلى الصخرة العالية.. وهناك تبين للصبيين -على ضوء الشمعتين- أنّ الصخرة لم تكُن شديدة الانحدار، فقد كانت عبارة عن تل منحدر يبلغ ارتفاعه عشرين أو ثلاثين قدمًا فحسب.

وهمس توم: والآن سأريك شيئًا يا هاك.

ورفع شمعته عاليًا وأردف:

- انظر إلى أبعد ما تستطيع حول الركن.. هل فعلت؟ هناك.. على الصخرة الضخمة حيث يوجد أثر دخان الشمع.

- يا إلهي! أرى صليبًا يا توم!

- أين يوجد رقم ٢؟ تحت الصليب.. أليس كذلك؟ هناك رأيت إنچان چو يرفع شمعته يا هاك!

فحملق هاك في العلامة الغامضة، ثم قال بصوت مرتعش:

- توم.. هلم بنا نهرب من هذا المكان!

- ماذا؟ ونترك الكنز؟

- نعم نتركه.. إنّ شبح إنچان چو موجود هنا بكل تأكيد!

- كلا يا هاك.. كلا، إنه ليس موجودًا هنا.. إنه يوجد حيث مات «چو» -هناك عند مدخل الكهف- أي على بعد خمسة أميال من هنا.

- كلا يا توم.. إنه ليس هناك.. إنه يتسكع حول الكنز، إنني أعرف ألاعيب الأشباح وأنت أيضًا تعرفها!

وبدأ توم يخشى أنْ يكون هاك على حق. وتجمعت الظنون والأوهام في عقله، ولكن سرعان ما طرأت على باله فكرة فقال:

- يا لنا من غبيين يا هاك.. إنّ شبح إنچان چو لا يمكن أنْ يحوم حول مكان فيه صليب! وكانت حجة قوية أحدثت أثرها.

قال هاك: إنني لم أفكر في ذلك يا توم.. إنّ ذلك من حسن حظنا.. أعتقد أنه يجب علينا أنْ نهبط من فوق هذا التل، ونبحث عن الصندوق المنشود.

وهبط توم أولًا وهو يغرس قدميه بعنف في الطَفَل ليحفر فيه ما يشبه درجات السلم.. وتبعه هاك، ورأى الاثنان أربعة ممرات تطل على كهف صغير تتوسطه الصخرة الهائلة، وفحص الصبيان ثلاثة من هذه الممرات دُون أنْ يصلا إلى غايتهما. وأخيرًا.. عثرا على فجوة صغيرة في أقرب ممر إلى قاعدة الصخرة، به ثلاثة ألواح خشبية نُظِّمت على هيئة سرير فوقه عدد من البطاطين، كما عثرا على مشجب وبعض الأطعمة، وعظام دجاجتين أو ثلاثة مجردة من كل أثر للحم، ولكنهما لم يجدا أثرًا للصندوق الذي يضم الكنز الثمين!

- تقول يا توم إنّ الكنز مخبوء تحت الصليب.. هذا المكان يكاد يكون أسفل الصليب.. ولا شك أنه من المستحيل أنْ يكون الصندوق تحت الصخرة نفسها، لأن الصخرة مستقرة تمامًا على الأرض، ولا يتسنى لأحد أنْ يزحزحها من مكانها!

واستأنفا بحثهما في كل مكان، حتى إذا ما انتابهما الإعياء جلسا فوق الأرض ساخطين وبعد فترة من الصمت.. قال توم:

- أصغ إليَّ يا هاك.. إنني أرى آثار أقدام وشمع على الطَفَل عند أحد جوانب هذه الصخرة، ولكني لا أرى أي آثار منها على الجوانب الأخرى.. فما معنى ذلك؟ أؤكد لك أنّ الكنز تحت الصخرة.. ولهذا سأحفر في الطَفَل.

فقال هاك بانتعاش: إنها ليست فكرة خرقاء يا توم!

وفي التو أخرج توم المدية التي أهدتها ماري له، وما كاد يحفر أربع بوصات حتى اصطدمت المدية بخشب.

فهتف أصغ يا هاك.. هل سمعت؟

وبدأ هاك يحفر وينبش، وسرعان ما عثرا على بعض الألواح الخشبية فأزالاها من مكانها وكانت هذه الألواح تخفي خندقًا طبيعيًّا يمر من أسفل الصخرة، ونزل توم في الخندق، وأدخل شمعته تحت الصخرة بقدر ما استطاع، ولكنه قال: إنه لا يستطيع أنْ يرى نهاية الخندق.. ثم أعلن أنه يعتزم الاستكشاف.

ثم انحنى إلى الأمام وزحف تحت الصخرة في طريق ضيق قليل الانحدار ينعطف يمينًا ثم يسارًا.

وكان هاك يسير في إثره، وبعد قليل انثنيا في الطريق ولم يلبث توم أنْ صاح

- يا إلهي.. انظر يا هاك!

كان صندوق الكنز موضوعًا بداخل فجوة صغيرة بجوار مجموعة من رصاص المسدسات.. وفوقه بندقيتان بداخل كيسين من الجلد وحزام جلدي، وبعض التفاهات المبللة بالماء!

وقال هاك وهو يفحص بأصابعه قطع النقود:

- وأخيرًا عثرنا على الكنز.. يا إلهي! لقد أصبحنا من الأثرياء يا توم!

- طالما جال بذهني أننا سنعثر عليه يا هاك، ولكني لا أكاد أصدق عيني الآن! مهما يكُن لقد أصبح الكنز ملكًا لنا بكل تأكيد. والآن يجب ألا نتلكأ هنا.. فلنمضِ بالصندوق.. دعني أجرب إنْ كان في استطاعتي أنْ أرفعه!

كان وزن الصندوق تقريبًا خمسين رطلًا، ولقد استطاع توم رفعه بصعوبة.. ولكنه لم يستطع حمله بسهولة.

قال هذا ما جال بخاطري.. فقد كان يبدو ثقيلًا عندما حمله الرجلان في ذلك اليوم ونحن مختبئان في المنزل المهجور.. لقد لاحظت ذلك ولهذا فإنني كنت على صواب عندما قررت إحضار الحقيبتين الصغيرتين معنا.

وسرعان ما أفرغا النقود في الحقيبتين، وحملاهما!

قال هاك، بعد أنْ خرجا من الخندق: دعنا نحضر البندقيتين والأشياء الأخرى التي عثرنا عليها.

- كلا يا هاك.. دعها هناك فستكون أدواتنا السرية عندما نصبح لصوصًا، سنبقيها حيث هي طوال الوقت، كما سنحتفظ هنا بخمور أيضًا إنه مكان جميل للعربدة.

- ما هي العربدة؟

- لا أعلم.. ولكن اللصوص يعربدون دائمًا.. وهم على حق فيما أظن. هلم بنا يا هاك فقد قضينا هنا وقتًا طويلًا، وقد تأخر الوقت فيما أظن، ثم إنني جائع سنطعم وندخن في القارب.

وبعد قليل كانا يخرجان من فتحة الكهف السرية.. وتلفتا حولهما بتحفز، ولما اطمأنا إلى أنه لا يوجد ثمَّة مخلوق في المنطقة كلها؛ انطلقا إلى القارب فركباه، ثم تناولا الغداء وراحا يدخنان.. وبينما كانت الشمس تنحدر نحو الأفق أطلق الصبيان القارب فوصلا إلى غايتهما بعد أنْ أظلمت الدنيا بفترة قصيرة.. وكانا يثرثران بمرح.

قال توم سنخبئ هذه النقود في الحلق العلوي لنافذة حظيرة الأرملة، وسنعود في صباح الغد لنعدّ النقود ونقتسمها، وبعدئذ نبحث عن مكان آمن في الغابة ندفن فيه هذه الثروة.. فعليك أنْ تبقى هنا وتراقب النقود ريثما أذهب بعربة صديقنا الفلاح «بني تايلور» الصغيرة، لن أغيب أكثر من دقيقة.

ولم تطل غيبته.. إذ سرعان ما عاد وهو يجر العربة الصغيرة، ووضع الحقيبتين فوقها، وغطاهما ببعض الخرق القديمة، ثم بدأ السير وهو يجر العربة خلفه، وعندما وصل الصبيان إلى منزل الكهل الأسكتلندي توقفا ليستريحا.. وبينما كان يستعدان لاستئناف سيرهما برز الكهل من المنزل وهتف:

- هاللو.. مَن هناك؟

- هاك وتوم سوير!

- حسنًا.. هيا معي يا صبيان فقد أطلتما انتظار الجميع.. هيا أسرعا.. بل أركضا وسألحق بكما ومعي العربة، ولكن يا إلهي.. إنها ليست خفيفة كما ظننت هل أثقلتماها بالأحجار؟ أم بالمعادن القديمة؟

فقال توم: بالمعادن القديمة.

- هذا ما ظننته، إنّ صبيان هذا البلد يبذلون جهدًا كبيرًا، وينفقون وقتًا طويلًا في البحث عن ست قطع قديمة من المعدن يبيعونها للمسبك، ليحصلوا على قدر من المال لا يكاد يبلغ نصف ما عساهم يستطيعون الحصول عليه، لو أنهم أنفقوا ذلك الوقت كله في عمل منتظم، ولكن هذه هي الطبيعة البشرية. هيا.. أسرعا.

واستفسر الصبيان عن سر هذه العجلة، فقال الكهل:

- دعونا من ذلك الآن، فستعرفان كل شيء عندما تذهبان إلى قصر الأرملة دوجلاس!

وساورت الريبة هاك، فقد كان يخشى أنْ تكون الأرملة قد ظنت بهما سوءًا.. قال:

- مستر چونز.. أعتقد أننا لم نفعل ما يستحق المؤاخذة؟

فضحك الكهل وقال:

- لست أدري يا بني.. لست أدري شيئًا عن ذلك.. ألست والأرملة صديقين حميمين؟

- نعم.. لقد كانت صديقة رحيمة بي على كل حال.

- إذن ما الذي يجعلك تخشاها؟

ولم يستطع عقل هاك بطيء التفكير أنْ يجيب على هذا السؤال بسرعة.. وفي تلك الأثناء كان الكهل يدفعه وتوم إلى غرفة الجلوس بقصر مسز دوجلاس.. وترك مستر چونز المركبة عند الباب، ثم لحق بالصبيين.

كانت الغرفة ساطعة الضوء، وكانت مكتظة بكل شخص له حيثية في القرية، فقد كان من بين الحاضرين الزوجان تاتشر، والزوجان هاربر، والزوجان روجرز، والعمة بولي، وسيدني، وماري، والواعظ، ومحرر الصحيفة المحلية، وعدد آخر كبير.. وجميعهم يرتدون أفخر ما لديهم من ثياب، وقد استقبلت الأرملة الصبيين استقبالًا حارًا رغم أنهما كانا ملطخين بدهن الشمع والطَفل. وما كاد بصر العمة بولي يقع على توم حتى احمر وجهها من الخجل.. وقطبت حاجبيها وهزت رأسها بضيق. فأحسّ الصبيان بالارتباك الشديد.

قال مستر چونز: إنني لم أدع توم يذهب إلى المنزل، فقد صادفته وهاك عند باب منزلي فأحضرتهما على عجل.

فقالت الأرملة: لقد أصبت حينما فعلت ذلك، هيا معي أيها الصبيان، وأخذتهما إلى غرفة النوم وقالت:

- هلما اغتسلا واستبدلا ثيابكما.. إليكما بذلتان جديدتان، وقميصان وجوربان، إنهما لهاك، كلا.. لا أريد شكرًا يا فتى، لقد اشترى مستر چونز إحداهما واشتريت أنا الأخرى.. ولكنهما مناسبتان لكما.. هيا ارتدياهما..أما نحن فسننتظركما، فعليكما بالانضمام إلينا حينما تنتهيان من ارتداء ثيابكما.

***

الفصل الرابع والثلاثون

قال هاك: أصغ إليَّ يا توم.. إنّ في استطاعتنا أنْ نهرب من النافذة إذا عثرنا على حبل.. لأن النافذة ليست مرتفعة عن الأرض.

- هذا سخف.. لماذا تريد الهرب؟

- لست معتادًا على مثل هذه المجتمعات، وليس في استطاعتي أنْ أطيقها، لذلك فلن أذهب معك إلى غرفة الجلوس يا توم.

- كفى هذيانًا.. ليس في ذلك ما يخيف.. إنني لا أبالي وسأعني بك.

وظهر سيدني على باب الغرفة في تلك اللحظة.

قال: لقد ظلت عمتي تنتظرك طوال بعد الظهر يا توم.. وأعدت ماري ثياب المساء، وكان الجميع يشعرون بالقلق من أجلك. أخبرني أليست هذه البقع التي تلوث ثيابك بقع دهن وطَفَل؟

- لا شأن لك بذلك يا مستر سيدني! وعلى كل حال لماذا كل هذه الجلبة؟

- إنها حفلة من الحفلات التي اعتادت الأرملة إقامتها.. وقد أقامتها هذه المرة تكريمًا للكهل الأسكتلندي وولديه بمناسبة ما أبدياه من شجاعة في تلك الليلة.. وبهذه المناسبة، إنّ في استطاعتي أنْ أفضي إليك بنبأ مُهم.. إنْ كان يهمك أنْ تعرفه.

- حسنًا.. ما هو؟

- إنّ مستر چونز يحتفظ بمفاجأة للحاضرين الليلة، ولكني سمعته يحدث عمتي بشأنها اليوم سرًا.. وإنْ كنت أظن أنها لم تَعُد الآن سرًا، فإنّ كل شخص يعرف ماذا هناك.. حتى الأرملة نفسها تعرفه رغم أنها تتظاهر بأنها لا تعلم شيئًا.. لقد أصر مستر چونز على أنْ يحضر هاك الحفلة.

- وقال إنه لا يستطيع أنْ يفضي بسره الكبير بغير وجود هاك.

- وما صلة السر بهاك يا سيدني؟

- الصلة هي متابعة هاك للشريرين حتى قصر الأرملة، أعتقد أنّ مستر چونز كان يريد أنْ يجعل مِن هذا النبأ مفاجأة عظمى.. ولكني أعتقد أيضًا أنّ هذه المفاجأة لم تَعُد مفاجأة على أي حال.

ثم قهقه سيدني ضاحكًا بارتياح..

- سيدني.. هل كنت أنت الذي كشف السر؟

- ليس لشخصية مَن كشفه أي أهمية، ويكفي أنّ شخصًا ما كشفه.

- سيدني.. يوجد في هذه المدينة شخص واحد وضيع، وهذا الشخص هو أنت، فلو أنك كنت في مكان هاك لتسللت مبتعدًا بغير أنْ تكشف أمر اللصين لأحد.. فأنت لا تستطيع أنْ تفعل شيئًا غير وضيع.. كما أنك لا تستطيع أنْ تطيق الثناء على أي شخص يأتي عملًا طيبًا.

وأمسك توم بأذني سيدني وجذبه نحو الباب وهو يركله بقدمه، ثم أردف:

- والآن اذهب شاكيًا لعمتي إذا جرؤت، وغدًا أفتك بك! وبعد عدة دقائق كان ضيوف الأرملة يجلسون حول مائدة العشاء، بينما جلس نحو اثني عشر صبيًّا حول منضدة صغيرة في الغرفة نفسها جريًا على العادة المألوفة في تلك البلاد في ذلك الحين. وفي الوقت المناسب ألقى مستر چونز خطابه الذي شكر فيه الأرملة على الشرف الذي أنعمت به عليه وعلى ولديه، ثم قال إنّ هناك شخصًا آخر جعله تواضعه...

وهلم جرا.. ثم ألقى بقنبلته.. فكشف السر عن مغامرة هاك في كلمات حماسية كان يجيد استعمالها، ولكن السر لم يكُن سرًا كما قلنا.. ولذلك لم يُقَابَل بعاصفة من التصفيق الحاد كما كان جديرًا أنْ يحدث لو أنه ظل سرًا.. ومع ذلك فقد أبدت الأرملة قدرًا كبيرًا من التظاهر بالدهشة، وغمرت هاك بعبارات الشكر والتقدير، حتى كاد الصبي ينسى الضيق الذي كان يشعر به من جراء الثياب الجديدة، والتي أُرغِم على ارتدائها، وقد ازداد ارتباكًا حينما لاحظ أنه أصبح محط أنظار

جميع من بالغرفة!

وقالت الأرملة: إنها تعتزم أنْ تأوي هاك في منزلها، وأنْ تلحقه بالمدرسة ليتعلم.. وحينما يتاح لها المال فإنها ستهيئ له عملًا متواضعًا.. وعندئذ ألفى توم فرصته سانحة فقال:

- إنّ هاك ليس بحاجة للعمل.. لأنه غني!

وبُهت الحاضرون وحسبوها نكتة.. فراحوا يضحكون ثم شملهم صمت عميق بدده توم بقوله:

- إنّ هاك يملك مالًا كثيرًا.. لعلكم لا تصدقون ذلك.. ولكن الواقع لا حاجة بكم للابتسام، فإن في استطاعتي أنْ أثبت لكم ذلك.. فانتظروا لحظة.

وهرول توم خارجًا من الباب، فتطلع الحاضرون إلى بعضهم وقد ارتسمت على وجوههم علامات الحيرة الممزوجة بالاهتمام، ثم تطلعوا إلى هاك.. ولكن الصبي لاذ بالصمت.

قالت العمة بولي: ماذا دها توم يا سيدني.. يا إلهي! إنني لا أستطيع أنْ أفهم هذا الصبي و...

وأقبل توم في تلك اللحظة وهو يحمل الحقيبتين بصعوبة.. وسكب كومة الذهب الأصفر فوق المنضدة.

ثم قال: ها هي الثروة التي حدثتكم عنها.. إنّ نصفها ملك لهاك، والنصف الآخر ملك لي!

وشهق الحاضرون.. وحدقوا جميعًا في المال.. وقد سيطر عليهم صمت عميق. وبعدئذ انفجروا يطالبون بالإيضاح.. فقال توم: إنّ في استطاعته أنْ يقدم إيضاحًا.. وفعل، ومع أنّ القصة كانت طويلة إلا أنها كانت مثيرة وغريبة، ولم يحاول أحد أنْ يقاطع الصبي وهو يسرد تفاصيل المغامرة الرائعة، وعندما انتهى توم من الحديث قال مستر چونز:

- كنت أظن أنني احتفظت لكم بمفاجأة صغيرة لهذه المناسبة.. ولكنها لم تَعُد تُذكَر حيال هذه المفاجأة الضخمة!

وأُحصيَت النقود، فإذا بها أكثر قليلًا من اثني عشر ألفَ دولارٍ، وكانت أكثر مما استطاع أنْ يراه أحد من الحاضرين دفعة واحدة، ولو أنّ كثيرين منهم كانوا يملكون أكثر من ذلك على شكل أملاك.

***

الفصل الخامس والثلاثون

هاك المحترم ينضم للعصابة

يستطيع القارئ أنْ يتصور أنّ أنباء الثراء العريض الذي هبط على توم وهاك أحدثت ضجة عظيمة في قرية «سانت بطرسبرج» الصغيرة، فإنّ الكثيرين لم يستطيعوا أنْ يصدقوا أنّ إنسانًا ما يملك مثل هذا المبلغ الكبير نقدًا وعدًّا. وراح الجميع يناقشون الموضوع بحسد وغيرة، بل أنّ كثيرًا من المواطنين انتابتهم حمى البحث عن كنز، فلم يدعوا منزلًا خربًا في القرية والقرى المجاورة لها، إلا قلبوه رأسًا على عقب، هدموه من أساسه بحثًا عن كنز مخبوء، ولم تكُن هذه الحمى مقصورة على الصغار، وإنما امتدت إلى رجال من المشهورين بالرزانة والهدوء والبعد عن الخيال، وكان الناس كلما ظهر توم وهاك في مكان ما يلتفون حولهما ويصغون إلى حديثهما بإعجاب شديد، ولم يستطع الصبيان أنْ يتذكرا ملاحظاتهما كانت تلقى مثل هذا الاهتمام من قبل.. أما اليوم فقد أصبح الجميع يتلهفون على سماع هذه الملاحظات وتكرارها والتعمق في تأملها. وهكذا كان كل ما يفعلانه شيئًا مُهمًّا مدهشًا.. واعتقد الجميع أنّ الصبيين فقدا القدرة على فعل أو قول الأشياء والأقوال العادية، زد على ذلك إنّ الكثيرين انصرفوا إلى دراسة تاريخ حياة الصبيين، وأجهدوا أنفسهم في اكتشاف علامات تبشر بالنبوغ والعظمة، وقوة الابتكار كما نشرت صحيفة القرية مقتطفات عن حياتهما!

وأقرضت الأرملة دوجلاس نصيب هاك من الثروة لبعض الأشخاص مقابل فائدة قدرها ستة في المئة، وفعل القاضي تاتشر الشيء نفسه مع نصيب توم.. تلبية لرغبة العمة بولي. وهكذا أصبح لكل صبي منهما دخل مستقل الآن، دولار كامل في كل يوم من الأيام السنة.. وكان هذا الدخل مساويًا لما يحصل عليه الواعظ، بل كان ذلك هو الأجر الذي وعدوه بالحصول عليه.. وإنْ كان لم يستطع الحصول عليه قط.

وارتفع شأن توم في نظر القاضي تاتشر، وكان القاضي يصرح دائمًا بأنه كان يستحيل على صبي عادي إنقاذ ابنته من الكهف.. وعندما أبلغته بيكي -بمنتهى السرية- كيف أنّ توم تلقى طائعًا مختارًا عقوبة الضرب التي كان من المقرر أنْ تنزل بها.. تأثر القاضي، ولكنها ما كادت تخبره بنبأ الأكذوبة الكبرى التي لجأ الصبي إليها ليبعد الضرب عنها.. حتى صاح مستر تاتشر قائلًا: إنّ هذه أنبل وأكرم أكذوبة، أكذوبة تستحق أنْ ترفع رأسها وتسير عبر التاريخ! وخيل لبيكي أنّ أباها لم يبد في يوم من الأيام على هذا الطول وتلك العظمة، عندما أخذ يروح ويجيء في الغرفة وهو يضرب الأرض بقدمه وينطق بهذه الكلمات. ومِن ثَمَّ فقد غادرت المنزل على الفور، وأفضت إلى توم بكل ما قاله أبوها.

وأعرب القاضي تاتشر عن أمله في أنْ يصبح توم في المستقبل محاميًا عظيمًا، أو جنديًّا شجاعًا يشار إليه بالبنان، ثم أردف قائلًا: إنه قرر أنْ يساعد الصبي على الالتحاق بالأكاديمية العسكرية الأهلية، على أنْ يتلقى دراسته في القانون بعد ذلك في أحسن مدرسة حقوق بالبلاد، وبذلك يمكنه أنْ يمارس إحدى المهنتين أو يمارسهما معًا.

وأما هاكلبري فين فإن ثراءه، وتعهد الأرملة دوجلاس لشأنه أدخلاه إلى المجتمع، لا بل أنهما جذباه إليه جذبًا، وربما قذفا به إليه قذفًا، ولهذا كانت متاعبه أكثر مما يطيق احتماله. فقد دأب خدم الأرملة على المحافظة على نظافته وأناقته وتسريح شعره وتصفيفه، كانوا يغطونه في أثناء الليل بأغطية ثقيلة لا توجد بها بقعة واحدة، كما كان عليه أنْ يستعمل السكين والشوكة عند تناول الطعام، وأنْ يستخدم المنشفة والقدح ذا الطبق، وكان عليه أيضًا أنْ يتعلم في المدرسة، وأنْ يذهب إلى الكنيسة، وأنْ يتكلم بلغة مهذبة. وهكذا كان كلما أدار وجهه، وجد نفسه مكبلًا بأغلال المدنية التي تثقل يديه وقدميه!

ولقد احتمل الصبي هذه المضايقات مدة ثلاثة أسابيع، ثم اختفى ذات يوم.. وقضت الأرملة ثمانيَ وأربعين ساعة وهي تبحث عنه في كل مكان وقد تولاها جزع شديد، واهتم الجمهور بالأمر أيما اهتمام، وراح الجميع يبحثون عنه في النهر بغير جدوى. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم الثالث خرج توم يبحث عن صديقه في البراميل الكبيرة الفارغة الملقاة خلف المجزر، وإنّ هي إلا لحظات حتى عثر على الهارب مختبأ بداخل أحدها، وكان هاك قد قضى ليلته بداخل البرميل، وكان قد انتهى في تلك اللحظة من تناول طعام الإفطار الذي كان مكونًا من بعض ألوان تناول الطعام البسيطة التي سرقها من أماكن مختلفة، وحينما عثر توم عليه، وجده ممددًا وهو يدخن غليونه بارتياح شديد. وكان الصبي أشعث أغبر، يستر جسده بأسمال بالية مما تخلف لديه من حياته السابقة الحرة السعيدة، وأخرجه توم من البرميل، وأفضى إليه بما أثاره سلوكه من متاعب، ثم حثه على العودة إلى المنزل.. وفي التو انحسرت عن وجه هاك علامات الرضا والارتياح، وحلت محلها علامات الكآبة والضيق وقال:

- لا تحدثني عن حياة الترف يا توم، فقد سئمتها لأنني لست معتادًا عليها.. صحيح أنّ الأرملة رفيقة بي، ولكني لا

أستطيع احتمال هذه الحياة، إنها تجعلني أستيقظ في الوقت نفسه كل صباح، وتذهب بي للاغتسال، ثم يصففون شعري ولا تسمح لي بالنوم في الحظيرة الخشبية، وتضطرني إلى ارتداء تلك الثياب البغيضة التي تكاد تكتم أنفاسي، لأنها لا تسمح بتسرب الهواء.. إنها ثياب جميلة جدًّا، حتى أنني لا أستطيع الجلوس أو الرقاد أو التقلب بها في أي مكان، كما أنّ هذه الأرملة ترغمني على الذهاب إلى الكنيسة، فينْسَال عرقي ثم يَنْسَال، إنني أكره تلك المراسم من كل قلبي، وليس في استطاعتي أنْ أقتنص ذبابة وأنا جالس في الكنيسة، هي تضطرني إلى ارتداء الحذاء طوال يوم الأحد.. إنّ هذه الأرملة تأكل على دقات الجرس، وتأوي إلى الفراش بجرس، وتستيقظ بجرس، كل شيء بنظام دقيق لا يستطيع الإنسان احتماله.

- إنّك لإنسان يفعل ذلك يا هاك.

- توم.. إنّ ذلك لن يغير من الأمر شيئًا.. فأنا لست مثل كل إنسان، ولا يمكنني أنْ أطيق هذه الحياة.. وإنه لمن المزعج أنْ يقيد الإنسان بهذه الأغلال المخيفة.. إنني أحب الحياة الطلقة ولكني في قصر الأرملة لا أستطيع أنْ أذهب لصيد السمك إلا بإذن، ولا أستطيع أنْ أذهب للسباحة إلا بإذن، وإذا فعلت أي شيء بغير إذن قامت الدنيا وقعدت.. كذلك صرت مضطرًا إلى الكلام بلغة مهذبة، وإنْ لم أسترح إلى هذه اللغة.. وعدا ذلك فإنّ الأرملة لا تسمح لي بالتدخين أو الصياح، أو التحديق في أي شيء، أو التمدد، أو حك جلدي أمام الناس.. «ثم بدت على الصبي علامات الانفعال والألم»، وأردف: يا إلهي! إنها تقضي معظم وقتها في الصلاة والعبادة، إنني لم أرَ سيدة كهذه، وهكذا لم أجد مفرًا من الرحيل يا توم، ثم إنّ المدرسة على وشك فتح أبوابها، وستلحقني الأرملة بها، وأنا لا أستطيع إطلاقًا احتمال قيود المدرسة، اسمعني يا توم، إنني لا أبالي بالثراء الذي هبط عليَّ، لأنه أصبح مصدر قلق دائم.. كما أنه يجعل الناس تتمنى موتي في كل لحظة، إنّ هذه الثياب تلائمني، وهذا البرميل يرضيني، ولن أتخلى عنهما مهما كانت الظروف. وفي الحق إنني ما كنت لأتعرض لكل هذه المتاعب لولا تلك النقود.. فخذ حصتي وضمها إلى حصتك وأعطني عشرة بنسات بين حين وآخر - ولكن ليس بكثير لأنني لا أدفع ثمنًا إلا لما يصعب الحصول عليه- فاذهب الآن ودافع عني عند الأرملة!

- أوه يا هاك.. إنك تعرف إنني لا أستطيع أنْ أفعل ذلك.. لأنه ليس من العدل في شيء، ثم إنك إذا احتملت هذا الأسلوب الجديد من الحياة فترة أطول فسوف تألفه.

- آلفه! نعم.. مثلما آلف الموقد الساخن إذا اضطررت إلى الجلوس فوقه فترة كافية! كلا يا توم.. لن أكون ثريًّا، ولن أقيم في هذه المنازل البغيضة التي تكتم الأنفاس، إنني أحب الغابات والنهر والبراميل.. وسأظل أحبها. أفي الوقت الذي تتاح لنا فيه البنادق والكهف ويصبح كل شيء مُعدًّا للسرقة تبرز هذه السخافات لتقضي على تلك الآمال العريضة..

ووجد توم الفرصة سانحة فقال:

- أصغ إليَّ يا هاك.. إنّ الثروة التي هبطت علينا لا يمكن أنْ تجعلني أتخلى عن فكرة احتراف اللصوصية.

- أحقًا؟ هذا مدهش.. لكن هل أنت شديد اللهفة على ذلك يا توم؟

- نعم.. إنني متلهف على ذلك كلهفتي على الجلوس معك الآن. ولكننا لن نستطيع أنْ نسمح لك بالانضمام إلى العصابة ما لم تكُن شخصًا محترمًا!

وتلاشى مرح هاك وهتف:

- لا تستطيع أنْ تضمني إلى العصابة يا توم! ألم تسمح لي بأنْ أكون قرصانًا؟

- نعم.. ولكن ذلك أمر مختلف، فإنّ اللص أكثر تهذبًا من القرصان، بصفة عامة وفي أكثر البلاد يكون اللصوص من النبلاء والأشراف!

- ألم تكُن صديقي دائمًا يا توم؟ لا أظنك ستتنكر لي الآن.. أليس كذلك؟ إنك لن تفعل ذلك يا توم!

- إنني لا أريد أنْ أفعله يا هاك.. لكن ماذا سيقول الناس؟ سيقولون إنّ عصابة توم سوير ليست سوى جماعة من الأنذال الوضيعين! وهم بالطبع يقصدونك أنت يا هاك، وما أحسبك تحب ذلك كما أنني لا أحب أنْ يُقال ذلك عنك.

وصمت هاك عدة لحظات.. كان خلالها فريسة لصراع نفسي حاد.. وأخيرًا قال: حسنًا.. سأعود إلى الأرملة وأتحمل العذاب شهرًا آخر لأرى إنْ كان في استطاعتي أنْ أحتمله بشكل مستمر أم لا.. لكن بشرط أنْ تسمح لي بالانضمام

للعصابة.

- حسنًا يا هاك.. اتفقنا. والآن هلم بنا أيها الصبي وسأطلب من الأرملة أنْ تمنحك قسطًا أوفر من الحرية.

- أحقًا ستفعل ذلك يا توم؟ هذا حسن ليتها ترخي عنان الرقابة قليلًا فسأحرص على أنْ أدخن سرًا.. وآتي بعض الأعمال التي أصبحت جزءًا من حياتي في الخفاء.. لكن متى ستكوّن العصابة وتصبح لصًا؟

- في الحال.. سنجمع الصبيان وربما تبدأ التمهيدي الليلة.

- وما هو هذا العمل التمهيدي؟

- أنْ نقسم على أنْ يشد كل منا أزر الآخرين، وألا يفشي أسرار العصابة حتى ولو مزقوه إرْبًا، وأنْ نقتل أي شخص يسيء إلى أحد أفراد العصابة، ونقضي على أسرته.

- هذا رائع.. هذا رائع جدًّا يا توم؟

- الحق ما تقول يا هاك.. يجب أنْ ننتهي الليلة من القسَم.. على أنْ يكون ذلك في مكان منعزل مخيف، ولقد كان يحسن بنا أنْ نفعل ذلك في منزل مسكون، ولكن سوء الطالع شاء أنْ تباد هذه المنازل عن بكرة أبيها.

- حسنًا.. إنّ منتصف الليل هو أحسن وقت ملائم على كل حال.

- نعم.. إنه كذلك وسيتحتم عليك أنْ تقسم وأنت تضع يدك على تابوت.. وأنْ توقع القسم بالدم.

- أوه! هذا شيء جميل جدًّا.. إنّ اللصوصية أفضل مليون مرة من القرصنة. سأبقى مع الأرملة إلى أنْ يتعفن جسدي يا توم.. عندما أصبح لصًا محترفًا يتحدث الناس جميعًا عنه، فإنّ الأرملة على ما أظن ستفخر بأنها انتشلتني من المستنقع الآسن الذي كنت أعيش فيه!

***

الخاتمة

وعند هذا الحد تنتهي هذه القصة، وإنه لمن الأفضل أنْ تنتهي هنا، لأنها لا تعدو أنْ تكون ترجمة حياة صبي.. ولو أنّ القصة مضت إلى ما هو أبعد من ذلك، لكان حتمًا أنْ تصبح ترجمة حياة رجل.. فعندما يكتب المرء عن قصة أحد الراشدين فإنه يدرك أين ينبغي عليه أنْ يتوقف.. عند زواج مثلًا! ولكنه حينما يكتب عن الأحداث فإنه يحرص على أنْ يتوقف عن الكتابة عند أحسن خاتمة ملائمة!

إنّ معظم الأشخاص الذين لعبوا أدوارًا في هذه القصة، ما زالوا على قيد الحياة وهم ناجحون وسعداء، وقد يأتي يوم يصبح من الأفضل فيه أنْ نستأنف زوايا قصص هؤلاء الصغار مرة أخرى لنرى أي طراز من الرجال والنساء صاروا. ومِن ثَمَّ فإنّ الحكمة تقتضينا ألا نزيح الستر عن أي جزء من أجزاء حياتهم في الوقت الحاضر.

***

مارك توين

وُلِدَ عام ١٨٣٥ ووافته منيته عام ١٩١٠ بعد أنْ عاش خمسة وسبعين عامًا.. وضع عدة كتب أشهرها «توم سوير» و«هاكلبري فين»، و«أخذ الأمور كما هي»، و«الحياة على نهر المسيسبي».

كاتب عصامي، أحرز ما أحرزه من نجاح بفضل ما بذله من جهد مرير، فقد اشتغل عاملًا في المناجم ومراسلًا صحافيًا ومحاضرًا.

تَغْلِب على كتابته الدعابة الحلوة والفكاهة المرحة. بَيد أنّ هذه الفكاهة وتلك الدعابة لم تكونا مجرد وسيلة من وسائل الترفيه عن القرّاء أو التسرية عن المحزونين، بقدر ما كانت طريقة من طرائق معالجة أكثر مشاكل الحياة جدية.

تُرجِمَت قصصه إلى معظم اللغات الأجنبية ونالت تقدير النقاد في كل مكان.

***